دكتور يوسف القرضاوي

دروس في التفسير

تفسير سورة الرعد

إعداد وتحقيق
محمود عوض

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الثانية

مزيدة ومنقحة ومصححة

١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

الطبعة الأولى لمكتبة وهبة

رقم الإيداع ٥٨٨٧/ ٩٨

الترقيم الدولى I.S.B.N
977 - 225 - 118 - 3

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت : ٤٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه ... (أما بعد)

فهذه هي الطبعة الثانية لهذا الكتاب (**تفسير سورة الرعد**) تنشره مكتبة وهبه . وهي - بحمد الله تعالى وتوفيقه - طبعة مصححة منقحة ، فإن مما آسف له : أن الطبعة الأولى كان بها الكثير من الأغلاط ، حتى إن فقرة من تفسير آية من عدة صفحات سقطت من الطبع تماما ، كما وجدت فيها فقرات طويلة تكررت بغير مبرر .

وأنا حريص على أن أصحح (البروفة) الأخيرة من كتبي ، حتى أطمئن على سلامتها من الأغلاط التي تعتري الكتب أثناء الطباعة ، وهذا بلاء عام . ولكني اعتمدت على الأخ الكريم الأستاذ محمود عوض ، الذي تولى تفريغ هذه الدروس ، وتحقيقها والتعليق عليها . وهو أهل للثقة ، ولكن يبدو أن الناشر أسرع بطبع الكتاب دون أن يرده إليه لمراجعته ، ولهذا فوجيء هو بهذه الأغلاط .

وقد اضطرني هذا أن أراجع الكتاب مرتين : مرة لإعداده للطباعة ، ومرة أخرى لمراجعته النهائية . ومن هنا هذبت بعض العبارات ، وحذفت أحيانا وأضفت ، وهذا قليل محدود ، ولكنه نافع إن شاء الله .

ومن أهم ما صنعته في هذه الطبعة : وضع عناوين جانبية لمباحث الكتاب ، لتعين القارىء على استيعاب موضوعاته ، ولتكون أساسا للفهرس العام في ختام الكتاب .

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب مؤلفه ومحققه وناشره وقارئه ، وأن يرزقنا صدق النية ، وسداد التوجه ، والتوفيق في القول والعمل ، وأن يجعل القرآن الكريم منهاجنا في الدنيا ، وشفيعنا في الآخرة . اللهم آمين .

الدوحة في : رجب ١٤١٨ هـ
الموافق : نوفمبر ١٩٩٧ م

الفقير إليه تعالى
يوسف القرضاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المحقق

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

[آل عمران : ١٠٢]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسَ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ ، إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴾ .

[الأحزاب : ٧٠ : ٧١]

أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ ، وشرّ الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

القرآن الكريم أصدق الحديث ، بل هو الصدق المطلق قال تعالى : ﴿ وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر : ٣٣] ، فالصدق هو القرآن ، ومن جاء به — سواء كان الرسول ﷺ أو كان جبريل أو كان أصحاب القرآن المؤمنين به — جاء بالصدق ، ومن صدّقه فأولئك هم المتقون .

وهو أحسن الحديث قال تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾[الزمر:٢٣] ولا يكون أحسن الحديث إلا بجمعه الحسن فى المبانى ، إذ هو متشابه يشبه بعضه بعضاً فى بلاغته ونظمه وأساليبه وآياته وكلماته وحروفه ، والحسن فى المعانى فيرقى بالأفهام ويجمل ويفصل ويثنّى فى المعانى فيذكر الليل إلى جانب النهار ، والموت إلى جانب الحياة ، والمتقين إلى جانب الفجّار حتى تكتمل الصورة ،ويبلغ المعنى مبلغًا دقيقًا شافيًا وافيًا ، ولم لا يكون أليس هذا الحديث هدى الله يهدى به من يشاء ؟ بلى ومن يضلل الله فما له من هاد .

وإن نَقُلْ عن القرآن فلن يبلغ قولنا مقال رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين » ، بل قال فيما رواه البخارى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » ، وعند الترمذى تفصيل معجب لعظمة هذا الكتاب المعجز ، فيروى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه وكرّم الله وجهه أنه قال :« سمعت رسول الله ﷺ يقول : ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قلت : يا رسول الله وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبَّار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضلّه الله ، هو حبل الله المتين ونوره المبين ، والذكر الحكيم والصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يملّه الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الردّ ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجنّ إذ سمعته أن قالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ﴾[الجن : ١ ، ٢] ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أُجر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم ، خذها إليك يا أعور » وهذا الحديث رواه الترمذى عن

الحارث الهمذانى ، وقد رماه الشعبى بالكذب – قال القرطبى : وليس بشىء ، ولم يبن من الحارث كذب ، وإنما تقم عليه إفراطه فى حب علىّ ، وتفضيله له على غيره » (١) .

ولم لا يكون القرآن أكثر من هذا وهو كلام الله عزّ وجلّ الذى : ﴿ لا يَأْتيه الْبَاطِلُ منْ بَيْنِ يَدَيْه وَلاَ مِنْ خَلْفه تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] ، يقول الشاطبى رحمه الله عن القرآن هو « كلية الشريعة ، وعمدة الملّة ، وينبوع الحكمة ، وآية الرسالة ، ونور الأبصار والبصائر ، فلا طريق إلى الله سواه ، ولا نجاة بغيره ، ولا تمسك بشىء يخالفه » (٢) .

وهذه بعض خصائصه ، ومن خصائصه أيضًا « أنه كتاب مبين ، حتى إن منزله – سبحانه – سمّاه نورًا ،وهدى للناس ، وفرقانًا وبرهانًا وبينة ، وما ذلك إلا لشدة بيانه ووضوحه ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴾ [النساء : ١٧٤] ، وخاطب أهل الكتاب بقوله : ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّه نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِه وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة :١٥،١٦]،وخاطب الرسول المنزل عليه هذا القرآن بقوله: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾(٣)[النحل : ٨٩]

يقول الشيخ القرضاوى : (ومن نعمة الله أن ليس فى الدنيا كتاب توفرت على فهمه وتفسيره كبار العقول فى مختلف الأعصار والأمصار من شتى الثقافات والمعارف ، مثلما يسرّ الله للقرآن العظيم) (٤) .

وهذا ليس بمستغرب أن تحتفى الأمة بكتابها . وأن تتناوله عقولها الكبيرة بالبحث والدرس والتفسير ، فالكتاب وحى إلٰهى محفوظ لم تطله يد التحريف ولم تعبث به إرادة التزييف ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ

---

(١) انظر : مقدمة تفسير القرطبى ج ١ / ٤ .

(٢) انظر : الموافقات للشاطبى ج ٣ ص ٣٤٦ .

(٣) انظر : القرضاوى ، الخصائص العامة للإسلام ص ١٩٥ .

(٤) المصدر السابق ص ١٩٦ .

لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] وقد بلغـت العقول فى تتبعه مبلغًا يناسب كل عصر ، ولا يزال عطاء القرآن لكل العقول ولكل العصور مهما تقدمت العلوم ، وأبدعت الأفهام ، فإنه لا يخلَق على كثرة الردّ .

ولا زلت أذكر اهتمام شيوخنا بعلوم القرآن ومناظراتهم فى ذلك حتى يترسخ فى ذهنى أن العلماء قالوا كل شىء فيه فأفاجأ بجديد لم أقرأه تسمعه أذنى من مثل سؤال بعضهم عن الآية التى جمعت حروف الهجاء فيجيب الآخر إنها الآية ١٥٤ من سورة آل عمران وعن ربع الحزب الذى خلا من حرف الشين فيأتى الجواب إنه ربع : ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً .. ﴾ فى سورة التوبة : ٤٦ وغير ذلك مما يدل على حفاوة الأمة ، بعلمائها وحفّاظها ، بالقرآن الكريم شكلاً وموضوعًا .

وقد يسرّ الله لى قراءة كثير من تفاسير السلف والخلف فوجدت لكل تفسير ميزته التى يمتاز بها عن غيره يستوى فى ذلك التفسير بالمأثور والتفسير بالرأى ، والقرآن يعطى مفسره على قدر إخلاصه لله عزّ وجلّ وصدقه مع الله ،ولا يكاد يخلو كتاب من كتب التفسير من إضافة يضيفها ، إنْ فى العرض ، وإنّ فى السرد ، وإنْ فى الغوص مع المعانى ، وإنْ فى الاستنباط ، يستوى فى ذلك المأثور والرأى ، والموضعى والموضوعى ، والسلفى والخلفى وهكذا .. ولهذا أحب دائمًا أن أستمع لكل مفسر لثقتى أنه لن يعدم جديداً يأتى به ، وقد دفعنى هذا الحب وتلك الرغبة إلى تتبع القرضاوى مفسراً .

أولاً : فى كتبه وقد شاع الكلام عن القرآن فيها ، ولا يخلو كتاب من كتبه من إشارة أو عبارة يتحدث فيها عن القرآن ، بل إنه خصص بعض دراساته للحديث عن القرآن كما نرى ذلك فى كتابه « الصبر فى القرآن الكريم » وكتاب « كيف نتعامل مع القرآن الكريم » ، وبعض الفصول والأبواب فى كتبه التى بلغت الستّين أو زادت ، فالرجل ليس غريبًا عن القرآن بل إنه – كما قال لى فى بعض اللقاءات – ابن القرآن ، حفظه صغيراً وتوفّر على فهمه وقراءته كبيراً ، والذى يسمع الشيخ القرضاوى يتلو القرآن يجزم بحب هذا الرجل للقرآن وصدق عاطفته فى التعبد به لله عزّ وجلّ .

ومع هذا فالشيخ على أستاذيته وسبقه وعلو كعبه فى العلم بين المعاصرين له لم يؤلف فى التفسير ولم يكتب بما تعارف عليه المفسرون ، فكانت دروسه فى التفسير تلك هى الأثر الذى خلّفه ، أمدّ الله فى عمره وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ، ولعل الله تعالى أن ييسّر لنا دراسة الرجل دراسة وافية شاملة تبين إمامته وفضله الذى لا يغيب عن قاصٍ ولا دانٍ .

ثانيا : فى دروسه وخطبه ومحاضراته ، والشيخ القرضاوى ملء السمع والبصر إذا درّس أو خطب أو حاضر ، ولقد عايشت دروسه فى التراويح التى كان يعلق فيها على بعض آيات القرآن وسوره طيلة عشر سنوات منذ وطئت قدماى أرض قطر ، ولا يزال علاَّمَتُنَا مستمراً فى ذلك لا ينقطع ولا يتخلف(١) ، ومن خلال هذه المعايشة تبيّن لى منهج الرجل الثابت فى التعامل مع القرآن الكريم الذى يقوم على النظرة المعتدلة والشاملة ، ويبتعد عن الإفراط والتفريط ، ويربط الآيات بعضها ببعض ، ويتتبع اللفظة فى القرآن فيذكر معانيها ، وهذا يلاحظه القارىء فيما يأتى من تفسير سورة الرعد ، وقد أحصيت من خلال الهوامش الآيات التى استشهد بها الشيخ فى تفسيره لسورة الرعد فوجدتها تزيد عن ألف ومائة وستّين آية بعضها مكرر وكثير منها غيرمكرر فإذا علمنا أن عدد آيات سورة الرعد بضع وأربعون آية وأن القرآن كله ستة آلاف وستمائة وست عشرة آية (٢) تبيّن لنا اهتمام مفسرنا بتفسير القرآن بالقرآن إلى جانب السنة التى استشهد منها بما يزيد عن ثمانين حديثاً ، وإلى جانب أقوال الصحابة والتابعين والأئمة والعلماء وكثير من الظواهر والنظريات العلمية الكونية الحديثة مما يصدّق قوله فى مقدمة التفسير عن منهجه فى التفسير « إنه تفسير يأخذ من المأثور ويستخدم الرأى ، تفسير يجمع بين الرواية والدراية ، بين العقل والنقل ، بين الأصالة والمعاصرة ، يهتدى بتفسير السلف ولكنه يمحص ويرجح ، وليس أسيراً

---

(١) وقد بدأها منذ سنة ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م منذ وصل إلى قطر ، وبدأ بها صلاة التراويح .

(٢) انظر صديق بن حسن القنوجى فى كتابه أبجد العلوم ج ٢ ص ٥٠٠ ط دار الكتب العلمية .

لأحد ، ولا مقلداً لأحد ، يستفيد من كل التفاسير الماضية ، ولكنه لا يخوض في اللغويات بحيث يخرج القرآن عن مقصده وعن هدايته ، بل يهتم بإبراز مقاصد القرآن وهداية القرآن وعظمة القرآن وروعة القرآن ، وهو تفسير تحليلى وموضوعى يتتبع كلمات النص القرآنى ويحللها ويعايشها ، ويتتبع المعنى فى القرآن الكريم . . » .

من أجل ذلك كنت حريصاً على متابعة دروس التفسير ، ووجدت فيها من الجديد الذى يمكن أن يضاف إلى مكتبته خاصة وإلى المكتبة الإسلامية عامة ، فكان هذا الجهد المتواضع الذى أسأل الله تعالى أن يتقبله وأن يكتب لنا أجره وأن يغفر لى به ولوالدى ولشيخى ولقارىء هذا الكتاب وناشره ، والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله وسلم وبارك على سيدى رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه .

الدوحة في يوم السبت ١٧ جمادى الأولى ١٤١٥ هـ

٢٢ أكتوبر ١٩٩٤ م

محمود أحمد عوض

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المفسر

للطبعة الأولى

﴿ الْحَمْدُ لله الَّذى أَنزَلَ عَلَى عَبْده الْكتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عوَجًا * قَيِّمًا لِّيُنذرَ بَأْسًا شَديدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمنينَ الَّذينَ يَعْمَلُونَ الصَّالحَات أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا * مَاكثينَ فيه أَبَدًا ﴾ [الكهف : ١ - ٣] .

والصلاة والسلام على من أُنزل عليه الكتاب ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا محمد وعلى آله وصحبه الذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتّبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون ، وعلى من دعا بدعوته واهتدى بسنته وجاهد جهاده إلى يوم الدين .

أما بعد :

فمنذ سنوات وأنا ألقى درس الإثنين بعد صلاة العشاء بمسجد عمر بن الخطاب بمدينة الدوحة عاصمة دولة قطر، وكان هذا الدرس حرًّا ، أتنقل به من علم إلى علم حسب المقام ، فحيناً يكون فى العقيدة ،وتارة فى الأخلاق أو فى التربية ، وطوراً فى الفقه أو فى الاقتصاد ، وآخر فى التفسير أو فى الحديث أو فى السيرة ، وأحياناً أخرى فى الدعوة والفكر وواقع الأمة بين كيد أعدائها وغفلة أبنائها .

ثم اقترح علىّ بعض الإخوة المواظبين على الحضور خلال السنة الدراسية ١٩٩١ - ١٩٩٢ م أن أتناول سلسلة محددَّة فى موضوع معين ، بحيث تسجل فى أشرطة كما هو المعتاد ، وتفرّغ وتنشر على الناس ، فينتفعوا بها مقروءة ، كما انتفعوا بها مسموعة .

وكان من المقترحات المطروحة أن أبدأ دروساً فى (تفسير القرآن الكريم) تكون خدمة لكتاب الله عزّ وجلّ ، وتربط المسلمين به علماً وعملاً ودعوة

وجهاداً ، والقرآن هو أساس الوجود الإسلامى كله ، وهو ينبوع العقيدة ، وكلّية الشريعة ، وعمدة الملّة والسنّة إنما هى مبيّنته وشارحته ٠

وقد لاقي هذا المقترح هوًى فى نفسى ، فأنا ابن القرآن وربيبه ، منذ أتممت حفظه وتجويده وأنا دون العاشرة ، وقد كان لي وقفات مع كثير من آياته فى دروس التراويح فى رمضان لمدة ثلاثة وثلاثين عاماً قضيتها في قطر ، أصلى فيها التراويح ثمانى ركعات غير الشفع والوتر ، وأتلو فيها (جزءاً) من أجزاء القرآن الثلاثين ، وبعد الركعات الأربع الأولى تكون ترويحة ألقى فيها درساً ، فيما يفتح الله به علىّ من أسرار آيات كتابه العزيز ٠

وقد كنت فى السنة الدراسية السابقة (١٩٩٠ - ١٩٩١ م) معاراً من دولة قطر إلى جمهورية الجزائر الشقيقة ، بناء على طلب من الرئيس الجزائرى الأسبق الشاذلى بن جـديد ، وموافقة من أمير قطر الشيخ خليفة بن حمد آل ثانى ، لرئاسة المجلس العلمى لجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية فى مدينة قسطنطينة ، والتعاون مع وزارة الشؤون الدينية التى كان يرأسها صديقنا الدكتور سعيد شيبان ، وكان مما طلبه منى الإخوة فى الجزائر ، أن أقوم بدرس أسبوعى فى التفسير فى أحد المساجد الكبيرة بالعاصمة ، واقترحوا علىّ أن أبدأ (بسورة يوسف) رحبت بذلك ، وشرعت بالفعل فى هذا الدرس الذى كان يشهده الآلاف ويسجل مسموعًا ومرئيًا ، واستمر طوال تلك السنة الدراسية وإن لم يقدّر لى إكمال السورة ٠

ولهذا حين اقترح بعض الإخوة فى الدوحة أن أبدأ من (سورة الرعد) انشرح لذلك صدرى ، لتكون استكمالاً لما بدأت به في الجزائر من ناحية ، وتحقيقاً لرغبة قديمة من عدد من المحبّين كانوا قد طلبوا إلى أن أكمل (تفسير المنار) للعلامة المجدد السيد / محمد رشيد رضا رحمه الله وجزاه عن الإسلام والقرآن خيراً ٠

ومن هؤلاء العلامة الشيخ عبد الله بن زيد المحمود رئيس المحاكم الشرعية فى قطر ، الذى رغب إلىّ فى ذلك بعد وصولى إلى قطر بنحو ثلاث أو أربع

سنوات ، وقال سنوفر لك كل ما يعينك على أداء هذه المهمة ، ولكنّى تهيبت هذا الأمر ، ولم أجد الشجاعة ولا النية للإقدام عليه .

وبعد ذلك بسنوات عندما زرت مدينة (مسقط) عاصمة سلطنة عمان ، وسعدت بلقاء علّامتها الشيخ أحمد محمد الخليلى مفتى السلطنة ، كان مما اقترحه علىّ أن أتمم تفسير المنار على طريقة الشيخ رشيد ، ولكن لم يقدر لى التجاوب مع هذه الرغبات المخلصة .

فلا غرو أن أستجيب لهذا الاقتراح الجديد القديم ولا أزعم أننى أكمل تفسير المنار بهذا التفسير وذلك لعدة أسباب :

(**أولها**) أن هذا التفسير مرتجل ، وليس مكتوبًا محررًا . ولغة الارتجال لا ترقى إلى لغة الكتابة المحررة المدققة .

(**ثانيها**) أن الشيخ رشيد هو شيخى وأستاذى الذى أحببته وقدّرته من قديم ، والتلميذ لا يبلغ مبلغ شيخه ، وقد قيل : الفضل للمبتدى وإن أحسن المقتدى .

(**ثالثها**) أن لكل شيخ طريقته ، وأنا لا أُحسن التقليد ، ولم أحاول فى حياتى أن أكون نسخة من أحد ، فأنا متأثر بصاحب المنار ، ومعجب به ، ومستفيد منه ، ولكنى لست إيّاه .

(**رابعها**) أن السيد رشيد بدأ هذا التفسير وهو شاب واستمر خمسًا وثلاثين سنة يكتبه شهريًّا يصدّر به مجلته الشهيرة (المنار) ، ومع هذا لم يكمل إلا اثنى عشر جزءاً من القرآن ، فكيف أطمع أن أكمل هذا العمل الجليل ، وقد تجاوزت منتصف العقد السابع من العمر ؟؟ .

لهذا قدّمت هذه الدروس فى التفسير على طريقتى الخاصة مستفيداً من علوم السلف ، ومعارف الخلف ، وثقافة العصر ، دون محاولة منّى أن أفرض على كتاب الله ما يأباه ،وقد بيّنت منهجى فى التفسير والأسس التى قام عليها فى المقدمة بالتفصيل فليراجعها من أراد .

وما كان لهذه الدروس أن ترى النّور مقروءة فى كتاب ، لولا فضل الله

تعالى وتوفيقه أولاً ، ثم جهد الأخ الكريم ، الصحفى المسلم اللامع الأستاذ محمود عوض ، الذى قام متطوعًا مختارًا بتسجيل هذه الدروس على أشرطة (الكاسيت) ثم قام بإفراغها على الورق ، وضبطها وعلق عليها تعليقات مفيدة تدل على مدى علمه وفضله ٠

وقد نشرها أولاً بصحيفة (العرب) القطرية فى حلقات ، وها هو اليوم يعدها للنشر فى كتاب ، بعد أن عرضها علىّ وأجزتها بعد قليل جداً من التنقيح والإضافة ٠

جزى الله أخى الحبيب محمود عوض عنّى وعن العلم وعن القرآن خير ما يجزى به العاملين الذين أخلصوا دينهم لله ، وأخلصهم الله لدينهم ، وأرجو أن يكون منهم ٠

كما أدعوا الله تعالى أن يكون فى هذه الدروس ما ينفع المسلمين فى دينهم ودنياهم ، وما يأخذ بأيديهم فى عصر محنتهم ، ويهديهم سواء السبيل ، وأن يغفر لنا ما زلّ فيه القلم ، أو شرد فيه الفكر عن الصواب : ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَالاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٨٦]٠

الدوحة فى يوم السبت ٢٦ ربيع الثانى ١٤١٥ هـ

١ أكتوبر ١٩٩٤ م

الفقير إلى عفو مولاه

يوسف القرضاوى

* * *

بين يدى التفسير

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا وإمامنا محمداً عبد الله ورسوله أرسله ربه ﴿ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾[التوبة : ٣٣] ، أنزل عليه الكتاب : ﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴾ [الكهف : ١] .

صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته واهتدى بسنته وجاهد جهاده إلى يوم الدين .

أما بعد :

فنبدأ باسم الله وعلى بركة الله دروسنا فى تفسير كتاب الله عز وجل ونرجو أن يعيننا الله تبارك وتعالى وأن يمدنا بتوفيقه لتستمر هذه الدروس ، وقد طلب إلى بعض الأخوة من قديم أن أبدأ من حيث انتهى العلاَّمة المجدد السيد رشيد رضا [١] رحمه الله وتقبله فى الصالحين والعلماء العاملين ، صاحب المنار حيث

---

(١) محمد رشيد ين على رضا بن محمد بن شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن ملا على خليفة القلمونى البغدادى الأصل ، الحسينى النسب ، صاحب مجلة « المنار » وأحد رجال الإصلاح الإسلامى ، من الكتاب العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير ، ولد ونشأ فى القلمون (من أعمال طرابلس الشام) عام ١٢٨٢ هـ (١٨٦٥ م) وتعلم فيها وفى طرابلس ، وتنسك ونظم الشعر فى صباه وكتب فى بعض الصحف ، ثم رحل إلى مصر سنة ١٣١٥ هـ فلازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ له ، وأصبح مرجع الفتيا فى التأليف بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة ، ولما أعلن الدستور العثمانى (١٣٢٦ هـ) زار بلاد الشام ، ثم عاد إلى مصر وأنشأ مدرسة « الدعوة والإرشاد » ثم قصد سورية فى أيام الملك فيصل بن الحسين ، وانتخب رئيساً للمؤتمر السورى فيها ، وغادرها على إثر دخول الفرنسيين إليها سنة ١٩٢٠ م فأقام فى وطنه الثانى مصر مدة ، ثم رحل إلى الهند والحجاز وأوروبا ، وعاد فاستقر بمصر إلى أن توفى عام ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م ، أشهر آثاره مجلة « المنار » أصدر منها ٣٤ مجلداً ، و « تفسير القرآن الكريم » اثنا عشر مجلداً منه إلى آخر سورة يوسف ولم يكمله .

انتهى فى التفسير من سورة يوسف ، وكنت فى العام الماضى حينما كنت فى الجزائر (١) قد بدأت التفسير بسورة يوسف وإن لم أتمها ، وأرجو الآن أن أبدأ بسورة الرعد ٠

ولكنى أحب قبل أن أبدأ فى التفسير مباشرة أن أقدم - على طريقة علمائنا من أهل التفسير - بعض المقدمات التى يحسن أن تكون فى مقدمة أى تفسير ٠

نحن المسلمين أكرمنا الله تبارك وتعالى بما لم يكرم به أمة قبلنا وليس هناك أمة بعدنا ، أكرمنا الله سبحانه وتعالى بهذا القرآن ، ونحن المسلمين وحدنا الذين نملك هذه الوثيقة السماوية الإلَهية التى تتضمن كلمات الله تبارك وتعالى الأخيرة للبشرية ، كلمات الله التى لم تشبها شائبة ، ولم يدخل عليها باطل من باطل الإنسان ، ومن أهواء الإنسان وأوهامه وقصوره وأخطائه .وصدق الله العظيم حينما قال ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] ، فنحن عندنا هذا القرآن المحفوظ فى الصدور ، المدَّون فى المصاحف ، المتلو بالألسنة ، المتعبد بتلاوته ، نقرأه كما أنزل على محمد ﷺ لم ينقص منه سطر ولا كلمة ولا حرف ، نقرأه بغنّه ومدّه (٢) ، وحركاته وسكناته ، كما كان يقرأه النبى ﷺ والصحابة من بعده ، وكما تلقته أجيال الأمة عنهم جيلاً بعد جيل ، حتى كتابته بالرسم العثمانى (٣) بقيت كما هى ، مع زيادة فى النقط والشكل ٠

فالقرآن هو كتاب الله الذى ﴿ لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ﴾ [فصلت : ٤٢] ، تميز بأنه كتاب الخلود ، كتاب الزمن كله ، ليس كتاب عصر من

---

(١) انتدب الشيخ القرضاوى للإشراف العلمى على الجامعة الإسلامية فى الجزائر لمدة عام واحد سنة ١٤١١ هـ الموافق : ١٩٩٠ و ١٩٩١ م ٠

(٢) يعنى أحكام التجويد من الإظهار والإخفاء والإدغام والغن والمد وغيرها مما يعرف عند المتخصصين فى علوم القرآن وأهل الأداء (القرَّاء) ٠

(٣) نسبة إلى الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضى الله عنه الذى أحرق المصاحف المتعددة وأبقى منها مصحفاً واحداً برسم واحد هو الرسم العثمانى ، سمى المصحف الإمام ، وجعل منه ست نسخ أرسل منها إلى الأمصار ، وليست نسبته إلى الخطاط الحافظ عثمان التركى الذى نسخ المصحف بخطه كما قد يتوهم ٠

العصور ، ولا كتاب جيل دون جيل ، ولهذا لم يستحفظه الله المسلمين ، كما استحفظ التوراة أهلها ، إنما هو سبحانه الذى حفظه ، إذ ليس هناك كتاب بعد القرآن فلو حرِّف القرآن لن يأتى بعده كتاب آخر يهيمن عليه ويصحح له وليس هناك نبى بعد محمد ﷺ وليس هناك رسالة بعد الإسلام وليس هناك أمة بعد هذه الأمة .

ولذلك ضمن الله وتكفل بحفظه ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] ، والجملة الاسمية كما يقول البلاغيون إنها مؤكدة أكثر من الجملة الفعلية ، فإذا دخلت عليها إن وهى حرف تأكيد كان ذلك أكثر تأكيداً ، فإذا جاء الخبر مقروناً بلام التأكيد ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ فهذا زيادة فى المؤكدات التى جاء بعضها وراء بعض لتدل على مدى الحفظ الإلَهى ، فالقرآن كتاب محفوظ ، كتاب خالد . ولهذا هيأ الله له أسباب التواتر منذ عهد البعثة إلى اليوم ،ولا يوجد كتاب فى الدنيا يحفظه الألوف وعشرات الألوف غير القرآن الكريم .

بل إن الصبيان عندنا يحفظونه ، على عكس ما يوجد عند أهل الكتاب ، إذ لا يوجد عندهم من يحفظ الكتاب المقدس ولا نصفه ولا ربعه ولا خمسه ولا عشره ، لا على مستوى القسيسين والكرادلة والأساقفة فحسب بل على كل المستويات الأعلى والأدنى ، ولعلكم سمعتم وقرأتم عن صبية حفظوا القرآن ، وأطفال دون السابعة حفظوه [١] وقرى بأكملها يحفظ أهلها القرآن [٢] .

---

(١) حفظ الشيخ يوسف القرضاوى القرآن الكريم كله وهو دون العاشرة ،وحفظه بعض الصبية من أبناء المسلمين وهم دون السابعة ، وقد احتفل منذ سنوات فى مصر بالطفل محمود سلاّم مطاوع من قرية سجين مركز قطور محافظة الغربية الذى حفظ القرآن الكريم وأتقنه وهو دون السابعة .

(٢) احتفل فى مصر هذه الأيام بقرية كاملة يحفظ أهلها القرآن الكريم ، هذه القرية هى قرية (أويش الحجر) وغيرها كثير من القرى التى لم تعرف إلاَّ فى بلاد المسلمين .

وأعجب من هذا أن تجد من غير العرب من يحفظ القرآن وهو لا يكاد يعرف كلمة واحدة فى اللغة العربية ، وقد اختبرت بعضهم بنفسى ، وكنت آتيهم بالمشتبهات من الآيات فلا يلحنون ولا يسقطون كلمة ،ولا يخرمون حرفًا كأنهم أجهزة تسجيل ومنهم من أبناء باكستان وبنجلاديش وبورما ولو سألت أحدهم ما اسمك ؟ لا يعرف معناها ؛ لأنه لا يعرف العربية ، وهذا من إعجاز القرآن الكريم ٠

والقرآن الكريم هو كتاب الإسلام ، فهو المصدر الأول لهذا الدين يؤخذ منه أول ما يؤخذ ، قواعد الدين ومقاصده وكلياته ، وتأتى السنة المصدر الثانى لتبين وتفسر ولكن الأساس فى كتاب الله عز وجل ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل : ٨٩] لكل شىء فى أمور الدين أما أمور الدنيا فقد تركت لنا وبحسب القرآن أن يشير إلى ما يهدى إليها فنحن أعلم بأمور دنيانا (١) ، أما كليات الدين وقواعده ومبادئه وأساسياته فهى فى القرآن الكريم ٠

ومن خصائص القرآن الكريم أيضًا أنه كتاب ميسر قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ١٧ ، ٢٢ ، ٤٠] وقال عز وجل : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الدخان : ٥٨] ، فهو ميسر للفهم ، وميسر للحفظ ، لأنه كتاب مبين ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ [يوسف : ١ ، الشعراء والقصص : ٢] فهو بيِّن فى نفسه ، مبين للحقائق ، كاشف للناس عمَّا يوصلهم إلى سعادة الدنيا والآخرة ٠

ومن خصائصه أنه كتاب معجز ، هو معجزة محمد ﷺ الكبرى وآيته العظمى ٠

لم يتحدّ النبى ﷺ بأى آية من الآيات مع أن الله سبحانه وتعالى أظهر على

---

(١) إشارة إلى حديث رسول الله ﷺ الذى رواه مسلم فى صحيحه عن عائشة رضى الله عنها وعن ثابت وعن أنس رضى الله عنهما فى كتاب الفضائل باب وجوب امتثال ما قاله شرعًا ، دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأى ، والحديث طويل جاء فيه : « قال أنتم أعلم بأمر دنياكم » ٠

يديه من الآيات والخوارق الكونية أكثر مما أظهر على أيدى الأنبياء والرسل السابقين .

آيات كثيرة ألفت فيها كتب تسمى (دلائل النبوة) عن الآيات والمعجزات والخوارق للعادات والإنباء عن الغيوب ، كتكثير الطعام القليل بين يديه ، وتفجير الماء من بين أصابعه ، وحنين الجذع إليه ، وتسبيح الحصى بين يديه ﷺ ، وانشقاق القمر له ، والإسراء والمعراج وأشياء كثيرة جداً ، ومع هذا لم يتحدّ إلا بالقرآن ، فهو الآية التى تحدى بها العرب أن يأتوا بمثله : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [الطور : ٣٤] أو بعشر سور مثله : ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ [هود : ١٣] أو بسورة من مثله ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣] تحداهم وقال إنكم لن تفعلوا ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة : ٣٤] فغلبوا وانقطعوا وحقت عليهم كلمة الله : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨] .

هذا هو القرآن الكريم الذى أكرم الله به أمة الإسلام وأعطاها هذا الدستور الخالد ، وهذا المنهاج الشامل الذى أخرجها من الظلمات إلى النور ، والذى كان حبل النجاة للعرب ، فأخرجهم من الجاهلية إلى الإسلام ، ومن الشرك إلى التوحيد ومن الكفر إلى الإيمان ومن الفوضى إلى النظام ، ومن الجهل إلى العلم ومن البداوة إلى الحضارة ، قال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة : ١٥ ، ١٦] .

هذا الكتاب فسره المسلمون وخدموه كلٌّ فى مجال اختصاصه ، فمنهم من خدمه بالحفظ ومنهم من خدمه بالكتابة ، ومنهم من خدمه بالقراءة ، ومنهم من خدمه بالتفسير ، ومنهم من خدمه باستنباط الأحكام من آياته وذلك منذ عهد الصحابة إلى يومنا هذا .

وقد يسأل سائل لقد قلت إن القرآن كتاب مبين وكتاب ميسر للفهم والذكر فلماذا احتاج إلى تفسير ؟ ..

أقول احتاج القرآن إلى تفسير لأن الكلام البليغ الذى يوجز المعانى الكثيرة فى ألفاظ قليلة يحتاج إلى أن يفسر ويشرح للناس ، حتى يكتشفوا ما وراء كلماته من كنوز المعرفة والحقائق ، ثم هناك ألفاظ قد تخفى معانيها على الناس وهو ما يعرف بعلم غريب القرآن (١) وهناك أشياء قد يفهمها الناس على غير وجهها كمن يأخذ المجاز على أنه حقيقة ، كما يروى عن عدى بن حاتم الطائي أنه فهم من قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ﴾ [البقرة : ١٨٧] أنهما خيطان على الحقيقة ، وجاء بخيطين أحدهما أبيض والآخر أسود ووضعهما على وسادته ، ومضى ينظر فلا يتبين له الخيط الأبيض من الأسود ، فلما كان النهار ذهب إلى رسول الله ﷺ فقال النبى ﷺ : (إنما هما بياض النهار وسواد الليل) (٢) وبينَّ له أن الأمر على المجاز .

ومنهم من يفهم من اللفظ العموم ، والمراد به الخصوص ، كما يروى عن الصحابة رضوان الله عليهم أنهم فهموا من قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٢] عموم الظلم ومنه ظلم النفس بالمعصية ، ومن ذا الذى يُعْصَم من المعصيـة ؟! فقالوا

---

(١) للقرآن علوم كثيرة صنّف فيها العلماء من السلف والخلف كثيراً من الكتب ، ومن هذه العلوم علم غريب القرآن وهو وإن كان مذكوراً فى كتب اللغة إلا أن بعض العلماء أفردوه بالتصنيف منهم أبو عبيدة وأبو عمر الزاهد وابن دريد العزيزى وهذا أشهرها ، قيل أقام العزيزى فى تأليف غريب القرآن خمس عشرة سنة يحرره هو وشيخه زبو بكر بن الأنبارى ،ومن أحسنها مفردات الراغب ولأبى حيان مختصر فى ذلك .. انظر أبجد العلوم الجزء الثانى ص ٥٠٢ لمؤفه صديق القنوجى .

(٢) الحديث رواه البخارى فى كتاب الصـوم باب قوله تعالى ﴿ وَكُلُوا واشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُم .. ﴾ ولفظ البخارى (إنما سواد الليل وبياض النهار) ورواه مسلم فى كتاب الصيام باب بيان أن الدخول فى الصوم يحصل بطلوع الفجر ورواه غيرهما .

رسول الله : وأينا لا يظلم نفسه ؟! .. فقال ﷺ : أما سمعتم قول العبد الصالح ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [1] وهو من كلام لقمان لابنه ﴿ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] .

فبين لهم أن الظلم المقصود فى الآية ليس أى ظلم كما يفيد اللفظ . لأنه نكرة فى سياق النفى فهي تعم ، ولكن المقصود ظلم معين بينته الآية الأخرى وهو الشرك .

ومن تأمل فى الآية حق التأمل عرف أن الظلم فى الآية فعلاً يعنى : الشرك لأنها تعلق على موقف إبراهيم عليه السلام حينما خوفوه بأصنامهم أن تكيد له أو تنزل به الضرر فقال من الذى يخاف من الآخر ؟ أنا أخاف الأصنام أم أنتم الذين ينبغى أن تخافوا الله سبحانه وتعالى ؟! ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٨١ ، ٨٢] أى لم يخلطوا ولم يشوبوا توحيدهم بشرك فالمقام يقتضى هذا ، فإذا كان الصحابة قد اشتبه عليهم بعض الآيات وفهموها على غير وجهها ، فحرى بمن كان بعدهم أن يحدث له هذا .

ثم إن هذا القرآن مليء بالأسرار ، حافل بالحقائق التى قد تظهر لبعض الناس دون بعض ، وتظهر فى بعض الأزمنة دون بعض ، ولهذا ورد فى حديث الترمذى أنه (لا تنقضى عجائبه) [2] ، ومن أجل هذا دعا النبى ﷺ لابن عمه عبد الله ابن عباس فقال : (اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل) [3] .

---

(١) الحديث رواه أحمد والبخارى فى كتاب الإيمان وغيره ، وابن أبى حاتم وابن مردويه وانظر ابن كثير فى تفسير الآية ص ١٥٢ ج ٢ ولفظ الإمام أحمد (فقالوا يا رسول الله أينا لم يظلم نفسه ؟ قال إنه ليس الذى تعنون ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح : « يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » إنما هو الشرك) .

(٢) جزء من حديث طويل رواه الترمذى وقال غريب وإسناده مجهول ، وانظر ص٤ من هذا الكتاب .

(٣) رواه البخارى فى كتاب الوضوء باب ١٠ من حديث ابن عباس دون قوله (وعلمه التأويل) وهذه الزيادة موجودة من رواية أحمد وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد ،ورواه أيضاً مسلم فى فضائل الصحابة .

وقد يظهر لواحد مالا يظهر لغيره ، كما قال سيدنا على – كرم الله وجهه – حينما قيل له : هل خصَّكم رسول الله ﷺ بشيء ؟ قال : لا ، إلا فهمًا يؤتاه عبد فى كتاب الله ، وما فى هذه الصحيفة [1] ، وأخرج لهم صحيفة فيها بعض الأحكام .

فالناس تتفاوت فهُومُهم فى الاستنباط من القرآن ، وفى الفهم عن الله ، يقول الله عز وجل : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِى الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء : ٨٣] ، فلا عجب أن يحتاج القرآن إلى تفسير ، وخصوصًا أن الله سبحانه وتعالى أنزل فى القرآن آيات محكمات وآيات متشابهات قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِه ،وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ ، وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾[آل عمران :٧] من أجل هذا كانت هناك آيات تحتاج إلى توضيح وتفسير،وايات تحتاج إلى تجلية وزيادة بيان،ومن أجل هذا احتاج القرآن إلى أن يفسره المسلمون فى كل عصر بما يفتح الله على من تعرض لهذا التفسير ولا شك أن كل عالم يتمنى أن يكون له حظ من خدمة القرآن الكريم،وأحب أن يكون لى حظ من خدمة القرآن العظيم [2]

---

(١) أخرجه النسائي من رواية أبى جحيفة قال : (سألنا عليًّا فقلنا هل عندكم من رسول الله ﷺ شيء سوى القرآن ؟ فقال : لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة إلا أن يعطى الله عبداً فهما فى كتابه . .) وهو عند البخارى فى كتاب الجهاد ، وفى الديَّات بنحـــو هذا ولأبى داود والنســائي (فقلنا هل عهد إليك رسول الله ﷺ شيئًا لم يعهده إلى الناس ؟ قال : لا إلاَّ ما فى كتابى هذا) ، كما رواه مسلـــم فى كتاب الإيمـان ١٣١ ، والترمـــذى فى الديـــات والدارمى ومســند أحمد ابن حنبل .

(٢) لفضيلة الدكتور ما يقرب من سبعين كتابًا منها الدراسات الفقهية كالحلال والحرام الذى ترجم إلى أكثر من أربعين لغة و (فقه الزكاة) وهو كتاب جامع فى بابه ومنها ما يتعلق بالسنة ككتابه كيف نتعامل مع السنة وكتابه المنتقى من الترغيب والترهيب وله مباحث فى الإيمانيات والإسلاميات والفكر والاقتصاد والواقع وغيرها وله من المباحث القرآنية كتاب الصبر فى القرآن الكريم ، والعقل والعلم فى القرآن .

وأرجو أن يوفقنى الله إلى هذا ، كما أرجو أن يوفقنى إلى كتابة شىء فى سيرة رسول الله ﷺ .

ومن هنا نحاول أن نعيش مع القرآن وفى رحاب القرآن نتدبره ونتأمله ، وقد أنزله الله تعالى ليُتدبَر كما قال عز وجل : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [سورة ص : ٢٩] وكما قال أيضًا : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] وفى سورة محمد وتسمى سورة القتال : ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [محمد : ٢٤] فنحن نريد أن نتدبر القرآن الكريم ، وما تفسير القرآن إلا رحلة تأمل وتدبر فيه ، وليس معنى هذا التدبر والتفسير أن نترك التراث الهائل الذى ورثناه من التفاسير ونبدأ من الصفر ، فلا يقول بهذا إنسان شمَّ رائحة العلم ، والذى يظن أنه يبدأ من الصفر لا يعرف فى العلم شيئًا ؛ لأننا أمة ورثنا تركة طائلة من العلوم ليست عند أمة من الأمم ، ومنها : علم التفسير الذى بدأ منذ عصر الصحابة الخلفاء الراشدين وعبد الله بن مسعود ، وابن عباس ، وتلاميذهم من بعدهم : مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ، والمدرسة المكية ، والمدرسة المدنية ، والمدرسة الكوفية فى التفسير ، وأتباع التابعين إلى من بعدهم .

هذا التراث لابد أن ننتفع به ولابد أن نستفيد من مدارس التفسير كلها : التفسير بالرواية ، والتفسير بالدراية ، أو ما يسمى التفسير بالمأثور والتفسير بالرأى ، وهناك قواعد لابد أن نسلم بها إذا أردنا أن نفسر كتاب الله عز وجل تفسيرًا على منهج سليم .

أولى هذه القواعد أن خير ما يفسر القرآن هو القرآن ، لأن القرآن يصدق بعضه بعضًا ويفسر بعضه بعضًا كما قرأنا : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] فما أُجمل فى مكان نجد تفسيره وتفصيله فى مكان آخر وما كان عامًا فى موضع يخصصه موضع آخر ، وما كان مطلقًا فى آية قد تقيده آية أخرى .. وهكذا ، ولهذا لابد لمفسر القرآن أن يكون مستوعبًا للقرآن مستحضرًا له بحيث يستطيع أن يأتى - فى الموضوع الواحد - بالآيات

المشابهة والآيات المقابلة ولآيات المتممة ، وقد يعين على ذلك فى عصرنا من لم يحفظ القرآن ويعايشه : المعاجم ، مثل المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم [1] وإن لم يغن فى كل الأمور فقد يتكرر المعنى بغير اللفظ الواحد .

فالقرآن يفسر القرآن والذى سنّ لنا هذه السنة هو رسول الله ﷺ حينما قال للصحابة – رضوان الله عليهم – أما سمعتم قول العبد الصالح : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] [2] وأنت حينما تقرأ فاتحة الكتاب ، وتقرأ فيها : ﴿ الْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الفاتحة : ٢] وتتساءل ما المقصود بالعالمين ؟ تجد توضيح ذلك فى آية أخرى فى سورة الشعراء فى حوار موسى مع فرعون ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٢٣ ، ٢٤] فعلمنا أن العالمين هى السموات والأرض وما بينهما ، فهو رب الكون كله علويه وسفليه ، وحينما تقرأ من فاتحة الكتاب : ﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الفاتحة : ٤] تجد تفسير يوم الدين فى سورة الانفطار : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ * يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ، وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لله ﴾ [الانفطار ١٧ ، ١٨ ، ١٩] .

وهكذا فالذى يريد أن يفسر القرآن ينبغى أن يبحث عن المعنى فى سور القرآن المختلفة تقرأ : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِم ﴾[الفاتحة: ٦ ، ٧] فإذا أردت أن تعرف من هم الذين أنعم الله عليهم ؟ تجد آية أخرى فى سورة النساء : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء : ٦٩] لا ينبغى إذاً لمن يفسر القرآن أن يمسك بآية واحدة ويدع بقية القرآن ، بل ينبغى أن يتتبع اللفظ حيناً وأن يتتبع المعنى حيناً آخر ليعرف موقف القرآن من القضية التى تعنيه .

---

(١) الذى وضعه الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى ، ومثل المرشد إلى آيات القرآن ، ودليل الحيران فى الكشف عن آيات القرآن ومثل معجم ألفاظ القرآن الكريم الذى أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، وغير ذلك .

(٢) وتقدم تخريج الحديث .

هناك قوم أخذوا قوله تعالى عن الخمر والميسر : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة : ٩٠] فقالوا : إن القرآن قال فاجتنبوه ولم يقل حرمت عليكم وكأن كلمة فاجتنبوه هذه كلمة هينة ، ولو أنهم تتبعوا كتاب الله لوجدوا أن هذه الكلمة إنما جاءت مقترنة بأعظم الذنوب : بالشرك ، وبالأوثان ، وبالكبائر . يقول الله تعالى : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ [الحج : ٣٠] ويقول : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا ﴾ [الزمر : ١٧] ويقول : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] ويقول ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ ﴾ [النجم : ٣٢] ويقول : ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ [الشورى : ٣٧] فلو نظرت لوجدت أن الكلمة تأتى مع الشرك ومع الأوثان ومع الطاغوت ومع كبائر الإثم ، وهذا هو مورد الكلمة فى القرآن ، ومعنى اجتنب أي اجعل بينك وبين الشيء جانبًا ، فكأنها لم تنه عن اقتراف الذنب أو الإثم فقط بل نهت عن فعله وعن الاقتراب منه فهى تشبه (لا تقربوا) كما فى آيات الزنا قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء : ٣٢] فالقرآن لم ينه عن الزنا فقط بل نهى عن الاقتراب منه ، وعن ما يقرب منه ، ويوصل إليه ويساعد عليه ، مثل التبرج والخلوة والقبلة ، إلى غير ذلك .

بعض المستشرقين [1] أمسكوا بعض الآيات وقالوا إن محمداً لم يكن يفكر فى عالمية الدعوة إلا فى المدينة بعد أن استتب له الأمر بعد صلح الحديبية وبدأ يرسل إلى الملوك والأباطرة وكسرى وقيصر والنجاشى والمقوقس ، وقبل ذلك فى

(١) منهم السير وليم ميور ، الذى يقول : « إن فكرة عالمية الرسالة قد جاءت فيما بعد ، وإن هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التى تؤيدها ، لم يفكر فيها محمد نفسه ، وعلى – فرض أنه فكر فيها فقد كانت الفكرة غامضة ، فإن عالمه الذى كان يفكر فيه إنما كان بلاد العرب .. » إلى آخر ما قال هو وغيره .. انظر « الدعوة إلى الإسلام » تأليف سيرتوماس . و . أرنولد (SIR THOMAS W . ARNOLD) وترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسنن وغيره ص ٤٩ ، ص ٥٠ طبعة مكتبة النهضة المصرية .

مكة لم يكن يفكر فى عالمية الدعوة ، بل كان يفكر فى عشيرته الأقربين وفى من حول مكة ، واستدلوا على ذلك بقول الله عز وجل : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] وبقوله تعالى : ﴿ لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الأنعام : ٩٢ ، الشورى : ٧] وهذا فى الحقيقة لون من الاعتساف والتزييف ، لأن الذى يريد أن يعرف الحقيقة لابد له من أن يقرأ القرآن ويعرف ما فيه ، فالقرآن المكى واضح وصريح فى عالمية الدعوة ، قال تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [ص : ٨٧ ، التكوير : ٢٧] وقال : ﴿ وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [القلم : ٥٢] وهذا ورد فى سور شتى من القرآن الكريم كسورة « ص » وسورة التكوير ، وسورة القلم ، ومثل هذا كقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ، وقوله : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] وقوله: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف : ١٥٨] وقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ : ٣٨] وكل هذه الآيات مكية ، والعجيب أن الآيات التى صرّحت بعالمية الدعوة آيات مكية بالإجماع ، وهذا يدل على أن عالمية الدعوة لم تكن أمرًا قد خطر لمحمد ﷺ فى المدينة بعد أن استتب له الأمر ، ولكن الصحيح أنه بعد أن صالح محمد ﷺ قريشًا واستتب له الأمر بدأ يفكر فى نشر الدعوة الإسلامية خارج الجزيرة العربية ، وقبل ذلك لم تكن الفرصة مواتية لمثل هذا ، بل لم يترك رسول الله ﷺ ليستريح يومًا ما .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] فهذا من مراحل الدعوة والرسول ﷺ يقول : « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول » [١] ، فالإنسان يبدأ أول ما يبدأ بدعوة أهله ودعوة جيرانه ودعوة من حوله ثم يوسع النطاق شيئًا فشيئًا ، فقوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ﴾ يعنى بنى عبد مناف

---

(١) إشارة إلى الحديث المتفق عليه فى البخارى فى كتاب الأحكام باب بيع الإمام على الناس أموالهم وضياعهم ، وفى مسلم فى باب الابتداء فى النفقة بالنفس ثم القرابة ، وانظر : اللؤلؤ والمرجان رقم ٥٨١ .

ثم قريشًا ثم بعد ذلك أهل مكة ومن حولها أو ﴿ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ ، وهذه الحكمة فى التدرج لا تنافي عالمية الدعوة فعلى من يتعرض لقضايا القرآن أن يتتبع اللفظ وأن يتتبع المعنى حتى ينتهى إلى الرأى الصائب السديد .

كتب بعض المفكرين المسلمين كتابًا وأسماه « الظاهرة القرآنية » (١) ذكر فيه أن إخناتون – الفرعون المصرى الذى عرف بالدعوة إلى التوحيد ، وترك الشمس وآلهة المصريين القدماء « رع . وآمون .. وغيرها » ودعا إلى إله واحد وإلى التوحيد – هو فرعون موسى وقال إنه وجد فى تاريخ هذه الدعوة أنها كانت انقلاباً مفاجئًا فى حياته لم يسبقه إرهاصات تدل عليه ، وفى رأيه أن فرعون موسى نجا وبعد نجاته – وكان قد آمن فى اللحظة الأخيرة من حياته – بدأ يدعو إلى التوحيد ، واستدل على ذلك بما جاء فى سورة يونس : ﴿ حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِى آمَنَتْ به بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * ءَالآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ [يونس : ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢] فقال : القرآن يقول إن فرعون نجا .

وقد قابلت هذا المفكر وذكرت له ما قاله فى كتابه ، وقلت له إن هذا مخالف لما فى القرآن ، فالقرآن قال : ننجيك ببدنك ، وأراد الله سبحانه وتعالى أن تظهر جثته ويراها الناس بأعينهم حتى لا يقولوا إن الآلهة قد رفعته إلى السماء أو أنه ذهب إلى أبيه الإله أو نحو ذلك ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ .

أما إيمانه فقد رُفض : ﴿ ءَالآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ لأن الإيمان الذى يعتد به لابد أن يكون فى حالة الاختيار . أما الإيمان فى حالة الاضطرار فلا يقبل كما جاء فى سورة غافر : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا به مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ الَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴾ [غافر : ٨٤ ، ٨٥] وإيمان

---

(١) كتاب الظاهرة القرآنية لمؤلفه مالك بن نبى المفكر الجزائرى المعروف .

فرعون من هذا النوع المرفوض لأنه جاء حينما أدركه الغرق ، يقول الله عز وجل : ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ . . ﴾ [النساء : ١٨] فهذه ليست توبة ولا تصلح لكافر أن يؤمن أو لعاص أن يتوب ، ثم إن القرآن يقول عن فرعون : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴾ [الإسراء : ١٠٣] ويقول أيضًا : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الأنبياء : ٧٧ ، الزخرف : ٥٥] فهو فى الغرقى الهلكى ، وقد ذمّه القرآن وجعله من أهل النار ، قال تعالى عنه : ﴿ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُون ﴾ [القصص : ٣٩] وقال : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يُنصَرُونَ * وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴾ [القصص : ٤١ ، ٤٢] ففرعون يقينًا من أئمة أهل النار ، وأتبعه الله اللعنة فى الدنيا وفى الآخرة فكيف يقال أنه عاد ودعا إلى التوحيد ؟!! فهذا الخطأ لابد أنه جاء من أخذ آية دون النظر إلى الآيات الأخرى فى نفس الموضوع .

فمن المهم جدًا كما تقدم لمن يفسر القرآن أن يفسره بالقرآن ، وأن يحرص على ذلك ، ومن المهم فى تفسير القرآن بالقرآن أن يلاحظ السياق الذى وردت فيه الآية أو وردت فيه الجملة أو وردت فيه الفقرة ،ولا يعزل الكلام بعضه عن بعض ، فالكلمة الواحدة قد تكون لها معانى عدة فى القرآن ، والذى يحدد المعنى فى هذا هو السياق .

فمثلاً كلمة « الكتاب » فى القرآن الكريم أحيانًا ترد بمعنى القرآن كما فى قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة : ٢] وقوله : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾[النحل:٨٩] وقوله : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ [النساء : ١٠٥ ، الزمر : ٢] ، وأحيانًا ترد كلمة « الكتاب » بمعنى التوراة كما فى قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[الإسراء:٢] وقوله :﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴾[غافر:٥٣] وأحيانًا ترد كلمة « الكتاب » بمعنى التوراة والإنجيل معاً كما فى قوله تعالى فى مواضع كثيرة من القرآن :﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ [آل عمران :

٦٤، ٦٥، ٧٠، ٧١، ٩٨، ٩٩ وغيرها] وقوله: ﴿ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا ﴾ [الأنعام : ١٥٦] ويراد بكلمة الكتاب أحيانًا اللوح المحفوظ الذى كتب الله تعالى فيه مقادير الخلائق كما فى قوله: ﴿ كَانَ ذَلِكَ فِى الْكِتَابِ مَسْطُوراً ﴾ [الأحزاب:٦] وقوله : ﴿ وَلا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] ويراد بالكتاب أحيانًا الشىء الذى يكتب كما فى قوله: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ﴾ [البقرة : ٧٩]، ويراد به أحيانًا مصدر كتب أى الكتابة ، فأنت تقول كتب كتابة وكتابًا،وهووجه فى قوله تعالى عن المسيح عيسى ابن مريم : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾ [آل عمران:٤٨] .

وبعض المفسرين فسر الكتاب فى قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ [الجمعة : ٢] بأنه الكتابة أى يخرجهم من الأمية إلى الكتابة .

ويراد بالكتاب أيضاً الكتاب الذى تدوّن فيه أعمال الإنسان ، يقول تعالى : ﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُوراً * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [الإسراء : ١٣ ، ١٤] ، ويقول : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ [الكهف : ٤٩] .

فكيف عرفنا فى المواضع المتفرقة أن الكتاب هو القرآن ، وهو التوراة ، وهو التوراة والإنجيل معًا ، وهو اللوح المحفوظ ، وغير ذلك ؟ إنه السياق الذى يحدد المعنى ، فنقول إنه بمعنى المكاتبة فى قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ [النور : ٣٣] ،ولذلك لا ينبغى لأحد أن يأخذ آية وحدها ويترك السياق ، وهذا يحدث كثيرًا فى التفسير : أن تقطع الآية عن السياق .

فمثلاً كثير من المفسرين (١) قالوا فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّى ﴾ [يوسف : ٥٣] إنه من كلام يوسف عليه السلام ، وسياق الآيات يقول : ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ ، قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ، قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى كَيْدَ الْخَائِنِينَ * وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى ، إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّى ، إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣] وواضح من هذا السياق أن الكلام كله للمرأة ولا دخل ليوسف فيه ، ومع ذلك قال جمهور المفسرين إن الكلام ليوسف عليه السلام .

وقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية (٢) على ذلك فى رسالة له كما ذكر ذلك ابن كثير (٣) فى تفسيره ، والحق معه فى هذا فالكلام للمرأة ، وكأنهم استكثروا على المرأة أن تقول هذه الجملة القوية ، مع أن القرآن حكى جملاً فى غاية القوة والبلاغة والحكمة لعدد من النساء ، ومن ذلك ما قالته بلقيس فى تصوير الاستعمار : ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾ [النمل : ٣٤] ، قالت ذلك امرأة وهى تصور الملوك الفاتحين المستعمرين ، الذين إذا دخلوا بلداً أذلوا العباد ، وأفسدوا البلاد ، وكذلك يفعلون ،ومن ذلك ما قالته بنت الشيخ الكبير : ﴿ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ، إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِىُّ الأَمِينُ ﴾ [القصص : ٢٦] فوضعت أساس اختيار الرجال للمناصب والأعمال : القوة والأمانة .

فلا عجب أن تقول امرأة العزيز هذه الكلمة التى يؤيدها السياق ، فينبغى

---

(١) الطبرى وابن أبى حاتم ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وغيرهم .. انظر ابن كثير ص ٤٨١ الجزء الثانى .

(٢) انظر « دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية » جمع وتقديم وتحقيق دكتور محمد السيد الجليند ، الجزء الثالث ص ٤٣٣ طبعة دار الأنصار .

(٣) انظر تفسير القرآن لابن كثير الجزء الثانى ص ٤٨١ طبعة مكتبة دار التراث .

ألا نهمل السياق ، ونحن نفسر القرآن مع ما ذكرنا من قواعد وما سوف نذكر إن شاء الله .

لابد لنا إذن أن نقرأ القرآن على أنه كتاب الله إذا أردنا أن نفهمه أو نفسره ، ولابد أن نعي تماماً أنه الكتاب الذى ﴿ لا يَأْتيه الْبَاطلُ منْ بَيْن يَدَيْه وَلاَ منْ خَلْفه تَنزيلٌ مِّنْ حَكيمٍ حَميدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] الكتاب الذى أنزله الله ليصدق بعضه بعضاً فلا اختلاف فيه ولاتناقض : ﴿ وَلَوْ كَانَ منْ عند غَيْر الله لَوَجَدُوا فيه اخْتلافًا كَثيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] .

ولهذا قلنا إن أول ما يجب على المفسر أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما أجمل فى موضع فصّل فى موضع آخر ، وما أبهم فى مكان بيّن فى آخر ،وما أطلق فى سورة قيّد فى أخرى ، وما عُمم فى آية خصّص فى آية أخرى .. وهكذا فلابد أن يفهم القرآن كله ، لا يؤخذ بعضه ويترك بعضه ، كما فعل بنو إسرائيل الذين قرعهم الله تعالى بقوله ﴿ أَفَتُؤْمنُونَ ببَعْض الْكتَاب وَتَكْفُرُونَ ببَعْضٍ ﴾ [البقرة : ٨٥] وقد نبه الله تعالى رسول الله ﷺ إلى مثل هذا فقال : ﴿ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتنُوكَ عَنْ بَعْض مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة : ٤٩] .

ومع تفسير القرآن بالقرآن ، وتتبع الألفاظ وتتبع المعانى ، لابد أن نؤيد ذلك بالسنة ، نلجأ إليها إذا لم يكن الأمر واضحا فى القرآن فهى مبينة القرآن وشارحته ، وهى التفسير النظرى والتطبيق العملى لكتاب الله عز وجل ، وقد قال الله تعالى لرسوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لتُبَيِّنَ للنَّاس مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٤٤] وليس هناك من هو أعلم بمراد الله ممن أنزل الله تعالى القرآن عليه ، فهو ﷺ أعلم الناس بمراد الله . كان النبى ﷺ قرآنا حيًا ، يفسر القرآن بقوله وعمله وسلوكه كما قالت عائشة حينما سئلت عن خلقه ﷺ فقالت : « كان خلقه القرآن » (١) .

فلا يستغنى أحد عن الرجوع للسنة لبيان القرآن الكريم ، ومهم جداً فى

---

(١) رواه الإمام أحمد ومسلم فى المسافرين ١٣٩ وأبو داود والنسائي وغيرهم ، وانظر ابن كثير عند تفسير قوله تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظيمٍ ﴾ فى سورة القلم .

الرجوع إلى السنة التأكد من صحة ما جاء عن النبى ﷺ فليس كل ما ورد فى السنة من التفسير صحيحاً .

ونحن نجد فى كتب الحديث كتاب التفسير كما فى البخارى كتاب تفسير القرآن ، وكما فى مسلم وكتب السنن لأبى داود والترمذى والنسائى وابن ماجه يذكر فيه ما ورد عن النبى ﷺ وعن بعض الصحابة ، ولكنه ليس كثيرا وخصوصاً ما صح منه ، فإنه قليل ، وقد جمعه كله الحافظ السيوطى فى كتابه الشهير « الإتقان فى علوم القرآن » .

ومن هنا ينبغى أن نحذر من الأحاديث الضعيفة والموضوعة والواهية مما يذكر أحيانا فى كتب التفسير بالمأثور ، وفى كتب الرقائق ، وكتب الترغيب والترهيب (١) ، من مثل ما يروى فى تفسير كلمة « ويل للمطففين » أو « فويل للمصلين » إنها واد فى جهنم قعره سبعون خريفاً (٢) ، وويل كلمة معناها هلاك وعذاب كانت موجودة فى الجاهلية وموجودة فى الإسلام ،ومثل كلمة « طوبى » التى يروى عنها « طوبى شجرة فى الجنة طولها كذا أو عرضها كذا » (٣) وطوبى مقابل كلمة ويل ، وأشياء غريبة من هذا النـوع كمـا روى فى قـوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم : ٥٩] ، الغي واد فى جهنم صفته كذا (٤) ، وفى قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٨] آثام واد فى جهنم فيه كذا وكذا (٥) ، ومعروف أن الغى ضد الرشد ، وأن الآثام من الإثـــم

---

(١) لفضيلة الدكتور يوسف القرضاوى كتاب « المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للمنذرى » وهو من منشورات مركز بحوث السنة والسيرة الذى يرأسه فضيلته فى الوقت الحاضر بدولة قطر ، قام فيه بانتقاء الصحيح والحسن من أحاديث الترغيب والترهيب للمنذرى واختصر الكتاب بحذف الضعيف والمكرر منه والتعليق عليه بما لابد منه فى أضيق نطاق وفهرسته ، وهو عمل وجهد علمى مشكور .

(٢) رواه أحمد والترمذى وهو من حديث دراج أبى السمح عن أبى الهيثم عن أبى سعيد رضى الله عنه مرفوعاً .

(٣ ، ٤ ، ٥) انظر فى هذه الأحاديث كتاب الترغيب والترهيب للمنذرى الجزء الرابع كتاب صفة الجنة والنار ص ٤٦٥ وما بعدها ، وانظر المنتقي للقرضاوى الجزء الأول ص ٦٧ من المقدمة .

الذى هو ضد البر ، فالمبدأ إذن الرجوع إلى السنة وإلى ما صح منها على وجه الخصوص مثل ما ورد فى الأحكام « أن الرسول ﷺ بعث معاذ بن جبل إلى اليمن وقال له بم تقضى يا معاذ ؟ فقال : أقضى بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : فبسنة رسول الله ﷺ قال : فإن لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيى لا آلو » أى لا أقصر ولا أدخر وسعًا ، فضرب النبى ﷺ على صدره وقال : « الحمد لله الذى وَفَّقَ رسول رسول الله لما يرضى رسول الله ﷺ » .

وهذا الحديث جيد كما قال الإمام ابن تيمية وابن كثير وابن القيم والذهبى وعدد من الحفاظ ، ودافع عنه ابن القيم دفاعًا مجيدًا فى كتابه إعلام الموقعين ، وإن كان ابن حزم رده وتبعه فى عصرنا الشيخ الألبانى ،ولكن الحديث قوّاه وجوّده ورضيه عدد من الأئمة فى العصور الماضية وفى عصرنا (١) .

فإذا كان هذا موقف القاضى والفقيه ، أن يقدم القرآن فإن لم يجد فالسنة فإن لم يجد يجتهد وسعه ، فأولى أن يكون هذا هو موقف من يتعرض لتفسير القرآن . . فإن لم نجد فى السنة ما يبيّن القرآن فهناك الصحابة رضوان الله عليهم ، فإذا ورد عنهم شىء فلابد أن نستقبله بصدر رحب ، لأن للصحابة رضوان الله عليهم فضلاً على غيرهم فى عدة أمور :

أولاً : هم الذين شاهدوا التنزيل ، شاهدوا أسباب النزول وعرفوا متى نزلت هذه السورة ، وهذه الآيات ، وأين نزلت وفيم نزلت ؟ فهم أدرى بذلك من غيرهم ، ولذلك قال العلماء إن من المهم للمفسر أن يعرف أسباب النزول ؛ لأنها تلقى ضوءاً على المعنى ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية : إن معرفة السبب تورث المعرفة بالمسبب .

إن من لا يعرف سبب النزول يمكن أن يقع فى خطأ ، وقد حدث هذا من بعض الصحابة ، ففى معركة من معارك المسلمين مع أعدائهم جاء أحد الشجعان

(١) ذكره الألبانى فى سلسلة الأحاديث الضعيفة برقم ٨٨١ وقال منكر وبسط فيه القول وممن خرجوه أبو داود الطيالسى وأحمد والبيهقى والترمذى ، وقال الألبانى إن الحديث يوهم الفصل بين القرآن والسنة .

من المسلمين وألقى بنفسه فى وسط جيش الكفار ، فقال بعض الناس لقد ألقى بنفسه إلى التهلكة والله تعالى يقول : ﴿ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥] ، فوقف أبو أيوب الأنصارى يرد على هذا القائل قوله (١) ، يقول ليست الآية كما فهمت ، إنها نزلت فينا معشر الأنصار ، فبعد أن غزونا وجاهدنا قلنا : تركنا أموالنا وزروعنا ونخيلنا ، فلنجلس إلى أموالنا ولنجلس إلى نخيلنا ، ولندع الجهاد فيكفينا ما جاهدنا ، فنزلت الآية تنهاهم عن ذلك وتريهم أن القعود عن الجهاد – فى وقت لازال عود الإسلام فيه طريًّا ولا زالت الجبهات المختلفة تقف بالمرصاد لهذا الدين ، الجبهة الوثنية ، والجبهة اليهودية ، والجبهة النصرانية والبيزنطية ،والجبهة المجوسية المتربصة ، وجبهة المنافقين فى الداخل – تهلكة ، فكيف يفعل الأنصار هذا ؟ ولذلك نزلت الآية ﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

بيَّن أبو أيوب أن التهلكة هنا هى ترك الجهاد ، وليست المبارزة أو المغامرة فى لقاء الكفار ، فسبب النزول ألقى ضوءاً على معنى الآية ، لهذا حذر المحققون من ترك أسباب النزول وإهمالها .

ومع ما تقدم ينبغى أن نعرف أن ما صح من أسباب النزول قليل ، والعلماء ألفوا فى أسباب النزول مثل الإمام الواحدى ، والحافظ السيوطى وكتابه « لباب النقول فى أسباب النزول » ، ولكن كثيراً مما جاء فى أسباب النزول ليس صحيحاً .

ثم هل ما ورد فى أسباب النزول يعتبر مرفوعًا ؟ هل هو رواية أو هو تفسير ؟ اختلف العلماء هنا ، فإذا قال الصحابى : إن الآية نزلت فى كذا ، هل هذا تأويل وتفسير من الصحابى ؟ أو هو رواية ؟ .

---

(١) الموقعة كانت بين المسلمين والروم والقصة كاملة ذكرها الإمام الواحدى فى كتابه أسباب النزول ص ٣٨ ، ٣٩ طبعة عالم الكتب .

والواقع أن من تتبعها وجد أن بعضها من قبيل الرواية وبعضها من باب التفسير والتأويل ، بمعنى أنه فهم للصحابى فى هذا الأمر ، وقد لا يسلم له غيره بهذا الفهم ، ولذلك يختلفون فى أسباب النزول .

المهم أن من فضائل الصحابة على غيرهم أنهم عرفوا أسباب النزول ، ولذلك كان ابن مسعود يقول : والله ما نزلت آية فى كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت وفيم نزلت ، وكان بعض التابعين يتقى التفسير ويتجنبه ، ويقول : « اتقوا تفسير القرآن فإنما هو الرواية عن الله عز وجل ، ذهب الذين يعلمون فيم أنزل القرآن » أى الصحابة رضوان الله عليهم (١) .

وقد سئل ابن عمر رضى الله عنهما عـــن الحرورية (أى الخــوارج) فقال : « كان يراهم شرار خلق الله ، إنهم جاءوا إلى آيات نزلت فى المشركين فجعلوها فى المسلمين » .

فمن المهم إذن أن نعرف فيم أنزلت الآيات، لأن من لا يعرف أسباب النزول يمكن أن يضل فى الفهم،كما فى قوله تعالى:﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ من شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْه أن يَطَّوَّفَ بهمَا ﴾ [البقرة : ١٥٨] حيث تعكس كلمة لا جناح عليه الأمر المباح كما يقول الله تعالى: ﴿ وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فيمَا عَرَّضْتُم بـه منْ خطْبَة النِّسَاء أَوْ أَكْنَنْتُمْ فى أَنفُسكُم ﴾ [البقرة:٢٣٥] ولكن السعى من واجبات الحج أو من أركانه فى بعض المــذاهب فكيف يقال : ﴿ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْه أَن يَطَّوَّفَ بهمَا ﴾ ؟ فمن عرف سـبب النزول (أن الأنصار كانوا يتحرجون من الطواف بهما لأنه كانت توجد أصنام عند

---

(١) كلام ابن مسعود رواه الشيخان البخارى فى كتاب فضائل القرآن باب القراء من أصحاب النبى ﷺ ومسلم فى كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل عبد الله بن مسعود وأمه رضى الله عنهما وانظر اللؤلؤ والمرجان الحديث رقم ١٥٩٩ ، وكلام بعض التابعين روى عن محمد ابن سيرين عن عبيدة السلمانى وروى عن الشعبى عن مسروق ، وقد أورد ابن جرير هذه الروايات فى تفسيره ج ١ ص ٢٨ ، ٢٩ ، وانظر ابن تيمية دقائق التفسير ج ١ ص ٨٦ من مقدمات فهم القرآن .

الصفا والمروة فى أيام الجاهلية ، فالقــرآن قال : ﴿ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنَ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ﴾ اتضح عنده المعنى .

ومن هنا كان الرجوع إلى الصحابة مهمًا ، لأن الصحابة هم الذين عايشوا رسول الله ﷺ وتتلمذوا عليه ، وشاهدوا أسباب تنزيل القرآن ، وعرفوا قرائن الأحوال . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى كان الصحــابة – رضوان الله عليهم – أهل اللغة حقًّا ، فهم عرب خلص لم تخالطهم العجمة ولا اللكنة وعربيتهم صافية ، لذلك كانوا أعرف بالقرآن من غيرهم ، لأن غيرهم اختلطوا بالأعاجم ، والقرآن نزل بلسان عربى مبين ، فيعرفه من عرف لغة العرب ، وتمكن منها وتذوقها ، والصحابة تمكــنوا من اللغة وعرفوها وتذوقوها بالسليقة وبالفطرة ، كما قال ذلك الأعرابى :

ولست بنحوى يلوك لسانه ولكن سليقى أقول فأعرب

ومن مزايا الصحابة أيضًا أنهم كانوا أسلم الناس فطرة ، وأبعدهم عن التكلف والتقعر ، وأقربــهم إلى الله تعالى ، وأعرفـهم بالإسلام وبروحه وبمقاصده .

فهذا النور الإلّهى الذى استكن فى قلوبهم ، ميزهم على غيرهم ، فهم أفهم الناس للإسلام ، ولا عجب أن يكونوا أفهم الناس للقرآن ، من أجل ذلك كان الصحابة مقدمين على غيرهم ، وهذا إذا لم يختلفوا ، فاتفاقهم حجة ، وإذا جاء القول عن بعضهم ولم يعرف له مخالف كان حجة أيضًا .

أما إذا اختلف الصحابة بعضهم مع بعض فى تفسير القرآن ، أمكن لنا أن نرجح قول بعضهم على بعض بمرجحات مختلفة ، كما قال بعض العلماء « ابن عباس يقدم على غيره » لأن الصحابة أنفسهم كانوا يعتبرونه ترجمان القرآن ، والنبى ﷺ قال : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » [1] ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يستشيره فى أشياء من القرآن فكان يـبدى من الآراء ما يعجز عنه كبار الصحابة ، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء ، وقد فسَّر ابن عباس

---

(١) تقدم تخريجه .

قول الله تعالى : ﴿ يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة : ٢٦٩] فقال : فهم القرآن ومعرفة القرآن .

فالصحابة يتفاوتون ولكن الخلفاء الأربعة وابن عباس وابن مسعود لهم باع طويل فى القرآن ، ولكن ليس معنى هذا أن ما قاله ابن عباس يكون صوابًا دائمًا ، وليس معنى دعاء الرسول ﷺ له أن يكون معصومًا فى تفسيره ، ولكن معناه أن يلهم الصواب أكثر من غيره .

من أجل هذا نستطيع أن نرجح ما جاء عن الصحابة من أقوال بمرجحات شتى ، منها أن تكون الرواية عن الصحابى صحيحة وليست موضوعة عليه أو ضعيفة أو منكرة ، فكثير مما نسب إلى الصحابة غير صحيح ، وابن عباس نفسه رويت عنه أقوال صحيحة وروايات غير صحيحة فى تفسير القرآن الكريم ، وبعضهم نسب إليه تفسيرًا جمع فيه ما روى عنه فى التفسير وأسماه « تنوير المقباس فى تفسير ابن عباس » ولكن ابن عباس لم يؤلف ، ومثل تفسير مجاهد ولكن مجاهدًا أيضًا لم يؤلف ، فلنحذر من الروايات الضعيفة عن الصحابة .

وقد روى عن ابن عباس روايات شتى بعضها أصح من بعض ، وبعضها ضعيف ، وبعضها كان العلماء يسمونه سلسلة الكذب وهى السُدى الصغير عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس ، فيجب الحذر منها .

فإذا لم نجد عند الصحابة نرجع إلى التابعين تلاميذ الصحابة ، فالتابعى هو الذى تتلمذ على الصحابة وأخذ عنهم ، ولا شك أن للصحابة تلاميذ وخصوصًا علماء التفسير منهم ، كابن عباس رضى الله عنهما وكان من تلاميذه مجاهد بن جبر ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وسعيد بن جبير .

وهناك مدارس فى تفسير القرآن كالمدرسة المكية والمدرسة المدنية والمدرسة الكوفية واشتهر من التابعين أناس فى تفسير القرآن منهم الحسن البصرى وغيره ، وهؤلاء ولا شك لهم مزية على غيرهم ، فإذا أجمعوا فى التفسير كان إجماعهم حجة ، كما أن إجماعهم حجة فى الفقه والأحكام ، ولكن إذا اختلفوا كان لنا

أن نأخذ بقول من شئنا منهم بأساليب الترجيح المختلفة ، لأن التابعين أخذوا عن الصحابة وهم أهل اللغة فهم أعلم بالتفسير ممن جاء بعدهم ، يقول الإمام ابن تيمية إن اختلافهم فى التفسير قليل [1] وإن كان الذى يقرأ التفاسير لأول وهلة يظن أن الخلاف بينهم شديد وكثير ، ولكن الواقع أن أكثر ما يظنه الناس خلافًا ليس خلافًا ، بل هو تنوع يسميه ابن تيمية اختــلاف تنوع وليس اختلاف تضاد .

فمثلاً حينما يفسرون ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة : ٦] منهم من يقول هو الإسلام ومنهم من يقول هو القرآن ، ومنهم من يقول هو السنة ، ومنهم من يقول هو سنة الراشدين ، ومنهم من يقول هو سنة أبى بكر وعمر ، ومنهم من يقول هو طريق العبودية لله . أو طاعة الله ورسوله [2] ، فهل هذه الأقوال متضادة ؟ ليست متضادة ولكنها متنوعة ووجه ذلك أن المفسر أحيانًا يركز على معنى معين ليزكى هذا المعنى فى نفوس تلاميذه فإذا وجد أحدهم غير مهتم بالسنة ذكره بأن الصراط المستقيم هو اتباع السنة أو وجد عنده شيئًا للخلفاء الراشدين ذكره بأن الصراط المستقيم هو اتباع سنن الراشدين ، أو وجد عنده شيئًا تجاه أبى بكر وعمر ذكره باتباع شيخى الإسلام وإمامى الهدى أبى بكر وعمر . . وهكذا، لأن المفسر أيضًا مربٍ يحاول التركيز على معان يجد الناس غافلين عنها .

---

(١) قال ابن تيمية رحمه الله : « كان النزاع بين الصحابة فى تفسير القرآن قليلاً جدًا ، وهو وإن كان فى التابعين أكثر منه فى الصحابة فهو قليل بالنسبة إلى من بعدهم » كتاب دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية الجزء الأول ص ٤٤ من مقدمات ابن تيمية ط دار الأنصار تحقيق د . محمد السيد الجليند ، ومن المصدر نفسه ص ٤٥ قال ابن تيمية « الخلاف بين السلف فى التفسير قليل ، وخلافهم فى الأحكام أكثر من خلافهم فى التفسير ، وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد » .

(٢) ذكر ابن كثير هذه الروايات بطرقها عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما عند تفسير قوله تعالى « اهدنا الصراط المستقيم » من سورة الفاتحة فلينظر ص ٢٧ ، ٢٨ الجزء الأول ط مكتبة دار التراث القاهرة .

ولذلك ينبغى لنا ألا نظن بين تفاسير السلف اختلافًا حين نقرأها ، وقد يوجد هذا الاختلاف ولكنه قليل ، ولتحذر أيضًا الضعيف من الروايات فليس كل ما ورد عن التابعين صحيحًا . .

فإذا لم نجد عند الصحابة والتابعين ما يفسر القرآن ، نفسره بمقتضى اللغة والسياق فالقرآن كتاب عربى ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف : ٢] ، ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ [الزمر : ٢٨] ، ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٥] ، فهو يفهم فى ضوء لغة العرب ، وليس كل ما ورد فى التفسير مأثوراً ، وليس كل المأثور مأثوراً ، بمعنى أن بعض ما يسمى بالتفسير بالمأثور هو من باب الرأى والدراية ، وأن بعض ما ورد عن الصحابة والتابعين هو من باب الرأى ولو كان من باب الرواية لما اختلفوا ، ولكنهم اختلفوا فدل هذا على أنهم فسروا برأيهم وفهمهم وتدبرهم ، كما قال تعالى : ﴿ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ [سورة ص : ٢٩] ، وكما قال : ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [النساء : ٨٢ ، محمد : ٢٤] .

وهنا قد يسأل سائل : فما معنى الحديث إذن الذى يتوعد من يفسر القرآن برأيه ؟ والذى رواه الترمذى وغيره [١] « **من فسَّر القرآن برأيه أو بما لا يعلم فليتبوأ مقعده من النار** » .

نقول : الرأى منه ما هو محمود ومنه ما هو مذموم – وهذا أيضًا فى الفقه والاستنباط – فالرأى الذى لا يعتمد على أصل ولا يتبع فيه صاحبه القواعد وإنما يتبع هوى نفسه دون أن يلتزم بمنهج هو الرأى المذموم ، وقد ذكر الإمام الغزالى معنيين للرأى المذموم فى كتابه إحياء علوم الدين [٢] :

المعنى الأول : أن يكون لمن يريد أن يفسر القرآن هوى لشىء معين وميل

---

(١) أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس وحسنه وهو عند أبى داود من رواية ابن العبد وعند النسائى فى الكبرى .

(٢) انظر إحياء علوم الدين للغزالى الجزء الأول ص ٢٩٠ ، ٢٩١ ط دار مصر للطباعة – سعيد جودة السحار .

لفكرة معينة فهو يريد أن يفسر القرآن ليخدم فكرته ويؤيد رأيه ، وهذا يريد أن يكون القرآن تابعًا له فيأخذ بتلابيب النص القرآنى ليؤيد المذهب الذى يعتنقه أو الرأى الذى يتبناه ، وهذا للأسف وجد كثيراً فى الفرق الكلامية وفى المذاهب الفقهية ، وفي الطرق والجماعات الصوفية ، وغير ذلك ، فالمعتزلى يريد أن يجعل القرآن معتزليًا ، والخارجى يريد أن يجعل القرآن خارجيًا ، والشيعى يريد أن يجعل القرآن شيعيًّا ، والحنفى والشافعى ٠٠ ، وهكذا ٠

والقرآن لا ينبغى أن يخضع لرأى أحد أو لمذهب أحد أو لمعتقد أحد ، وإنما المعتقدات والآراء والمذاهب والأفكار والمفاهيم هى التى ينبغى أن تخضع كلها للقرآن ٠

والمعنى الثانى : أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير ٠

وقد جاء فى الحديث الآخر الذى رواه أصحاب السنن « **من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ** » أخطأ لماذا لأنه لم يتبع المنهج السليم فصوابه جاء اعتباطًا ، كالقاضى الذى يقضى على جهل هو فى النار، « **القضاة ثلاثة : قاض عرف الحق وقضى به فهو فى الجنة ، وقاض عرف الحق وقضى بغيره فهو فى النار ، وقاض قضى على جهل فهو فى النار** » [1] حتى وإن أصاب الحق لأن إصابته الحق جاءت على غير منهج ٠

ومن ذلك أن يقول أحدهم فى قوله تعالى مثلاً : ﴿ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴾ [الإسراء : ٥٩] أن الناقة مبصرة باعتبار مبصرة حال من الناقة ، وهو على غير هذا فالمعنى آية مبصرة واضحة للعيان ٠

ومن ذلك أيضًا أن يفسر آية دون أن يربطها بغيرها من الآيات ، فإذا قرأنا

---

(١) أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة وهو صحيح كما ذكر الإمام العراقى في الإحياء ٠

قوله تعالى : ﴿ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّه سَبِيلاً ﴾ [المزمل : ١٩] أو قوله تعالى : ﴿ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّه سَبِيلاً ﴾ [الإنسان : ٢٩] لابد أن نقرأه فى ضوء قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الإنسان : ٣٠] أى أن الإنسان إنما يشاء بمشيئة الله ويريد بإرادة الله ، فليحذر من يريد أن يفسر القرآن أن يقع فى مثل هذا . . وهناك أشياء مهمة لمن يريد تفسير القرآن :

أولاً : يجب أن يخلص الإنسان النية لله تبارك وتعالى وأن يتوجه إلى الله ويتضرع إليه أن يلهمه الله تبارك وتعالى الصواب ، ورد عن شيخ الإسلام ابن تيمية أنه كان يقرأ فى الآية مائة تفسير أو مائة وعشرين تفسيراً ، ولا يهتدى إلى الصواب ويقول :اللهم يا معلم إبراهيم علمنى حتى يلهمه الله تعالى الصواب :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ [الانفال : ٢٩] أى نوراً تفرقون به بين الحق والباطل وبين الصواب والخطأ وبين الهدى والضلال .

أما الذى يقرأ القرآن ونيته مدخولة أو منحرف العقيدة أو معوج السلوك فسوف ينعكس هذا على تفسيره للقرآن والعياذ بالله .

ثانياً : أن يتجرد من كل الأفكار والاعتقادات السابقة ، وأن يكون موقفه موقف المتلقى المستقبل الذى لا يفرض نفسه على القرآن ، ربما صعب على الإنسان أن يتخلص من ذاتيته لأنها جزء من كيانه ولكن عليه أن يحاول .

وبعض الناس يقرأ القرآن وعنده أشياء أخذها من التوراة يريد أن يفرضها على القرآن كالذى قرأ أن حواء هى التى أغرت آدم بالأكل من الشجرة وهذا لا يوجد فى القرآن ولا أثر له فيه ، بل الذى فى القرآن أن آدم هو المسؤول الأول ومن تتبع القرآن عرف ذلك ، فالخطاب لآدم قال تعالى : ﴿ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾[طه:١١٧] وقال:﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى ﴾[طه:١١٨] وقال : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾[طه : ١١٥] وقال : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ [طه : ١٢١ ، ١٢٢] وهكذا لكن بعض الناس يهوى النظر فى التوراة والأخذ عنها .

وبعض الناس يقول إن حواء خلقت من ضلع آدم وذلك حينما يقرأ قول الله

فى أول سورة النساء : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾ [النساء : ١] وفى آية سورة الأعراف : ﴿ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٩] ويقولون منها أى من ضلع آدم وهذا المعنى لا يخطر لمن قرأ القرآن وحده متجردا ، لأن خلق منها وجعل منها تعنى من جنسها مثل قوله تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِه أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِّنْ أنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ [الروم : ٢١] وهو خطاب لكل الرجال ومثل قوله : ﴿ اللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل : ٧٢] فهل يعنى هذا أن الزوجات خلقن من ضلوع الرجال ؟! لا يعنى هذا ، ولكن يعنى من جنس الرجال يألفهم ويألفونهن ﴿ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران : ١٩٥ ، النساء : ٢٥] وحديث رسول الله ﷺ « فإن المرأة خلقت من ضلع » (١) لا يعنى هذا بل يعنى أن النساء لهن طبيعة تحمل الانفعال والعاطفة أكثر من الرجال ، وهذه الطبيعة تعين النساء على الحمل والوضع والإرضاع وما يصحب ذلك من متاعب ٠٠

وهذا أيضًا نتج عن قراءة التوراة ، ومثل ذلك قصة داود كما ترويها سورة ص : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِه وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُم ﴾ [سورة ص : ٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤] ، والاسرائيليات تحكى القصة على أن الخصمين ملكان دخلا على داود وأرادا أن يختبراه ، وأنه أخذ امرأة جاره ٠٠ وغير ذلك مما روته التوراة أو شاع فى الاسرائيليات وهى قصة لا يفعلها أراذل الناس فضلاً عن الصالحين والأنبياء والمرسلين ٠

والقرآن يقول : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ

---

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وأول الحديث « استوصوا بالنساء خيرًا » ٠

﴿ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾[سورة ص :١٧ ، ١٨ ، ١٩] ، والنبى ﷺ يقول : « **أحب الصيام إلى الله تعالى صيام داود كان يصوم يوماً ويفطر يوماً** »(١) ويقول أيضًا : « **ما أكل أحد طعامًا قط خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبـــى الله داود عليه السـلام كان يأكل من عمل يده** »(٢) ، هذا النبى العظيم قالوا عنه فى التوراة أشـياء لا تليق ، ونقل هذا للأسف إلى التفاسير ، والصحيح أن يقال إن داود حكم بمجرد أن سمع أحد الخصمين وقال : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ ﴾[سورة ص : ٢٤] قبل أن يسمع للطرف الآخر متأثراً فى ذلك بالعاطفة والناس تقول : « إذا جاءك أحد الخصمين وإحدى عينيـه مخلوعة فلا تقض له ، وانتظر حتى يأتيك الخصم الآخر ، فلعلك ستجد عينيه الاثنتين مخلوعتين » ، وهذا التسرع فى الحكم جعل داود يستغفر ربه وينيب .

والمهم لمن يريد تفسير القرآن ألا يدخل على القرآن وفى دماغه أفكار ورثها من كتب سابقة وأفكار أخذها من الفلسفات القديمة وأشياء أخذها من أفواه الناس وأشياء أخذها من التقاليد وأشياء أتت من هنا وهناك ويريد بهذا الركام كله أن يفرض نفسه على القرآن .

ثالثًا : ينبغى لمن يريد أن يقرأ القرآن ويفهم القرآن أن يقرأ القرآن على أنه كتاب الزمن كله ، وكتاب الحياة كلها ، وكتاب الإنسان كله ، وكتاب الناس كلهم ،وكتاب الحقيقة كلها ، فالقرآن كتاب الزمن كله ، ليس لزمن دون زمن ، ولا لجيل دون جيل ، ولا لعصر دون عصر إنما هو كتاب الخلود . الكتاب الذى تكفل الله بحفظه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . ولذا لا ينبغى أن يقال عند معانيه : إن هذا كان فى عصر الصحابة ، وأصبح الزمن الآن غير الزمن والعصر غير العصر ،وهذا أيضًا ما يجعلنا نتوقف فى مسألة النسخ لأن الأصل بقاء النص الإلهى ، فلا يجوز أن نلجأ إلى النسخ – أن هذه الآية أو هذا الجزء من الآية أو الجملة أو الفقرة قد نسخت أى فقدت حكمها – إلا بيقين .

---

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وانظر اللؤلؤ والمرجان أحاديث رقم ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧١٨ ، ٧١٩ ، ٧٢٠ ، ٧٢١ .

(٢) رواه البخارى عن المقداد بن معديكرب رضى الله عنه عن النبى ﷺ .

وبعض الناس جاء فى عصرنا وقال : القرآن قال :﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [النساء : ٣٤] وهذه القوامية كانت فى الزمن الماضى حينما لم يكن للمرأة استقلال اقتصادى ٠ أما الآن وقد أصبحت المرأة تعمل موظفة ومعلمة وطبيبة إلى آخره ، فلا ينبغى أن يكون الرجل قواما عليها ،ويقولون أيضًا إن ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ ﴾ [النساء : ١١ . ١٧٦] هذا كان فى الزمن الماضى والآن تغير الوضع ٠٠

وكلامهم هذا يعنى أن القرآن كتاب موقوت بزمن معين يحق للناس أن ينسخوه بعد هذا الزمن ٠ وهذا هو الباطل الذى ينبغى أن يرفض كل الرفض ، ويقاوم بشدة لأن كتاب الله هو الكتاب الباقى للزمن كله (١) ٠

إنه عام من حيث الزمان ومن حيث المكان ، فلم ينزل للبيئة العربية ولا البيئة الشرقية خاصة ، إنما نزل لكل البيئات ولكل العالم شرقيه وغربيه ، عجميه وعربيه ، ولكل الأجناس ولكل الألوان ولكل الطبقات ، فهو كتاب العالم كله قال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] ٠

ومن أجل هذا لم يعرض القرآن لتفاصيل تتعلق بالبيئات ، ولم يعرض لأشياء معينة تقيد الناس ،ومن ذلك أمره بالشورى كمبدأ وقاعدة ، أما كيفية الشورى ومن الذين يستشارون ، وفيم يستشارون ، وما الكيفية التى نختار بها أهل الشورى ٠ فلم يعرض القرآن لذلك ، حتى لا يكون بيئيًا وموقوتًا ، إنما تركت للمسلمين ليجتهدوا بحسب المصالح التى تتحقق لهم فى مختلف العصور ، ومختلف البيئات ، ومختلف الأحوال والظروف ٠

والقرآن ليس كتابًا فى اللاهوت ولكنه كتاب للحياة ، حتى إننا نجد أطول

---

(١) جرى هذا الكلام على ألسنة بعض الكتاب والصحفيين من أمثال أحمد بهاء الدين ونوال السعداوى التى تمادت فى دعاواها الباطلة إلى ان نادت ولازالت تنادى بالمساواة الكاملة بين الرجل والمرأة حتى فى تعدد الزوجات ٠

آية فيه نزلت فى تنظيم شأن من شئون الحياة ، وهو كتابة الديون ، وهذه الآية هى آية المداينة] [البقرة : ٢٨٢] ومن قرأ سورة مثل سورة البقرة وجد فيها العبادات والمعاملات ، والعقائد ، والأخلاق ، والآداب والقصص ، ما يتعلق بالعلم وما يتعلق بالعمل ، وما يتعلق بالعقيدة وما يتعلق بالسلوك ، وما يتعلق بالاقتصاد وما يتعلق بالزكاة والصدقة وما يتعلق بالربا ، وغير ذلك ،ولذا ورد عن ابن عباس أنه قال : لو ضاع منى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله ! وهو معنى قوله تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩] .

والقرآن كتاب الإنسان كله ، الإنسان العقل ، والإنسان القلب ، الإنسان الجسم ، والإنسان الروح ، والإنسان الفكر والعاطفة والإرادة ، الإنسان فردا ، والإنسان فى أسرة ، والإنسان فى مجتمع .. والإنسان طفلاً ، والإنسان شاباً ، والإنسان شيخاً .. فهو يصحب الإنسان فى رحلته منذ المرحلة الجنينية : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٣ ، ١٤] ثم يصحبه منذ الطفولة : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] إلى أن يصير كهلاً فشيخاً : ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ﴾ [غافر : ٦٧] ، قال تعالى : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ [الإسراء : ٢٣] ويصحبه إلى أن يموت ﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٥ ، ١٦] ، ﴿ ثم أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ [عبس : ٢١ ، ٢٢] .

رابعا : على من يريد تفسير القرآن أن يتمكن مما لابد منه من أدوات التفسير وآليات الفهم ، وأول هذه الأدوات والوسائل (اللغة) وما يتعلق بها ، فالقرآن كتاب عربى كما جاء فى القرآن : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[يوسف : ٢]، ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف : ٣] ، ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾ [الزمر : ٢٨] ، ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾[الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥] .

ولابد لمن يريد أن يفهم القرآن الكريم ويفهمه لغيره : أن يتضلع فى هذا

اللسان العربى ، ويتمكن منه ، ويصبح ذا ملكة فى هذا اللسان تشبه ملكة العربى الأصيل المتمكن الذوَّاقة ، ولذا فلابد له أولاً من (علم اللغة) ومفرداتها ودلالاتها ، وفى هذا يرجع إلى المعاجم ويستفيد منها ، ولكن المعاجم أحيانا قد لا تكفى ولا تشفى ، لأنها تذكر فى بعض الأحيان اللفظ معرفًا بضده ،كأن تعرف الحياة بأنها مقابل الموت، وتعرف الموت بأنه مقابل الحياة ، وقد تذكر المعاجم ما يختلف فيه أهل الاختصاص فتحير القارىء ولا تهديه ، وهذا يتطلب أن يكون للإنسان حس لغوى ومعرفة يستطيع بها أن يرجح بين الاحتمالات المختلفة إذا اختلف أهل اللغة .

فمعرفة المعانى والمفردات مطلوبة جدًّا لأن لها – من اسم وفعل وحرف – دلالات مختلفة حقيقية أو مجازية ، واللفظ قد يتطور من عصر إلى عصر ،ونحن ملزمون بأن نفهم اللفظ فى عصر نزول القرآن ، وقد ذكر الإمام الغزالى أن بعض الألفاظ تتبدل مفاهيمها كأسماء بعض الأشياء (١) فكلمة (الحكمة) فى القرآن تختلف عنها فى الاصطلاح ، وكلمة (التوحيد) غير كلمة التوحيد عندما اصطلح عليه المتكلمون على معنى معين ، فلا ينبغى أن نسقط المصطلحات الحادثة أو المعانى الطارئة على ألفاظ القرآن ، ونحن نفسره ، ولابد أن نحذر من هذا ، فلفظ التأويل له معنى فى اللغة – مثلا – وأصبح له معنى عند المتكلمين وعند الأصوليين .

وفى عصرنا أصبح لبعض الكلمات معان تعارف عليها الناس لا ينبغى أن نسقطها على الألفاظ القرآنية ، فعلى سبيل المثال ، لا ينبغى أن نقول إنَّ (عادا) كانت عندهم (مصانع) مثل مصانعنا العصرية ، لأن القرآن قال على لسان هود : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ *وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾[الشعراء : ١٢٨ ، ١٢٩] .

فكلمة مصانع هذه تعنى أماكن اللهو أو القصور المشيدة أو الحصون .

وكذا كلمة سياحة لها معنى معين فى عصرنا لا ينبغى أن نسقطه على

(١) انظر إحياء علوم الدين للغزالى الجزء الاول بيان ما بدل من ألفاظ العلوم ص ٣١ وما بعدها .

لفظ القرآن فى مثل قوله تعالى : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ ﴾ [التوبة : ١١٢] فالسياحة فى لفظ القرآن هذا تعنى الصيام أو الهجرة وغيرها .

وهناك ممن كتب فى التاريخ من قال : إن العرب كانوا يكرهون بناتهم على البغاء واستدل على ذلك بقول الله تعالى : ﴿ وَلاَ تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ [النور : ٣٣] وهذا خطأ شديد ، ولم يحدث ما ادَّعاه الكاتب فى العرب من قبل ، فالفتيات فى الآية : الإمـاء أو الجوارى أوملك اليمين . ولو أنه نظر فى بقية سور القرآن الكريم لعلم هذا المعنى ولتبينه بوضوح يقول الله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [النساء : ٢٥] أى من الإماء .

وبعض الناس ذهب إلى أن حواء خلقت أولاً وأن آدم خلق منها ، واستدل على ذلك بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً ﴾ [النساء : ١] قال : لو كان المقصود : ﴿ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ آدم ، لقال : وخلق منها زوجته ،ولكنه قال : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾ أى آدم ، وهذا جهل بمعنى كلمة « زوج » فى لغة العرب وفى لغة القرآن الكريم التى تعنى المرأة أو الرجل . فالرجل زوج والمرأة زوج ، ولذلك قال الله تعالى لآدم :﴿ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ﴾[البقرة : ٣٥ ، الأعراف : ٩] وقال سبحانه : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ﴾ [البقرة : ١٠٢] وقال تعالى أيضًا : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ [الروم : ٢١] ولم يقل زوجات : لأن كلمة زوجات استعملها الفقهاء على لغية من اللغيات ، لكى يفرقوا بين الكلام عن الرجل والكلام عن المرأة فى الحقوق وغيرها ، لكن الواقع أن لغة العرب تجعل كلاً من الرجل والمرأة زوجا ،وأصل الزوج ضد الفرد وكأن كلاً منهما يحمل بين طيات نفسه شخصية الآخر ، فهما زوج فى فرد أو فرد فى زوج ، وهذا من أسرار التعبير العربى .

ولابد أيضا من معرفة علوم اللغة مثل (علم النحو) الذى يتعلق بالإعراب والبناء وتغير أواخر الكلمات بتغير العوامل الداخلة عليها إنْ حقيقة أو تقديرا ، وهذا العلم لابد منه حتى لا يضل الإنسان ،ويفهم الكلام على غير وجهه الصحيح ،كما يفهمه العوام ، وذلك مثل أن يفهم قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] على أن الله سبحانه هو الذى يخشى العلماء والحقيقة أن العلماء هم الذين يخشون الله تعالى (١) فلفظ (العلماء) ، فى الجملة فاعل ومثل أن يفهم من قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة : ١٣٤] أن إبراهيم عليه السلام امتحن ربه ، والحقيقة أن الله تعالى هو الذى ابتلى إبراهيم ، لكن التقديم والتأخير أوهم العامة بمثل هذا الفهم .

لذا لابد لمن يريد أن يفهم القرآن أن يعرف النحو وأن يعرف الإعراب وأن يعرف الأسماء والأفعال والحروف وأسماء الإشارة ودلالاتها ، والضمائر ومرجع الضمائر وقد أشرت معكم إلى قوله تعالى:﴿ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾التى يستدل بها بعض الناس على أن المصحف لا يمسه إلا طاهر ، وبالنظر إلى مرجع الضمير نجد أن الآية تقول:﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ*وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ*لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾[الواقعة : ٧٥ : ٧٩] فهل يرجع الضمير فى قوله « يمسه » إلى الكتاب المكنون أم إلى القرآن الكريم ؟ فإذا كان مرجع الضمير إلى القرآن الكريم فلا يمسُّه إلا المطهرون وإذا كان مرجع الضمير إلى الكتاب المكنون - وهذا هو الأرجح لأن الضمير يعود إلى أقرب مذكور ما لم يصرفه عن ذلك صارف - فالمعنى أن الكتاب المكنون لا يصل إليه إلا الملائكة ، ولا تستطيع الشياطين أن تذهب إليه ، قال تعالى : ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ*وَمَا يَنْبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾[الشعراء: ٢١٠، ٢١١] فمعرفة مرجع الضمير مهمة لبيان الحكم .

---

(١) قرأ بعضهم برفع لفظ الجلالة على أنه الفاعل الذى تقع منه الخشية للعلماء كنوع من التشريف لهم وهى قراءة شاذة يروج لها بعض أصحاب الطرق الصوفية .

وإعراب الكلمة غاية فى الأهمية ، فحينما يقول الله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ [التوبة : ٣٦] نجد أن إعراب كلمة كافة له دخل فى بيان المعنى المراد ، فهى (حال) ولكن من أى شىء ؟ هل هى حال من الفاعل أو حال من المفعول به ؟ كما تقول : لقيت محمداً مبتسماً ، فمن المبتسم : أنت أم هو ؟ وهنا لا نعرف صاحب الحال . . وفى قوله تعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً ﴾ هل الحال - كافة - هى من الفاعل - واو الجماعة فى وقاتلوا- فيكون المعنى تجمعوا على قتال المشركين كما يتجمعون على قتالكم ؟ أم أن الحال - كافة - هى من المفعول به - المشركين - فيكون المعنى قاتلوا كل المشركين كما يقاتلون كل المسلمين ؟ وهذا المعنى الأخير يستدل به من قال إن هـذه الآية هـى آية السـيف أو تدل على السـيف ؛ لأنها تطالب بقتال المشركين جميعًا أيًّا كان وضعهم . . فمن المهم إذن أن يتسلح من يريد فهم القرآن أو تفسيره بمعرفة علم النحو ، وأن يتضلع فى هذا العلم ، فإن له فوائد كثيرة .

وعلم الصرف وهو العلم الذى يتعلق ببنية الكلمة ، وهذا أيضًا له دخل فى الدلالة على المعنى فمثلاً فى قوله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ، قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ، فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] نجد كلمة محيض - وهى على وزن مفعل - تحتمل أن تكون مصدرًا ميميًّا بمعنى الحيض أى نزول الدم ، أو اسم مكان أى مكان الحيض فاعتزلوا النساء فى مكان الدم هذا ، أو فى فترة نزول الدم إذا كانت اسم زمان .

ونجد قوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَطْهُرْنَ ﴾ بالتخفيف أى بمجرد انقطاع الدم ، وطهرت المرأة بمعنـى انقطع عنها الدم وجف ، وهذا يعنى أن الاغتسال ليس شرطًا ، أو ﴿ حَتَّى يطّهّرن ﴾ بالتشديد تدل على زيادة المعنى حيث إن مبنى الكلمة قد زاد ، فلابد أنها تدل على شىء آخر ، وهو أن تغتسل المرأة ، كما قيل : إن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ، وهذه المعانى يعين على فهمها علم الصرف .

وأيضا دلالة الجموع مثل ما قاله بعض المفسرين فى قوله تعالى : ﴿ وَلا

تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ [النساء : ٥] ، من أن السفهاء هم النساء والصبيان (١) فلا ينبغى أن يعطى الرجل ماله لامرأته ، وقد رد المحققون من المفسرين هذا الكلام فقالوا : السفهاء جمع سفيه وهو جمع تكسير على وزن فعلاء للذكور العقلاء ٠ ولو كان المراد النساء لجاء الكلام بجمع سفيهة وهى تجمع على سفائه أو سفيهات أى جمع تكسير أو جمع مؤنث سالم ، لكن لا تجمع سفيهة على سفهاء ٠ فهذا غير صحيح ، فضلاً عن أن السفه اسم ذم ، ولا تذم المرأة على أنوثتها ، ولا يذم الصبى على صغره ، وفى سورة البقرة : ﴿ فَإِن كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا ﴾ [البقرة : ٢٨٢] فجعل الصغير من جنس الضعيف لا من جنس السفيه ٠

ويحتاج المفسر أيضًا إلى (علم البلاغة) علم المعانى والبيان ، ليعرف لماذا قدم هذا؟ولماذا أخر هذا؟وماذا يفيد الحصر؟والمسند والمسند إليه؟وإذا كان كلاهما معرفة،فماذا يفيد هذا التركيب؟ لأن هذه الأشياء لها دلالاتها ، فالتقديم مثلا له دلالته كما فى قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة : ٥] حيث أفاد التقديم هنا القصر أى لا نعبد إلا إياك ولا نستعين إلا إياك ، ولو أنه قال : نعبدك ونستعينك لما أفادت القصر ٠

ولهذا نجد أن معرفة علوم اللغة العربية المختلفة أمر لابد منه ، إذ كيف يفقه من لا يعرف أسرار العربية دلالة التركيب كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ [النور : ٣٣] فيظن أن ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ شرط والحقيقة أن هذا قيد لبيان الواقع ، كأنه ينكر على هؤلاء السادة الذين يجبرون إماءهم ومواليهم على التكسب بهذا المنكر ٠ فيقول : الأمة تريد التحصن وأنت تكرهها على البغاء ؟!! ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[آل عمران : ١٣٠]

---

(١) هكذا روى عن ابن عباس وابن مسعود والحكم بن عيينة والحسن والضحاك ، وقال مجاهد وعكرمة وقتادة هم النساء ٠٠ انظر ابن كثير ج ١ ص ٤٥٢ تفسير قوله ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُم ﴾ ٠

حيث أراد بعض الناس أن يجعله قيداً فى الربا ويقول : القرآن لم يحرم إلا الأضعاف المضاعفة أما النسب المئوية البسيطة فهذا ليس أضعافًا مضاعفة !! .

ولو أخذنا الكلام على ظاهره – وعلى طريقتهم هذه – لكان الربا المحرم هو الذى يعادل ستمائة فى المائة (٦٠٠ ٪) لأن كلمة أضعاف جمع ،وأقل الجمع ثلاثة ، فإذا كانت الأضعاف مضاعفة يكون أقلها ست مرات ، بما يعنى أن الربا لا يكون محرما إلا إذا كان أدناه ستة أضعاف . . وهذا غير معقول ، إنما المراد من قوله تعالى ﴿ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً ﴾ تبشيع الواقع وليس القيد كما تقول : إياكم والمخدرات سريعة المفعول ، أيعنى هذا أن المخدرات غير السريعة فى مفعولها جائزة ؟ لا . . إنما المراد تبشيع الواقع الذى أصبح ملموساً عند الناس .

ومن أسف أن كثيراً ممن يتعالمون فى عصرنا ، ويدّعون أنهم يقرأون القرآن قراءة معاصرة وقراءة جديدة ، لم يتعمقوا فى لغة العرب ، ولم يدرسوا علومها كما ينبغى .

ومما يعين على هذا قراءة المباحث اللغوية في علم أصول الفقة (١) فقد عنى هذا العلم بالدراسة اللفظية واللغوية ، ولذلك نجد فيه : الخاص والعام ، والأمر والنهى ، والمنطوق والمفهوم ، والمطلق والمقيد ، ودلالة الإشارة ودلالة العبارة . . بحوث ودراسات لفظية ، فعلم أصول الفقه علم استنباط من نصوص القرآن والسنة ، وهى نصوص عربية ، لذا نجد فيه تأصيلاً للأصول ،وتقعيداً للقواعد ، فلا بد من الاستفادة مما كتبه الأصوليون والتمكن منه ، لحاجة ذلك الشديدة عند الترجيح فى المسائل الخلافية .

---

(١) علم أصول الفقه علم يتعرف منه تقرير مطلب الأحكام الشرعية العملية وطرق استنباطها ومواد حججها واستخراجها بالنظر . . كما قال السخاوى إن أول من صنف فى أصول الفقه هو الإمام الشافعى ، ذكره الأسنوى فى التمهيد وحكى الإجماع فيه وهو شيخ المحدثين والفقهاء ، ومبادئ هذا العلم مأخوذة من العربية وبعض من العلوم الشرعية ، ومن الكتب المهمة فى هذا العلم : الرسالة للشافعى وكتاب إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول للشوكانى ، وكتاب البرهان لإمام الحرمين الجوينى وكتاب المستصفى للغزالى وغيرها من الكتب . . انظر أبجد العلوم للقنوجى المجلد الثانى ص ٧٠ وما بعدها .

ومن أدوات تفسير القرآن المهمة وآليات فهمه : أن يتضلع المفسرفى علوم السنة ، وقد قلنا من قبل : إن من طرق تفسير القرآن تفسيره بالسنة ، فمن لا يعرف السنة ولا يستطيع أن يميز بين المقبول منها والمردود ، وبين الصحيح والضعيف ،وبين المرسل والمسند ، وبين الموقوف والمقطوع والمرفوع ، وغير ذلك ٠٠ لا يستطيع يقيناً أن يفسر القرآن ، فإنه سوف يداخله الهوى ، بحيث يقبل من السنة ما يحلو له ويرد مالا يحلو له ، بدون قاعدة وبدون معيار ٠

فلا بد لمن يفسر القرآن أن يكون على علم بالسنة ، إلى جانب الأدوات الأخرى ، ولذلك نجد كبار المفسرين كانوا علماء فى السنة ،كشيخ المفسرين أبى جعفر بن جرير الطبرى الذى كان إماماً فى اللغة ، وكان إماماً فى القراءات ٠ وكان صاحب مذهب فى الفقه وله أتباع ،وكان إماماً فى التاريخ كما نعرف ، فهو صاحب التاريخ المعروف (١) وكان إماما فى الحديث وعلومه ، وكتابه فى هذا – تهذيب الآثار – الذى لم يصلنا للأسف ، من أعظم ما كتب ٠

وكذلك الإمام ابن كثير وغيرهما ٠

ولا أقل من أن يملك المفسر مبادىء هذا العلم الشريف إذا لم يحط به كله ، فهذا يعينه على الرجوع إلى المصادر ،والعالم هو الذى يعرف كيف يرجع إلى المصادر ويعرف الأصلى منها والفرعى ، والأساسى منها والهامشى ، والموثق وغير الموثق ٠

ثم ليحذر من يريد أن يفسر القرآن من الأحاديث الواهية والموضوعة ، وقد ورد عن الإمام أحمد أنه قال : ثلاثة لا أصل لها : المغازى والملاحم والتفسير ٠٠ وقال أصحابه : يعنى أن معظمها ليس متصل الأسانيد ولا مرفوعها ، أى ليس لها أسانيد متصلة مسندة ، والمرفوع منها قليل ، والصحيح منها أقل (٢) ٠

وليحذر أيضاً من الإسرائيليات التى دخلت كتب التفسير ، وامتلأت بها

---

(١) كتاب الإمام الطبرى فى التاريخ مطبوع تحت عنوان « تاريخ الطبرى تاريخ الأمم والملوك » ٠

(٢) انظر ابن تيمية دقائق التفسير الجزء الأول ص ٥٧ ٠

بطون الكتب ، حتى لا يكاد يخلو كتاب من كتب التفسير من هذه الإسرائيليات التى ضللت الأمة ، وخصوصًا فيما يتعلق بقصص الأنبياء ، وقصص السابقين عمومًا ، وما يتعلق بخلق السموات والأرض ونحو ذلك ، وما يتعلق بالغيبيات وأمور الآخرة ، وأباطيل كثيرة رويت عن أهل الكتاب ، وبعضها غير موجود فى كتب أهل الكتاب ، ولكنها ربما تكون مرويات شعبية شائعة عندهم ، أو تكون من وضع بعض الذين أرادوا أن يضللوا المسلمين ، وأثبتها بعض المفسرين فى كتبهم دون أن يبين ضعفها ،ومنهم من بيَّن ذلك ، مثل الحافظ ابن كثير الذى يذكرها أحيانًا قليلة فى صفحات طوال ثم يقول : وهذا حديث منكر أو باطل !! .

وهذا يرجع إلى أن أهل الكتاب لا يقولون بعصمة الأنبياء ، كما نقول نحن المسلمين . فمن يقرأ قصص داود وسليمان وأنبياء آخرين فى التوراة وأسفارها ، يخرج بانطباع : أن هؤلاء الأنبياء ليسوا قدوة يؤتسى بهم ،ويهتدى بهديهم ،ومن ذلك ما ذكر عن يوسف عليه السلام أنه تمكن من المرأة ونظر إلي أبيه.. وغير ذلك ، وهذا ترده الآيات القرآنية والسياق القرآنى فى قصة يوسف ، فحينما راودته امرأة العزيز عن نفسه قال : ﴿ مَعَاذَ اللهِ ، إِنَّهُ رَبِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ، إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾[يوسف : ٢٣] وهذا موقف قوى ،وحينما أتت المرأة بالنساء ، ورتبت لهن حفلاً وخرج عليهن يوسف،وقطعن أيديهن وقلن:حاش لله، قالت : المرأة بإصرار ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ، وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴾[يوسف : ٣٢] فالقرآن صريح فى موقف يوسف كان موقف الإباء والرفض المطلق ، ولذا قال الله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾[يوسف : ٢٤] وقد اعترف النسوة بذلك أمام الملك ﴿ قُلْنَ حَاشَ للهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ [يوسف : ٥١] فليس هناك أدنى شك فى نصاعة موقف يوسف ، ولكن الإسرائيليات التى امتلأت بها كتب التفسير شوَّهت جمال موقف يوسف عليه السلام .

وقد نبه حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس على هذا الأمر فقال : « إنهم

لا يسألونكم عما فى كتابكم ، وقد أنزله الله عليكم غضًا طريًا ، فكيف تسألونهم عن كتابهم ؟!» [١] .

ولهذا ينبغى الإعراض عن هذه الإسرائيليات ، فإنها كثيراً ماتكون فى بحوث لا معنى لها كالبحث فى اسم مؤمن آل فرعون ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾[غافر : ٢٨] والله سبحانه وتعالى ذكره لنا بوصفه ، فهو رجل ، وهو مؤمن ، وهو من آل فرعون ،وهذا هو المهم ،وكالبحث فى اسم أم موسى وأخت موسي ، وهذا مما لا يفيد ، فالعلم به لا ينفع والجهل به لا يضر .

وليحذر من يريد أن يفسر القرآن أيضًا من كثير من الروايات التى تروى عن مفسرى السلف ، وقد تكون عن بعض الصحابة أو عن بعض التابعين ممن اشتهروا بالتفسير ،كعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وغيرهم ، وهذه الروايات قد تكون مردودة وليس لها سند صحيح ، ومع هذا تنقل ، مثل ما ذكر فى قصة زيد بن حارثة رضى الله عنه إذ زوجه الرسول ﷺ زينب بنت جحش رضى الله عنها ، ثم ساءت العلاقة بينهما وانتهت بطلاقها كما أراد الله عز وجل ، حيث جعل بعض المفسرين منها قصة درامية غرامية لا تليق بالرسول ﷺ ، فزينب ابنة عمته ، وقد زوجها لأحب الناس إليه زيد بن حارثة الذى ذكره القرآن باسمه من بين الصحابة : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٧] فلما طلقها زيد ، تزوجها الرسول ﷺ وقد ذكر القرآن علة هذا الزواج ، وهى إبطال التبنى بالفعل بعد إبطاله بالقول ، وقد نبَّه العلامة ابن كثير على ضعف الروايات الواردة فى هذا الشأن [٢] .

---

(١) الحديث فى البخارى عن عبد الله بن عبد الله عن ابن عباس قال : « كيف تسألوا أهل الكتاب عن شىء وكتابكم الذى أنزل إليكم على رسول الله ﷺ احدث تقرءونه محضًا لم يشب » وقد حدثكم أن أهل الكتاب بدلوا وغيروا وكتبوا بأيديهم الكتاب . وقالوا : هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلا ؟ ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ لا والله ما رأينا منهم رجلاً يسألكم عن الذى أنزل عليكم » .

(٢) انظر ابن كثير تفسير القرآن العظيم الجزء الثالث ص ٤٩١ .

ومثل هذا ما ذكر أيضًا فى قضية الغرانيق من أن الرسول ﷺ كان يقرأ سورة النجم فلما بلغ منها قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَى .. ﴾ (١) [النجم: ١٩ ، ٢٠ ، ٢١] ألقى الشيطان على لسانه فقال: « تلك الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى » ثم استدرك .. وهذا كلام غير معقول ولا يجوز ، فكيف يذم تلك الآلهة ثم يمدحها فى آن واحد ؟! .

ومن أسف أن بعض العلماء قَبِلَهَا - لتعدد الروايات - قال: « إن طرقها ضعيفة لكن بعضها يقوى بعضًا » ، وهذا الكلام لا يسلم من الرد ، ففى بعض الأحيان كثرة طرق الضعيف تشكك فيه .

وينبغى الحذر أيضًا من الأقوال الضعيفة ، والآراء الفاسدة ، فإنها لبشر ، والبشر غير معصومين ، وقد قال الإمام مالك وغيره من أئمة السلف :كل واحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا النبى ﷺ وهذا ينطبق على كل إنسان حتى وإن كان من كبار المفسرين . فحينما يقول بعضهم عند قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴾ [الدخان : ٣ ، وانظر فى تفسيرها] إنها ليلة النصف من شعبان،فهذا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾[القدر: ١] وليلة القدر بالنص والإجماع فى شهر رمضان ، وهى التى نزل فيها القرآن ، فكيف يقال : إن القرآن نزل فى ليلة النصف من شعبان ؟! لا شك أن هذا الرأى مردود ، فالقرآن نزل فى ليلة القدر ، وهى نفسها الليلة المباركة .

وحينما يقول بعض كبار المفسرين عند تفسير قول الله تعالى فى سورة المائدة : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] وقوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [المائدة : ٤٥] وقوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [المائدة : ٤٧] إن هذا فى أهل الكتاب (٢) ، فهذا كلام فيه نظر ؛ لأن هذه الآيات وإن كانت

(١) ابن كثير ج ٤ ص١٣٧ .

(٢) انظر ابن كثير تفسير القرآن العظيم الجزء الثانى ص ٦٠ وما بعدها .

فى أهل الكتاب ، إلا أنها تشمل المسلمين ، وقد جاءت بلفظ عام ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم ﴾ .

وقد كتب بعضهم – للأسف – فى بعض الصحف السيَّارة : أن هذا الكلام لا ينطبق على المسلمين ، فهو خاص باليهود والنصارى ليُحَكِّموا التوراة والإنجيل ، وهذا شىء عجيب يجعلنا نتساءل : أمَنْ ترك الحكم بالتوراة يكون كافراً أو ظالمًا ، ومن ترك الحكم بالإنجيل يكون فاسقًا ، ومن ترك الحكم بالقرآن – أعظم كتب الله وأخلدها – لا يحكم عليه بكفر ولا بظلم ولا بفسق ؟!! أكان القرآن دون التوراة والإنجيل ؟! أم أن الله تعالى يكيل بكيلين ، فإذا ترك اليهود كتابهم فلم يحكموا به ، فهم كفرة وظلمة ، وإذا ترك النصارى كتابهم فلم يحكموا به ، فهم فسقة ، أما إذا ترك المسلمون كتابهم فلم يحكموا به ، فليسوا بكفرة ولا ظلمة ولا فسقة ؟! إن هذا أمر يخالف النقل ويناقض العقل ، ولذا قال سيدنا حذيفة « فيمن قال مثل هذا الكلام – ويبدو أن هذا الكلام ظهر من قديم – : « نعم الأخوة لكم بنو إسرائيل ، إن كانت لهم كل مرة ، ولكم كل حلوة ! » أى إذا تركوا كتابهم كفروا وظلموا وفسقوا ، وأنتم لا شىء عليكم إن تركتم كتابكم .. ويأبى الله هذا ، فعدله واحد ، وكتبه إنما أنزلت ليحكم بها الناس ، والقرآن لم ينزل لكى يتبرك به بتعليق آياته على الجدران أو بحمله حرزاً من العين والجن وغير ذلك ، وإنما أنزل ليحكم ويضبط مسيرة الحياة بأحكام الله ، ومن قال غير هذا – وإن كان من كان منزلة – فكلامه غير مقبول .

ومن غير المقبول أيضاً مثل كلام الإمام الطبرى عند تفسير قوله تعالى : ﴿ وَاللاَّتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِى الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ﴾ [النساء : ٣٤] ، يقول : واهجروهن فى المضاجع أى قيدوهن – أو اربطوهن – بالهجار – أى الحبل الذى يربط به – وهذا خروج عن ظاهر اللفظ ، فالهجر كما هو معروف ومنصوص عليه هجر فى المضاجع ، ولذلك قال الزمخشرى عمّن قال هذا : هذا تفسير الثقلاء ، وله الحق فى هذا ، ويدلنا هذا على أن أحداً ليس له العصمة بعد رسول الله ﷺ .

وبعد ..

وبعد فهذه المقدمات نضعها إن شاء الله بين أيدينا وأمام أعيننا ، حينما نبدأ مسيرتنا مع كتاب الله عز وجل ، مستفيدين - إن شاء الله - من كل تفسير لكتاب الله سبق ، وإذا كان من سؤال : كيف تفسر ؟ وما هو منهجك ؟ وهل هو تفسير قديم أو جديد ؟ وهل هو تفسير فقهى أو كلامى ؟ بالرأى أو بالمأثور؟ أقول وبالله التوفيق : « إنه تفسير يأخذ من المأثور ، ويستخدم الرأى ، تفسير يجمع بين الرواية والدراية ، بين العقل والنقل ، بين الأصالة والمعاصرة ، يهتدى بتفسير السلف ، ومعارف الخلف ، وعلوم العصر ، ولكنه يمحص ويرجح ، وليس أسيرا لأحد ولامقلدا لأحد ، يستفيد من كل التفاسير الماضية ، ولكنه لا يخوض ويتوسع فى اللغويات ولا فى الفقهيات ولا فى الكلاميات بحيث يخرج تفسير القرآن عن مقصده وعن هدايته . بل يهتم بإبراز مقاصد القرآن ، وهداية القرآن ، وعظمة القرآن ، وروعة القرآن ، وهو تفسير تحليلى وموضوعى ، يتتبع كلمات النص القرآنى ويحللها ويعايشها ، ويتتبع المعنى فى القرآن الكريم » ويضم بعضه إلى بعض ، فخير مايفسر القرآن بالقرآن ، ثم بالسنة الصحيحة .

وهذا ما سأحاول السير عليه ، سائلا الله عز وجل أن يلهمنى الصواب ، وأن يفتح علىّ بفتوح من عنده ، فكتاب الله معطاء ،ولا تنقضى عجائبه .

اللهم فقهنا فى كتابك ، واجعلنا من أهل القرآن ، أهل الله وخاصته ، واجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور صدورنا ، وجلاء أحزاننا وذهاب همنا وغمنا .. اللهم آمين وصل اللهم وسلم على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيراً .

* * *

تفسير سورة الرعد

سورة الرعد هى السورة الثالثة عشرة فى ترتيب المصحف ، وآياتها ثلاث وأربعون أو أربع وأربعون أو خمس وأربعون أو سبع وأربعون على اختلاف المصاحف الكوفية والمكية والشامية (١) .

مكية أو مدنية ؟ :

وهذه السورة كتب فى بعض المصاحف أنها مدنية ، ومنها المصحف الذى أشرفت عليه لجنة من كبار العلماء فى مصر ، وكانوا يسمونه (مصحف الملك) (٢) ، والاختلاف كبير فى المكى والمدنى ، ولا يخلو من خلل كثير ، فكثير من السور التى يقال عنها مدنية إذا قرأتها داخلك إحساس أنها غير مدنية ، ومنها سورة الرعد وسورة الإنسان ، ومن يقرأ هذه أو تلك يستيقن أنها مكية ، وهذا ما جاء عن ابن عباس فقد روى مجاهد ، وعلى بن طلحة عن ابن عباس : أنها مكية .

---

(١) يختلف عدد الآيات بين الكوفيين والمكيين والشاميين باختلاف بدايات بعض الآيات أو نهاياتها ، وليس لزيادة أو إثبات آيات فى بعض المصاحف غير موجودة فى مصاحف أخرى ، فالاختلاف في العد والحساب فقط ، والسند يؤيد كل فريق . فهذا وارد ، وتجده فى كثير من سور القرآن الكريم ومثال ذلك فى سورة الرعد الآية الخامسة فهى تبدأ عند حفص بن سليمان (الذى روى القراءة عن عاصم بن أبى النجود الكوفي والذى طبعت أغلب المصاحف فى العالم الإسلامى على روايته) بقول الله تعالى ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ وتنتهى بقول الله تعالى : ﴿ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ فى حين أن ورشاً عن نافع المدنى جعلها آيتين الأولى ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ والثانية تبدأ من قوله تعالى : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وتنتهى عند قوله تعالى : ﴿ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ وهكذا .

(٢) هو مصحف الملك فؤاد الأول ملك مصر الأسبق والذى أشرفت على طبعه لجنة مكونة من الشيخ محمد على خلف الحسينى شيخ المقارىء المصرية وقد كتب المصحف بخط يده والأستاذ حفنى ناصف المفتش الأول للغة العربية والشيخ مصطفى عنانى والشيخ أحمد السكندرى والشيخ نصر العادلى .

وسئل الفقيه التابعي الجليل سعيد بن جبير عن قوله تعالى في آخر سورة الرعد ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد : ٤٣] أهو عبد الله بن سلام ؟ فقال : كيف وهذه السورة مكية ؟ (١) ولكن بعض الروايات التي وردت – خصوصا في أسباب النزول – جعلت بعضهم يظن أنها مدنية ،وليس الأمر كذلك .

وبعضهم يظن أن كل ما ذكر فيه أهل الكتاب أومحاجة أهل الكتاب من القرآن فهو مدني ، مثل ما قيل في آية سورة يونس : ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ﴾ [يونس : ٩٤] إنها مدنية ، والسورة كلها مكية ، والصحيح أن هناك أشياء كثيرة ذكرت عن أهل الكتاب في القرآن المكي ، فينبغي أن يُتنبه لهذا .

والمكي من القرآن هو ما نزل قبل الهجرة ، والمدني هو ما مزل بعد الهجرة وإن نزل في مكة كآية سورة النساء ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾[النساء : ٥٨] التي قالوا : إنها نزلت في مكة عند الفتح ، فالمقصود بالمكي والمدني : الزمان لا المكان .

والقرآن الذي نزل قبل الهجرة وهو ما يسمى بالمكي يعمل على ترسيخ العقائد ، وتأسيس القواعد التي تقوم عليها الحياة الإسلامية من إرساء معاني التوحيد لله تبارك وتعالى والإيمان بالآخرة والجزاء ومصاير المؤمنين ومصاير الكافرين ، والنبوة والوحي والعمل الصالح وأصول الفضائل ومكارم الأخلاق . .

أما القرآن الذي نزل بعد الهجرة وهو ما يسمى بالمدني ، فيعمل على تنظيم المجتمع الإسلامي في المدينة ، فقد صار للمسلمين مجتمع في المدينة بعد الهجرة يخاطب بـ ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٢) التي لم تنزل إلا بعد الهجرة ، حيث أصبح للمؤمنين جماعة مميزة لها كيان ، ولها أرض ، ولها سلطان ، فكانت

(١) انظر : ابن كثير التفسير الجزء الثاني ص ٥٢١ .

(٢) ورد هذا النداء بهذه الصيغة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ تسعًا وثمانين مرة في القرآن كله كما في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن وورد مرة واحدة بصيغة ﴿ أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

مهمة القرآن أن يقيم هذا المجتمع ويؤسسه ويتبعه بالترشيد والهداية والتقويم ، ومن أجل ذلك فالتمييز بين القرآن المكى والقرآن المدنى يظهر عند قراءة السور ، والذى يقرأ سورة الرعد يحس ويستيقن أنها سورة مكية ، فموضوعها مكى ، وأسلوبها مكى ، ونَفَسُها مكى ، ومن يتذوق القرآن لا يشك فى أن هذه السورة مكية .

ثم إن السور التى قبلها وبعدها مما بدأ بأحرف (الر) كلها مكية ، وهذه حلقة من هذه السلسلة ، أو هذه الزمرة ، وإن زيد فى أولها ميم لحكمة يعلمها الله (المر) .

أما مسألة استثناء بعض الآيات من السور المكية لتكون مدنية ، ففى النفس منها شىء ، وتحتاج إلى تمحيص وتحقيق فى كل ما يستثنى ، فأحياناً يستثنون آية ، ويعجب المرء لماذا استثنوها ، وهى شديدة التعلق بما قبلها وبما بعدها فى التحام وثيق ؟! مثلما استثنوا من سورة المرسلات المكية آيتها الثامنة والأربعين وقالوا : إنها مدنية ،والآية تقول ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لاَ يَرْكَعُونَ ﴾ [المرسلات : ٤٨] وقبلها : ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾[المرسلات] وبعدها ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات] فهل كان السياق قبل نزول الآية ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ، وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات] ؟! لا ، فهذا يخالف ما قامت عليه السورة .

فينبغى أن نحرص ونتحرى وندقق فى المكى والمدنى ، ومسألة استثناء آية أو آيات من السور، فبعض هذا يكون تبعاً لروايات حول أسباب النزول كثيراً ما تكون غير محققة وغير صحيحة .

سورة الرعد إذن : مكية نزلت فى أواخر العهد المكى على ما يبدو ، فقد وردت بعض الروايات تفيد أن سورة يونس وما بعدها من السور التى تبدأ بـ(الر) وهى يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر ، نزلت فى مدة زمنية متقاربة ،وقالوا : إن سورة يونس نزلت بعد سورة الإسراء – وإن كان ترتيب نزول السور يحتاج إلى كثير من التروى والتحقيق أيضا – وهذا يعنى أنها نزلت فى السنوات الثلاث الأخيرة فى مكة قبل الهجرة وبعد وفاة أبى طالب عم الرسول

ﷺ ووفاة السيدة خديجة زوج رسول الله ﷺ فى ذلك العام الذى سمّاه (عام الحزن) حينما اشتدت عليه قريش ،ونالت منه ومن أصحابه ما لم تنل من قبل ، فكان نزول هذه المجموعة من السور تسلية لرسول الله ﷺ ودفاعا عن النبوة فى مواجهة المكذبين لها ، والمشككين فيها ،والمفترين عليها ، ودفاعا عن الوحى كما فى سورة يونس ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا . . ﴾[يونس:٢]،وكما فى سورة هود:﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾[هود : ١] وفيهــا أيــضًا : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ . . ﴾[هود: ١٢] ومنها : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[هود : ١٢٠] وكما فى سورة يوسف : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[يوسف : ٩٠] وفيهــا أيضا : ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ، وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾[يوسف : ١١٠] وسورة الرعد تسير فى هذا الاتجاه وسورة إبراهيم تسير فى هذا الاتجاه ذاته ولكن بنفس حار ، قال تعالى :﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ، فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ * وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾[إبراهيــم : ١٣ ، ١٤ ، ١٥] وفى آخر السـورة: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُــمْ لِيَوْمٍ تَشْخَــصُ فِيهِ الأَبْصَــارُ ﴾[إبراهيم : ٤٢] وأيضا : ﴿ فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ * يَـوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَـاوَاتُ ، وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾[إبراهيم: ٤٧ ، ٤٨] .

وسورة الرعد منذ أول آية تمشى فى هذا الاتجاه ففيها دفاع عن النبوة وتأكيد لحقّيّة القرآن وبيان لما بعث الله به محمداﷺمن الحق المطلق ورد على أولئك الذين يطلبون الآيات الحسية فيقولـون﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ . . ﴾ [الرعد : ٧ ، والآية : ٢٧] فى أكثر من موضع فى هذه السورة ، فبسط الله لهم من آياته الكونية ما فيه عظة وعبرة ، ورد عليهم بردود مختلفة فى أنحاء السورة .

لماذا سميت سورة الرعد ؟ :

وقد سميت هذه السورة بسورة الرعد ؛ لأن الله تعالى ذكر فيها تسبيح الرعد فقال ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ [الرعد : ١٣] وتسميات السور توقيفية ، وهذا هو الراجح ؛ لأن الآيات كانت تنزل فيقول الرسول ﷺ : ضعوا هذه في سورة كذا ، وضعوا هذه في سورة كذا ، وهذا يعني أن السور كانت معلومة .

تسميات السور وأسبابها :

والتسميات تكون لملابسات شتى فأحيانا تسمى السور باسم أولها كسورة « ص » وسورة « ق » وسورة « اقتربت » وسورة « لم يكن » وسورة « الرحمن » وغيرها ، وأحيانا تسمى باسم شيء متميز فيها كلفظة معينة لم تتكرر في غيرها من السور مثل سورة الجاثية : ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً .. ﴾ [الجاثية : ٢٨] والأحقاف : ﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالأَحْقَافِ .. ﴾ [الأحقاف : ٢١] ، أو معنى معين له أهمية مثل سورة الشورى ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨] ، وسورة الصف ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف : ٤] وغيرها .

وبعض السور تحمل أسماء الله تبارك وتعالى مثل سورة « الرحمن » وسورة « النور » ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [النور : ٣٥] وسورة فاطر : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [فاطر : ١] وسورة غافر : ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ [غافر : ٣] وبعضها يحمل أسماء أشخاص كبعض الأنبياء والرسل مثل سور « نوح ، وإبراهيم ، ويونس ، وهود ، ويوسف ، ومحمد » عليهم الصلاة والسلام ، وسورة المزمل والمدثر ، ومن غير الأنبياء كسورة « لقمان » وسورة « مريم » وبعضها يحمل أسماء أقوام مثل سورة « الروم » وسورة « قريش » وسورة « سبأ » أو أسماء أصناف من الناس ومن المخلوقات مثل سورة « الجن » وسورة « الملائكة » وهو اسم آخر لسورة « فاطر » وسورة « المؤمنون » وسورة « المنافقون » وسورة « المطففين » وسورة « الكافرون » ، أو أسماء أماكن مثل سورة « الأحقاف » وسورة « الحجر » أو أسماء حيوانات مثل سورة « البقرة » وسورة « الفيل » ، أو أسماء حشرات مثل سورة « النحل » ، وسورة « النمل » ، وسورة « العنكبوت » وهكذا ..

وفى بعض السور نجد أن للسورة أكثر من اسم مثل سورة « الإسراء » تسمى سورة «بنى إسرائيل » وسورة « النحل » تسمى سورة « النعم » وسورة اقتربت تسمى سورة « القمر » وسورة « لم يكن » تسمى سورة « البينة » وهكذا ، وهذه التسميات للسور متنوعة وهى تدل على تنوع موضوعات القرآن الكريم .

سر البداية بالبسملة :

وقد بدأت سورة الرعد بالبسملة ، كما بدأت كل سور القرآن ماعدا سورة التوبة .

﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

والبسملة استجابة لأمر الله تعالى لرسوله فى أول آية نزلت من القرآن : ﴿ اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق : ١] فهى قراءة باسم الله الرحمن الرحيم فى بداية كل سورة .

والتسمية على الأمور ذات البال من سنن الأنبياء وهديهم ، فسيدنا نوح عليه السلام عندما ركب السفينة قال : ﴿ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ [هود : ٤١] وسيدنا سليمان عليه السلام حينما كتب إلى ملكة سبأ كتابه كتب فيه ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلاَّ تَعْلُوا عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل : ٣٠ ، ٣١] .

هل البسملة آية من الفاتحة ؟ :

وقد اختلف السلف حول البسملة : أتكون آية من كل سورة أم لا ؟ وهل هى آية من سورة الفاتحة وحدها أو ليست آية لا من الفاتحة ولا من غيرها ؟ خلافا طويلاً بين المالكية وغيرهم . ورغم أن هذا الخلاف فى أمر مهم إلا أن السلف رضوان الله عليهم وسع بعضهم بعضاً فى هذا الأمركما وسع بعضهم بعضاً فى كل الأمور الخلافية الفرعية ، وصلى بعضهم وراء بعض ، ولم يجد حرجاً ولا عنتاً فى ذلك ، وهذه هى سماحة سلف هذه الأمة التى نرجو من الخلف أن يعوها ويدركوها ويسيروا على هديها .

والذى أرجحه أن البسملة آية من كتاب الله عز وجل (١) فإن الصحابة- رضى الله عنهم - فى عهد عثمان بن عفان - رضى الله عنه - الخليفة الثالث حينما كتبوا المصاحف جردوها من غير القرآن ، وقد كانت المصاحف تحوى بعض التفسيرات والتعليقات والإضافات لعدد من الصحابة على مصاحفهم ، فلما كتبها سيدنا عثمان جردها من كل ذلك فبقيت خالصة لكلام الله عز وجل ، وهذا مما يجعلنى أرجح أن البسملة آية من القرآن ، وأن لم تكن آية من كل سورة ذكرت فيها ، وهذا من فضل الله عز وجل على المسلمين أن جعل البسملة في بداية كل سورة ، فإذا قرأها المسلم مبتدئا السورة ﴿ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ فإنه يستعين ويبدأ ويشرع ويقرأ ﴿ بِسْمِ اللهِ ﴾ .

لفظ الجلالة :

و « الله » لفظ الجلالة علم على الذات الإلهية لا يشركه فيه أحد من خلقه ، و « الرحمن » أيضا اسم علم يفرد وحده كلفظ الجلالة « الله » ، قال تعالى ﴿ قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾ [الإسراء : ١١٠] وقال تعالى ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ [الرحمن: ١ ، ٢] ومما يدل على أن اسم« الرحمن » علم يفرد : أنك لاتستسيغ أن تقول: الرحيم علم القرآن ، وقال تعالى أيضا : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ ﴾ [الفرقان : ٦٠] وقال : ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] وقال : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ [الرعد : ٣٠] فالرحمن اسم مفرد لأنه علم على الذات الإلهية .

الرحمن الرحيم :

وصيغة « الرحمن » هذه تدل على المبالغة فى الرحمة فإذا قرنت بـ « الرحيم » ازدادت المبالغة فهو رحمن رحيم ، وعلى أى وجه فسرت « الرحمن الرحيم » المنعم بجلال النعم أو المنعم بدقائقها أو رحمن الدنيا

---

(١) ذهب الشيخ هنا مذهب كثير من أهل العلم والأئمة ومنهم الشافعى وغيره وللإمام ابن تيمية كلام طيب فى هذا يحسن أن ننقله يقول رحمه الله : « البسملة آية من كتاب الله حيث كتبها الصحابة فى المصحف إذ لم يكتبوا فيه إلاالقرآن وجردوه مما ليس منه ، كالتخميس والتعشير وأسماء السور ، ولكن مع ذلك لا يقال هى من السورة التى بعدها كما أنها ليست فى السورة التى قبلها بل هى كما كتبت آية أنزلها الله فى كل سورة وإن لم تكن من السورة .. » أ . هـ انظر دقائق التفسير المجلد الأول ص ١٥ .

أو رحيم الآخرة أو غير ذلك ، فإن اجتماع الاسمين فى البسملة يدل على سعة رحمة الله تبارك وتعالى ، فهو سبحانه الموصوف بالرحمة ، والرحمة صفة ذاتية لله عز وجل ينبغى أن يوصف بهـا كما يوصف بالعلم ، والإرادة والقدرة ، والحياة ، والسمع والبصر والكلام ، وكما يوصف بالحكمة .

وقد وُصف الله سبحانه وتعالى بالرحمن الرحيم ، ووصف بأرحم الراحمين كما قال موسي عليه السلام ، قال : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَلأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٥١] وكما قال سيدنا يعقوب عليه السلام : ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِين ﴾ [يوسف : ٦٤] وكما قال يوسف عليه السلام : ﴿ قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [يوسف : ٩٢] وكما قال سيدنا أيوب عليه السلام ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٣] فهو سبحانه أرحم الراحمين وهو خير الراحـمين : ﴿ وَقُلْ رَّبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴾ [المؤمنون : ١١٨] وقد وسعت رحمته كل شيء : ﴿ قَالَ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] وكما قال الملائكة فى دعائهم : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر : ٧] فكما أن علمه يسع كل شيء ، تسع رحمته كل شيء أيضاً .

هذا هو الله سبحانه وتعالى رب المسلمين ، وإلههم ليس كما يقول دعاة التنصير والاستشراق وتلاميذهم : إن إله المسلمين إله جبروت وانتقام ولا يعرف بالرحمة ، فهذا كذب على الإسلام ، وعلى القرآن ، وعلى السنة ، فالله هو الرحمن الرحيم الذى اختار أن تبدأ سور القرآن كلها – عدا براءة – بالبسملة ، وأن يقرأها المسلم كل يوم فى صلاته أربعا وثلاثين مرة . سبع عشرة مرة فى البسملة – حيث الصلوات المفروضة فى اليـوم والليلة سبع عشرة ركعة – وسبع عشرة مرة أخرى فى الفاتحة فهى آية منهـا فهذه أربع وثلاثون عدا النوافل والأذكار ، لتظل حياة المسلم موصولة برحمة الله عز وجل ، فكيف يقال إن إله المسلمين إله عذاب وإله نقمة ؟! هذا غير صحيح بلا ريب .

الرحمة من صفات الله والعذاب من أفعاله :

وحينما قال الله عز وجل لرسوله ﷺ : ﴿ نَبِّىءْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ

الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ [الحجر : ٤٩ ، ٥٠] جعل الرحمة كالمغفرة من أسمائه تعالى وصفاته ، أما العذاب فجعله من أفعاله ولم يجعله من أسمائه ، فليس من أسمائه المعذب ،وقد ذهب الإمام المحقق ابن القيم إلى أن اسم « المنتقم » لم يصح من أسماء الله الحسنى ، وفى القرآن « ذو انتقام » وليس فيه « المنتقم » هذه ، لا بالتعريف ولا بالتنكير ٠

وقد ورد لفظ « الرحمن » فى القرآن الكريم سبعًا وخمسين مرة [١] وهذا عدا ما فى البسملة فإذا أضفنا مائة وثلاث عشرة – وهى عدد ما فى البسملة من لفظ الرحمن – كان المجموع مائة وسبعين مرة ذكر فيها « الرحمن » فى القرآن الكريم كله ، أما لفظ « الرحيم » معرفا بالألف واللام أو غير معرف مثل رحيم ، رحيمًا فقد ورد فى القرآن الكريم مائة وخمس عشرة مرة [٢] كما فى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم فإذا اضفنا إليه مائة وثلاث عشرة مرة أصبح مجموع ما ذكر فى القرآن منه مائتين وثمانيا وعشرين مرة ، وهذا يدلنا على مدى عناية القرآن بغرس معنى رحمة الله فى نفس الإنسان المسلم ، حتى إذا ناجى ربه ناجاه بهذا ، وإذا عامل ربه عامله بأنه الرحمن الرحيم ، فلا ينبغى أن ييأس من روح الله قط ، مهما تكن ذنوبه ومهما تتفاقم سيئاته فإن رحمة الله أعظم ﴿ قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّه هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] ٠

* * *

---

(١) ورد لفظ الرحمن سبعًا وخمسين مرة فى القرآن الكريم كله ، وكلها معرفة بالألف واللام ،ولم ترد نكرة كما لم ترد معرفة بغير الألف واللام ٠٠ انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم الذى وضعه محمد فؤاد عبد الباقى ص ٣٠٧ طبعة المكتبة الإسلامية استانبول تركيا ٠

(٢) ورد لفظ الرحيم معرفًا وغير معرف كما ذكر الشيخ مائة وخمس عشرة مرة منها مائة وأربع عشرة مرة كصفة لله عز وجل ومرة واحدة كصفة للرسول ﷺ هى قوله تعالى فى سورة التوبة : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[التوبة : ١٢٨] ٠

﴿ المر ، تلْكَ آيَاتُ الْكتَابِ ، وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الرعد : ١] .

الأحرف المقطعة فى أول السورة :

بدأت السورة بالحروف المقطعة ، وأحب قبل الكلام عنها أن أذكر هنا أن ترتيب السور على القول الراجح توقيفى ، ولو كان اجتهاديًا (١) – كما ذهب بعض العلماء إلى أن بعضها توقيفى وبعضها الآخر باجتهاد الصحابة – لأتت السور التى تبدأ بـ (الر) تباعاً بعضها إثر بعض ، ثم تأتى بعدها السورة التى تبدأ بـ ﴿ المر ﴾ فهذا هو المعقول ، ولأتت السور التى تحمل أساء الأنبياء متتابعة دون فصل أو بترتيب الأنبياء الزمنى فإبراهيم عليه السلام أسبق من يوسف ويونس عليهما السلام،وهكذا فهذا يدل على أن ترتيب السور ترتيب توقيفى .

بدأت السورة بـ ﴿ المر ﴾ وللمفسرين كلام طويل الذيول فى معانى الأحرف المقطعة لا نريد أن نطيل فيه ، فهناك من قال : إنها من المتشابه الذى لا يعلم معناه إلا الله ، ولذا نجد بعض المفسرين يقولون عندها : الله أعلم بمراده ، وهذا ما جاء عن صديق الأمة أبى بكر رضى الله عنه إذ قال : « **لكل كتاب سر وسر القرآن أوائل السور** » (٢) كما جاء قريب من هذا عن ابن عباس ، وعن الشعبى علامة التابعين الذى قال : « الأحرف المقطعة فى أوائل السور سر الله فلاتطلبوه » (٣) .

---

(١) قال ابن تيمية رحمه الله : « ترتيب السور لم يكن واجبًا عليهم (الصحابة) منصوصا ، بل مفوضًا إلى اجتهادهم ولهذا كان ترتيب مصحف عبد الله على غير ترتيب مصحف زيد وكذلك مصحف غيره » دقائق التفسير جـ ١ ص ١٣ .

(٢) انظر الطبرى جامع البيان جـ ١ ص ٦٨ . وذهب إلى أنها من المتشابه جماعة من العلماء منهم الشعبى والثورى والسيوطى والشوكانى وكثير غيرهم .

(٣) انظر : الرازي مفاتيح الغيب جـ ١ ص ١٥١ ، والنيسابورى غرائب القرآن جـ ١ ص ١٢٠ .

وهناك من قال إنهـا رمـوز وإشارات إلى أسماء الله تبارك وتعالى ، فالألف تشير إلى الله ، واللام تشير إلى لطيف ، والميم إلى مهيمن ، والراء إلى رحيم (٢) .

ومن قال إنها إشارة إلى أفعال الله ، فالألف آلاؤه ، واللام لطفه ، والميم مجده ، والراء رحمته (٣) .

ومن قال إنها أسماء للسور ، فهذه سورة ﴿ الٓمٓر ﴾ وتلك ﴿ طسٓ ﴾ وأخرى ﴿ حمٓ ﴾ ولكن هذه الحروف تتشابه وتشترك أكثر من سورة فى بداية واحدة فتحتاج فى تسميتها بالحروف إلى شيء آخر يميزها عن غيرها .

ومن قال إن هذه الحروف مسرودة سرداً أُريد به التنبيه على إعجاز القرآن والتحدى به (٤) ، كأنه يقول للمشركين : هذه الأحرف التى تسمعونها هى من جنس الأحرف التى ترتبون منها كلامكم ، ومع هذا عجزتم أن تأتوا بمثل هذا القرآن أو بعشر سور مثله أو بسورة من مثله ، وهو الذى لم يخرج عن أحرف كلامكم ، فهذا دليل على أنه من وحى الله وليس من صنع محمد .

ومما يؤكد هذا الكلام – كما قالوا – إنه ما ذكرت هذه الأحرف إلا ويذكر بعدها القرآن مباشرة أو أثناء السور (٥) ، قال تعالى : ﴿ الٓمٓ * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ

---

(٢) انظر : الطبرى جامع البيان جـ ١ ص ١٥٣ والرازى مفاتيح الغيب جـ ١ ص ١٥٢ ، ١٥٣ ، وابن كثير جـ ١ ص ٥٨ ، والسيوطى الإتقان فى علوم القرآن جـ ٢ ص ٩ .

(٣) انظر : الشوكاني فتح القدير جـ ٤ ص ٥١١ .

(٤) قال بهذا جمع من المفسرين والمتكلمين منهم ابن جرير الطبرى فى جامع البيان وأبو عبيدة فى مجاز القرآن وابن قتيبة فى تأويل مشكل القرآن والخليل وسيبويه ورويت عن زيد ابن أسلم من التابعين ، وأما من قال إنها للتحدى والإعجاز فمنهم قطرب ت ٢٠٦ هـ والفراء ت ٢١١ هـ والمبرِّد ت ٢٨٥ هـ ،وقد نص على ذلك الرازى فى مفاتيح الغيب جـ ١ ص ١٥٣ والنيسابورى فى غرائب القرآن جـ ١ ص ١٢١ وغيرهما .

(٥) قاله ابن القيم وغيره ، انظر : التبيان فى أقسام القرآن لابن القيم ص ٢٠٣ .

رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[البقرة: ١ ، ٢] وقال: ﴿ الٓمٓصٓ * كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ . . ﴾ [الاعـراف : ١ ، ٢] وقال ﴿ الٓر، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾[يونس : ١] وقال : ﴿ الٓر ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴾ [يوسـف : ١] وقـال : ﴿ الٓـر ، كِتَابٌ أُحْكِمَـــتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِـيرٍ ﴾ [هود : ١] وقال ﴿ آلٓر ، كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [إبراهيم : ١] وقال فى سورة الرعد : ﴿ الٓمٓر ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد : ١] وهكذا فهو تنبيه على الإعجاز والتحدى .

وقد بدأت بعض السور بحرف واحد مثل : ﴿ صٓ ﴾ ، ﴿ قٓ ﴾ ، ﴿ نٓ ﴾ ، وبعضها بدأ بحرفين مثل ﴿ طسٓ ﴾ ، ﴿ حمٓ ﴾ ، و﴿ طه ﴾ ، و﴿ يسٓ ﴾ وبعضها بدأ بثلاثة أحرف مثل ﴿ الٓمٓ ﴾ ، ﴿ الٓر ﴾ ، وبعضها بدأ بأربعة أحرف مثل سورة الرعد هذه ، وسورة ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ ، وبعضها بدأ بخمسة أحرف مثل ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ ، ﴿ حمٓ * عٓسٓقٓ ﴾ إلى آخره .

ويلاحظ أن هذه الحروف ذات نغم معين مؤثر ، وقد حدثنى بعض الأخوة أن بعض المتخصصين فى الموسيقى من الغربيين دخل فى الإسلام بعد سماعه تلك الأحرف ، فإن لها وقعا معينا ، وقد وجد هذا الموسيقى خللاً فى بعض الفواتح فتوقف فيه حتى سأل بعض المسلمين عن سر هذا فوجد أنه لم يقرأ الأحرف قراءة صحيحة مقطعة ، بل قرأها مجمعة [١] ونحن لا نعرف الموسيقى ، ولكن هذا القرآن – الذى نعرفه – عجيـــب جداً ، فهو يؤثر فى الأسماع ، ويؤثر فى القلوب ، حتى بجرسه وموسيقاه ، وكل سورة لها جرس معين وإيقاع معين ،وهذا

(١) ذهب بعض المستشرقين إلى أن هذه الحروف رموز صوتية موسيقية وقد أثبت هذا الدكتور زكى مبارك فى النثر الفنى فى القرن الرابع جـ ١ ص ٤٠ فى حديث مع أستاذه المسيو بلانشو Blanchot وتبعه كثيرون منهم عبد الكريم الخطيب الذى قال : « ولنا أن نحسبها مطلعًا موسيقيًّا تقوم عليه وحدة النغم » انظر التفسير القرآنى للقرآن جـ ١ ص ٢٥ .

ما يجعلنا نقول : إنه من المستحيل أن يترجم القرآن ترجمة كاملة مستوعبة ولو أمكننا ترجمة المعانى ، فكيف تترجم الجرس والإيقاع واللحن ؟ » ٠

ومن الأشياء التى عرفتها أن إخوانًا لنا لهم مستشفى فى أمريكا اسمه مستشفى أكبر – أو مستشفى الله أكبر – أجروا تجارب على المرضى بإسماعهم القرآن الكريم فوجدوا أن له تأثيرًا على هؤلاء المرضى العربى المسلم منهم ، والعربى غير المسلم ، والأعجمى المسلم منهم ، والأعجمى غير المسلم ، من يفهم القرآن ومن لا يفهمه ، وكان هذا التأثير إيجابيًا ، فتحسنت أحوال المرضى [1] وهذا من العجائب فى تأثير هذا القرآن العظيم ٠

الإشارة بـ (تلك) :

﴿ الـمر ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ تلك إشارة إلى السورة المتلوة هذه ، على أساس أنها مستحضرة ، و (تِلْكَ) كما يقول النحويون اسم إشارة ،ولكنها إشارة للبعيد ، أما الإشارة إلى القريب فتكون بـ« هذه » و « هذا » ، و« ذلك » ، و « تلك » إشارة للبعيد ، و « وهؤلاء » إشارة للقريب ، و « أولئك » إشارة للبعيد ، فما وجه البعد فى ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ ؟ ، يقول علماء البلاغة وعلماء التفسير : إن الشىء إذا كان رفيع المقام والمنزلة ينظر إليه باعتبار علو مقامه ورفعته كأنه بعيد ، ولهذا جاء فى القرآن : ﴿ فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ﴾ [يونس : ٣٢] والله حاضر معنا : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾[الحديد : ٤] ،وجاء أيضًا :﴿ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ،لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ ﴾[الأنعام:١٠٢] وهذا هو سر الإشارة بتلك وبذلك فى مثل قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ ﴾[البقرة : ٢] أى ذلك الكتاب البعيد الشأن، العظيم المنزلة ، الرفيع المقام الذى لا تتطاول إليه الأعناق ٠

---

(١) تتبع عيادات أكبر – وهى عيادات بنما سيتى الآن – مؤسسة العلوم الطبية الإسلامية بولاية فلوريدا ومن فروعها معهد الطب الإسلامى وأمينها العام الدكتور أحمد محمد قناوى ومن ألمع أطبائها الدكتور أحمد القاضى ٠

معنى الآيات :

﴿ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ الآيات : جمع آية ، والآية هى : العلامة الواضحة الدالة علي شيء ، قال تعالى على لسان زكريا : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِي آيَةً ﴾ [مريم : ١٠] حينما استجاب الله له إذ دعاه أن يصلح له زوجه ، ويرزقه غلامًا بعد الكبر، رغم عقم امرأته ، ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً ، قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾[مريم :١٠] فالآية العلامة ،ولكنها فى القرآن تكون علامة على أشياء عديدة ، ولذلك تذكر كلمة الآية ، ويراد بها : الآية التكوينية فى الأنفس والآفاق،فى الأرض وفى السماء،فى العالم العلوى وفى العالم السفلى﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنفُسِكُمْ ، أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات:٢٠ ، ٢١] ، ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] ولذلك نجد فى القرآن كثيرًا ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ ﴾ (١) ، لقوم يعقلون أو لقوم يتفكرون إلى آخره من الآيات الكونية ، التى تدل على قدرة الله تعالى ووحدانيته وتدبيره وحكمته وعظمته .

وهناك الآية بمعنى المعجزة التى تدل على صدق الرسول أىّ رسول ، حينما يكذبه قومه ويقولون : ائتنا بآية دل على أنك رسول الله ، وتدل على أنك لا تمثل نفسك وإنما تمثل الإرادة الإلهية ، وقد أنزل الله على رسله آيات تدل على صدقهم مثل عصا موسى وخروج يده من جيبه ﴿ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى ﴾[طه : ٢٢] .

وهناك الآية بمعنى الآية التنزيلية الآية المتلوة المسموعة المقروءة مثل آيات القرآن الكريم ، ومنها هذه الكلمة التى معنا ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ (٢)

---

(١) وردت ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ ﴾ بهذه الصيغة فى القرآن الكريم خمسًا وعشرين مرة واختلفت نهاياتها فجاءت يؤمنون ست مرات ، ويسمعون مرة واحدة ،ويتفكرون أربع مرات ، ويعقلون ثلاث مرات ، ولكل صبار شكور أربع مرات ،وللمتوسمين مرة ، ولأولى النهى مرتين، وإن كنا لمبتلين مرة واحدة ، وللعالمين مرة ، وأفلايسمعون مرة واحدة ، فى سبع عشرة سورة .

(٢) وردت صيغة ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ فى القرآن سبع مرات ومرة واحدة بلفظ ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ ﴾ .

فالواضح أنها الآية المتلوة ، الآية المنزلة من عند الله ، وكل سورة فى القرآن تشتمل على آيات ، فالسورة مجموعة من الآيات لها بداية ولها ختام ، حددت بتحديد رسول الله ﷺ لها ، أى بالتوقيف ، ولذلك عرف أن القرآن الكريم مائة وأربع عشرة سورة ، والآية لفظة أو أكثر دلت على معنى معين ، وعرفت بدايتها وعرف ختامها بالتوقيف أيضًا ، وأقلها كلمة مثل قوله تعالى : ﴿ مُدْهَامَّتَانِ ﴾ [الرحمن : ٦٤] آية فى كلمة واحدة ، وبعضهم جعل مثل قوله تعالى : ﴿ والفجر ﴾ [الفجر : ١] وقوله : ﴿ وَالضُّحَى ﴾ [الضحى : ١] آية فى كلمة واحدة ، والصحيح أنها آية فى كلمتين فواو القسم كلمة والفجر كلمة ، والضحى كلمة ، باعتبار تقسيم النحويين للكلمة أنها اسم وفعل وحرف .

معنى الكتاب فى الآية :

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ والكتاب هنا هو القرآن الكريم ، أو السورة من القرآن ، فمن الممكن أن تكون إشارة إلى السورة نفسها أو إلى القرآن والسورة دالة عليه ، وكنت قد أشرت فى المقدمة إلى أن كلمة الكتاب تذكر ويراد بها معان عدة ، فقد يراد بها القرآن كقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة : ٢] وقد يراد بها التوراة والإنجيل مثل ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ [1] ويراد بها أحيانًا التوراة فقط ﴿ وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ [الإسراء : ٢] ويراد بها أحيانًا اللوح المحفوظ : ﴿ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً ﴾ [الأحزاب : ٦] وأحيانًا يراد بها الكتاب المدونة فيه الأعمال : ﴿ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ [الإسراء : ١٤] ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ ﴾ [الكهف : ٤٩] ، وأحيانا يراد بها ما أنزله الله على رسله ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾ [الحديد : ٢٥] وأحيانًا يراد بها المكتوب : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٧٩] أو مصدر

---

(١) ورد هذا النداء ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ﴾ اثنتى عشرة مرة .

بمعنى المكاتبة ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم ﴾ [النور : ٣٣] أىْ المكاتبة بالنسبة للأرقاء ، فالسياق هو الذى يحدد المعنى .

والسياق فى هذه الآية ينطق بأن الكتاب هو القرآن ، وكلمة « الكتاب » بهذا التعريف تفيد الحصر . يقول المفسرون والبلاغيون :كأنه حصر الكتاب فى القرآن أى كأن هذا هو الكتاب ولا كتاب غيره ، كما تقول : هذا هو الرجل كأنك نفيت الرجولة عمن عداه ، أو تقول : شوقى الشاعر أى كأنه ليس هناك شاعر غيره ، فهذا نوع من الحصر ، حصر صفة الكمال فى هذا الشىء وكأنها نُفيَتْ عن غيره،وذلك أن أى كتاب بعد ذلك إما كتاب وضعى من وضع البشر ، وهذا لا يرقى إلى مستوى كتاب أنزله الله ، وإما كتاب منزل من الله سبحانه وتعالى ، وهذه حرفت وبدلت ، فلم يبق كتاب إلا كتاب الله عز وجل القرآن الكريم ، وكل الكتب قبله حرِّفت تحريفًا لفظيا وتحريفًا معنويًّا ، وأضاعها أهلها بعد أن استحفظوا عليها فلم يحفظوها ، أما القرآن فإن الله هو الذى تولى حفظه ولذلك فهو الكتاب ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ . ثم إن القرآن وحده هو من بين الكتب الإلٰهية : الكتاب المعجز ، فلم ينزل الله كتابا معجزًا يتحدى به البشر غير هذا القرآن .

القرآن المنزل :

﴿ وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ﴾ هو القرآن أيضًا الذى أنزل على محمد ﷺ ، وعبر عنه بالذى أنزل ، ولم يقل : القرآن هو الحق ، أو هذا الكتاب هو الحق ؛ لأنه أراد أن يصفه بصفة لها تأثيرها فى إثبات الخبر « الحقّية » وهذه الصفة هى أنه منزل من رب محمد ﷺ ، فهو كتاب جاء من علو ، من فوق سبع سموات ، من الله سبحانه وتعالى ، إلى محمد ﷺ ، لم يصعد إليه محمد ﷺ وإنما أنزل إليه ، وهذا يدل على أن النبوة لا تنال بالكسب إنما توهب للناس هبة كما قال الناظم فى التوحيد :

ولم تكن نبوة مكتسبة　　　وإن رقى فى الخير أعلى عقبة

فالنبوة لا تكتسب إنما تصطفى ، ولذلك أنزل الله القرآن إلى محمد ﷺ ٠

ثم تبين هذه العبارة : أن القرآن ليس كلاما نابعا من الأرض ، ولكنه وحيٌ نازل من السماء ، من عند الرب تبارك وتعالى ٠

﴿ وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ﴾ ونرى هنا كيف يستعمل القرآن الكريم صفة الربوبية ، وقد وردت فى القرآن مئات المرات بصيغ مختلفة ، رب العالمين ،ورب كل شيء ،وربك ،وربكم ،وربنا ،وربه ،وكلمة (رَّبِّكَ) وحدها ذكرت فى القرآن الكريم مائتين واثنتين وأربعين مرة بعضها ليس خطابًا لله سبحانه وتعالى مثل ما جاء فى سورة يوسف ﴿ اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ ﴾[يوسف :٤٢] و ﴿ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ ﴾[يوسف : ٥٠] أما ما عدا هذين الموضعين فهى لله سبحانه وتعالى ، ومعظمها خطاب لرسول الله ﷺ وبقيتها وردت فى قصص الأنبياء كقوله : ﴿ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ ﴾[البقرة : ٦١] وقوله : ﴿ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴾[البقرة : ٦٩] وقوله : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً ﴾[المائدة : ١١٢] وغير ذلك ٠

بين كلمة الرب فى القرآن وكلمة الأب فى الإنجيل :

وكلمة الرب تفيد معنى التربية والرعاية والتعهد والترقية فى مدارج الكمال ، يقول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُم ﴾[البقرة : ٢١] أى الذى يربيكم ويرعاكم ويتعهدكم بفضله وعنايته وإمداده ، ويرقيكم فى مدارج فضله وكماله لتبلغوا أقصى ما يمكنكم من الكمال المقدر لأمثالكم ، وليست كما قال بعض النصارى للأستاذ الإمام محمد عبده وذكر له بعض الفرنسيين وقال له : القرآن يتحدث إلى الناس دائمًا بلغة القهر : أنه صاحب السلطان القاهر وصاحب الجبروت وصاحب الكبرياء ، أما الإنجيل فيتحدث للناس على أن الله تعالى هو « الأب » وكلمة الأب تعنى العطف والرحمة ، هذا مع أن كلمة « الرب » أعظم وأبلغ وأعمق من كلمة الأب ، فكلمة الأب قد تكون فيها شبهة

الولادة ، والله لم يلد ولم يـولد ، هـذا من ناحيـة ، ومن ناحية أخرى فكثيراً ما تكون علاقة الأب بابنه علاقة الحاجة ، فالأب يحتاج إلى ذرية فينجب ، وأحيانًا تدفعه إلى ذلك الشهوة ، كما قال ذلك المعرى وغيره : إن شهوة آبائنا هى التى جلبت علينا النكد فى حياتنا . أما الله سبحانه وتعالى فهو يخلق الناس دون حاجة إليهم ، يخلقهم بفضله ويرعاهم بفضله ، فنعمة الإيجاد والإمداد من الله ابتداء ، فهو الرب الأعلى الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، والذى أسبغ على الإنسان نعمه ظاهرة وباطنة .

لقد رأينا بعض الآباء يهجر أبناءه أو يتركهم ، بل رأينا منهم من يقتل أبناءه من إملاق واقع أو خشـية إملاق متوقع ، كما ذكر القرآن وسجل ذلك على العـرب فى جاهليتهـم : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : ١٤٠] .

أما علاقة الله تعالى بعباده فهى علاقة البر والرحمة التى ليس وراءها منفعة ولا حاجة ولا شهوة ، ولذلك كان الله تعالى أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، بل هو أبرّ بهم من أنفسهم .

قد يسىء الإنسان إلى أبيه مرة ، فإذا ندم على ذلك فقد يتعب أشد التعب فى استرضاء أبيه ، وقد عرفت بعض الأبناء أساءوا إلى آبائهم وندموا ، وأرادوا أن يحسنوا إليهم ، فظلوا سنين ولم يستطيعوا أن يحصلوا على رضا آبائهم ، أما الله تعالى فإنك تسىء العلاقة معه وتذنب فى حقـه ، وتفرط فى جنبه ، فإذا قلت : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣] فتح لك الباب على مصـراعيه ، ولم تجد على بابه حاجبًا ولا بوابًا ، فالله أبرّ بك من نفسـك ، وأرحـم بك مـن أبـويك ، وهذا هو الرب ﴿ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾[الرعد : ١] .

كلمة (الحق) فى القرآن :

و « الحق » كلمة من الكلمات القرآنية التى شاعت فى القرآن كله مكيّه ومدنيّه ، وقد وردت معرفة بالألف واللام مائة وخمسًا وثمانين مرة فى القرآن كله (١) ، ومعناها من « حَقّ » أى ثبت ووقع ، فأصل الحق هو الثابت الواقع الصحيح ، وكلما كان الشىء أكثر ثبوتًا وأبعد عن التغير ،كان أقرب إلى ماهية الحق ، ولذلك كان الحق بإطلاق هو الله تبارك وتعالى ، فهو الحق الذى لا يعتريه باطل كما قال عز وجل ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ [لقمان : ٣٠] .

ومن غابت عنه هذه الحقيقة فى الدنيا فسوف تتكشف له فى الدار الآخرة ﴿ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ [النور:٢٥] وما جاء من عند الله فهو حق ، ولذلك كان القرآن حقًّا :﴿ وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقّ ﴾ [الرعد : ١] فالحق أطلق فى القرآن على القرآن نفسه كما فى هذه السورة،وأطلق على الإسلام دين الحق ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ﴾ [التوبة : ٣٣ ، الفتح : ٢٨ ، الصف:٩] وأطلق على الساعة : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَق ﴾ [الشورى : ١٨] لأنها ثابتة وواقعة ولا يمكن أن تتخلف وإن كنا لا نعلم موعدها .

والقرآن حق من نواحى عدة : حق من ناحية مُنْزِله ، لأنه من عند الله الحق ، وحق من ناحية غايته ، لأنه كتاب يهدى إلى الحق ، كما اعترف بذلك الجنّ أنفسهم حينما استمعوا إليه فرجعوا إلى قومهم منذرين ﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأحقاف : ٣٠] وحق من ناحية مضمونه ومحتواه ، فكل

---

(١) وردت لفظة الحق معرفة بأل ومجردة وغير مجردة من حروف الجر وغيرها وعلى معان مختلفة مائة وأربعًا وتسعين مرة (١٩٤) انظر محمد فؤاد عبد الباقى المعجم المفهرس ص ٢٠٨ وما بعدها .

ما فيه حق . أخباره حـق ؛ لأنها لا تتخلف ، ولأنها الصدق الذى لا يشوبه كذب . وأحكامه حق ؛ لأنها العدل الذى لا يشوبه ظلم ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ﴾ [الأنعام : ١١٥] صدقًا فى الأخبار وعدلاً فى الأحكام . لذا قال تعالى : ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ [الإسراء : ١٠٥] .

القرآن إذن كله حق بل هو الحق ، والتعبير الذى معنا يقول ﴿ وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ﴾ [الرعد : ١] ، وأهل العربية يقولون : إن هذا التعبير يفيد الحصر ، فركنا الإسناد أو المسند إليه والمسند أو المبتدأ والخبر - كما يقول البلاغيون - إذا كانا معرفين أفادا الحصر - حصر الخبر فى المبتدأ - ، والمسند إليه هنا أو المبتدأ هو « الذى » فى قـوله تعـالى : ﴿ وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ﴾ وهو اسم موصول معرفة ، والمسند أو الخبر هو « الحق » وهو معرفة أيضًا ، فكأننا حصرنا الحق فى القرآن ، فهو الحق ولا حق غيره ، كما نقول شوقى الشاعر أى لا شاعر غيره [1] ومعنى حصر الحق فى القرآن - كتاب الله عز وجل - أى لا يوجد كتاب غيره دينى أو دنيوى يوصف بأنه الحق ، فهو الحق المصفى الذى لا شائبة فيه كما عبر القرآن ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ ، تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] .

الأكثرية لا تؤمن :

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الرعد : ١] لكن حرف استدراك - كما يقول النحويون - والاستدراك رفع شىء توهم ثبوته ، كأن تقول : « زيد شجاع ولكنه بخيل » فالغالب أن الشجاعة والكرم متلازمان ، فكيف يجود الإنسان

---

(١) هو أحمد شوقى بن على بن أحمد شوقى لقب بأمير الشعراء فى العصر الحديث ولد عام ١٨٦٨ م بالقاهرة نشأ وترعرع فى القصر الملكى المصرى وله أصول تركية ، أرسله الخديوى توفيق إلى فرنسا فأكمل دراسة الحقوق واطلع على الأدب الفرنسى وعين رئيسًا للقلم الافرنجى فى ديوان الخديوى عباس حلمى واختير من بين أعضاء مجلس الشيوخ إلى أن توفى عام ١٩٣٢ م تناول شعره شتى الموضوعات وجرى على كل لسان فى العالم العربى والإسلامى ، وله آثار منها ديوانه الشوقيات فى أربعة أجزاء .

بنفسه ،والجود بالنفس أقصى غايات الجود ،ولا يجود بماله ؟ فالذى يتوهم أنه كما ثبتت له الشجاعة يثبت له الجود والكرم والسخاء ، فتأتى «لكنّ» لرفع هذا التوهم تقول « ولكنه بخيل » مع شجاعته،فالقرآن حينما قال : ﴿ وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ﴾ كان المتوقع أن يؤمن أكثر الناس به ما دام حقًّا ، بل ما دام هو الحق البين الواضح النير المضىء الذى دلت عليه كل الشواهد ، وشهدت به الفطر السليمة ، وشهدت به العقول الرشيدة ، وشهد به المشركون أنفسهم فى بعض الأوقات حينما تركوا أنفسهم على سجيتها بأنه الحق « وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يعلى [١] وشهد الجن بأنه : ﴿ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الأحقاف:٣٠] وشهد له الذين آمنوا ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾[البقرة:٢٦] وشهد له المنصفون من أهل الكتاب : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾[البقرة : ١٤٤] وشهد أولو العلم بأنه الحق : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج : ٥٤] ، ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِى إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾[سبأ : ٦] شهد كل هؤلاء لهذا الكتاب بأنه الحق ، ومع هذا لم يؤمن أكثر الناس ، وهذا أمر مؤسف : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ .

إن القرآن كتاب عظيم ، كتاب عالمى ، فلم يقل : أكثر العرب أو أكثر أهل الشرق ، ولكن قال ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ ﴾ وكلمة (الناس) ذكرت فى القرآن الكريم مائتين وأربعين مرة ، وأنا معنّى بذكر أعداد الكلمات القرآنية ، لأنها (مؤشرات) تشير إلى محاور اهتمام القرآن ، وما هى الأشياء التى يعنى بها

(١) قال الإمام العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء المجلد الأول ص ٢٧٤ حديث خالد بن عقبة الذى جاء إلى رسول الله ﷺ وقال اقرأ علىَّ القرآن فقرأ عليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِى الْقُرْبَى ﴾[النحل : ٩٠] فقال : أعد فقال : إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمغدق وإن أعلاه لمثمر وما يقول هذا بشر » ما ذكره ابن عبد البر فى الاستيعاب بغير إسناد ورواه البيهقى فى الشعب من حديث ابن عباس بسند جيد إلا أنه قال « الوليد بن المغيرة » بدل خالد ابن عقبة وكذا ذكر ابن إسحاق فى السيرة بنحوه .

ويكررها ، لأن تكرار الأشياء فى القرآن دليل على أنها من مهمات القرآن ، ومن أهدافه تثبيتُها والتعريف بها ، ولفت الأنظار والقلوب إليها .

لماذا لا يؤمن أكثر الناس ؟ :

﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ رغم وضوح الحق وسطوع شمسه لا يؤمنون ، وهذا مؤسف حقًا ، وقد سجله القرآن على أكثرية الناس : أنهم لا يؤمنون ، وأنهم لا يعلمون ،وأنهم لا يشكرون ،وأنهم لا يعقلون ، ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] ، ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١١٦] ، وذم القرآن لهذه الأكثرية غير المؤمنة يدلنا على شيء مهم ، وهو أن الإيمان أمر اختيارى ، أى أن الإنسان فى استطاعته أن يؤمن ،كما أن فى استطاعته أن يكفر ، ولو كان الإيمان أمرًا إجباريًّا اضطراريًّا ما ذم الله الذين لا يؤمنون ، وما قال الله تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الانشقاق : ٢٠] ، ﴿ وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ ﴾[الحديد:٨] ، ﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [النساء:٣٩] ، هذه النداءات وهذه الإنكارات تدل على أن الإيمان أمر اختيارى ، وأول ما يطلب من الإنسان مما يكلف به العقلاء أن يؤمن بالله عز وجل .

والإيمان هو التصديق والإذعان ، وليس مجرد معرفة الحق ، فكثير من الناس عرفوا الحق ولم يؤمنوا ،وهذا هو ما نلحظه فعلاً ، وسجله القرآن نفسه ، وعرفناه من وقائع التاريخ ، فكم من أناس عرفوا الحق واضحًا لائحا بيّنًا أمامهم تلوح أنواره ، ومع هذا لم يستجيبوا له، ولم يذعنوا له،ولم ينقادوا له لأسباب شتى .

منها : الكبر والعلو كالذين قال الله فيهم : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل : ١٤] وهكذا قال الله تعالى عن فرعون وقومه : ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ [المؤمنون : ٤٧] هو العلو والاستكبار فى الأرض الذى يمنع من الإيمان .

ومما يمنعه أيضًا الحسد ، قال تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ

يَرُدُّونَكُم مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة : ١٠٩] ، والعصبية أحيانًا فاليهود من بنى إسرائيل كانوا يعرفون أن محمداً ﷺ نبى وكتبهم تبشر به ، وعلاماته واضحة ، ولكنهم كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ﴾ [البقرة : ٩١] أى نؤمن بالكتاب الذى أنزل على بنى إسرائيل . أما ما ينزل على بنى إسماعيل فلا نؤمن به ، وهذه عصبية كما قال جماعة المتنبئين والمرتدين « كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر » فاليهود ﴿ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ [البقرة : ٩١] ، عصبية كما قال بعض مشركى قريش أبو جهل وغيره " : « تنافسنا نحن وبنو هاشم ، أطعموا فأطعمنا ، وسقوا فسقينا وكذا وكذا . . حتى إذا تحاذينا على الركب وأصبحنا كفرسى رهان قالوا : منا نبى يوحى إليه ؟! » وهذه العصبية هى التى جعلتهم يكفرون .

ومما يمنع من الإيمان أيضًا التقليد الأعمى ، فحينما نقرأ فى رسالات الأنبياء وقصصهم نجد : ﴿ أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ [هود : ٦٢] ، ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٣] ، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠] ، وهذا التقليد الأعمى للآباء والأجداد حينًا أو للسادة والكبراء حينًا : ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ﴾ [الأحزاب : ٦٧] يمنع من الإيمان .

كما يمنع منه حب الدنيا أحيانًا ، فالإنسان قد ينتفع من وراء الكفر مثل كثير من الأحبار والرهبان الذين كانوا يأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله ، ومن حب الدنيا : حب الملك ، فقد رأينا هرقل حينما جاءه كتاب رسول الله ﷺ وأراد أن يستوثق من هذا النبى ، وكان يتوقع ظهور نبى ، فجاء بأبى سفيان ومن معه – وهو من بلاد العرب ومن نفس بلدة محمد ﷺ – وسأله أسئلة فى غاية الدقة والروعة ، ليعرف منه : أهو صادق أم كاذب ، ومن

قرأ هذا الحديث فى أوائل صحيح البخارى عجب من أسئلة هذا الرجل ، وقد عرف من هذه الأسئلة أنه على حق وجمع رجال دينه ورجال كهنوته وعرض عليهم الأمر ، فحاصوا حيصة حمر الوحش وهاجوا عليه ، فحينما وجد أن الأمر سيتفلت منه ويفلت الزمام من يده تراجع ، وقال : إنما أردت أن أختبر ثباتكم على دينكم ، وغلَّب حب ملكه على الإسلام فذهب بإثمه وإثم رعيته .

وهناك عوامل شتى تجعل الناس لا يؤمنون بالحق والحق أمامهم بيِّن المعالم ، واضح القسمات : ﴿ وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[الرعد : ١] .

وقفتان فى تفسير الآية :

وأحب قبل أن أنتقل إلى الآية الثانية أن أذكر أمرين يتعلقان بالآية الأولى ، الأمر الأول : أثاره بعض المفسرين القدامى ، والأمر الثانى : أثاره بعض المعاصرين ، وكلا الأمرين يتعلق بالأحكام والفقه ، وهذا يدلنا على أن الآيات التى تتعلق بالأحكام ليست هى الآيات المحصورة فى خمسمائة آية أو نحو ذلك وتتحدث عنها كتب تفسير آيات الأحكام .

هل الآية تنفى القياس ؟

فقد وقف بعض المفسرين عند قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ﴾ وقالوا هذه الآية تنفى القياس والاستدلال به ، واعتباره أصلاً يعول عليه ويرجع إليه فى الأحكام لأن الآية بهذه الصيغة حصرت الحق فيما أنزل من عند ربنا عز وجل ، والقياس ليس أصلاً منزلاً وإنما هو رأى اجتهادى من أهل الاجتهاد ، فإذن قد خرج عن دائرة الحق ، هكذا قال من قال من المفسرين الذين يهتمون بأمور الفقه فى الآيات ، والواقع أن هذا الاستدلال لا يستقيم ولا يُسلَّم لهؤلاء ، حتى وإن قلنا : إن الحصر هنا حصر حقيقى ، مع أنه قد يقال إنه حصر إضافى وليس حقيقيًّا ، لأننا نقول إن الذى أنزل من الله سبحانه وتعالى - وهو القرآن- يدل على القياس كما يدل على غيره بالتبع ، فالقياس جاء ضمن آيات

القرآن من مثل : ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الأَبْصَارَ ﴾ [الحشر : ٢] والاعتبار الانتقال من حادثة إلى حادثة لتعطى الثانية حكـم الأولى ، من إعطاء النظير حكم نظيره ، إلى آخر ما استدل به أهل القياس من القرآن الكريم ، فالقياس إذن متضمن فى القرآن ،وهكذا يقال فى نفس الأدلة الأخرى مثل الإجماع ، ومثل السنة النبوية نفسها فهذا يقال فيها أيضًا فقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ﴾ هو القرآن ، والسنة ليست منزلة فهل هى خالية عن الحق ؟ نقول : لا ، لأن القرآن دل على السنة ، كما دل على الإجماع . كما دل على القياس ، حينما قال الله تعـالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ﴾ [الحشر : ٧] ، وحينما قال : ﴿ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ [النور : ٥٤] ، وحينما قال : ﴿ مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾ [النساء : ٨٠] ، فاعتبر هذا أيضًا من الحق الذى جاء به القرآن .

على أن هناك أمرًا لم يذكره المفسرون القدامى ، وهو أن ما أنزل الله تعالى أمران ، أنزل الله تعالى الكتاب ، وأنزل معه الميزان ، كما قال تعالى : ﴿ اللهُ الَّذِى أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشورى : ١٧] وقال أيضًا : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾[الحديد : ٢٥] .

فما الميزان إذن ؟ ليس الميزان هو ما توزن به الخضروات والفواكه وهذه الأشياء، فالأمر أكبر من هذا ، فالميزان الذى قرنه الله بالكتاب : ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ ﴾ ، وقرنه برفع السماء فى سورة الرحمن : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلاَّ تَطْغَوْا فِى الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾[الرحمن : ٧ ، ٨ ، ٩] ليس ميزانًا ماديًا حسيًا من حديد أو من ألمنيوم أو غير ذلك ، ولكنه ميزان معنوى توزن به الأفكار والأعمال والقيم ، فهذا هو الميزان الذى يدخل فيه القياس ، وكل نظر صحيح يقوم على اعتبار عقلي صحيح ، فهو كما يقول العلامة ابن القيم « هما فى الإنزال أخوان » الكتاب

والميزان ، فعلى هذا يدخل القياس ضمن ما أنزل الله ، لأن الله أنزل الكتاب بالحق ، وأنزل الميزان بالحق أيضًا ،وهذه هي القضية الأولى .

هل تدل الآية وأمثالها على إلغاء رأى الأكثرية ؟

أما القضية الثانية : من قضايا الأحكام الفقهية التي أثيرت في عصرنا حول قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ ومثلها : ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : ٢٤٣ ، يوسف : ٣٨ ، غافر : ٦١] ، ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [١] إلى آخر ما جاء من هذا النوع ، فقد استدل بعض الناس بمثل هذه الآيات على أن الأكثرية لا اعتبار لها في أي أمر من الأمور ، وعلى هذا أنكر من أنكر نظام التصويت بالأغلبية في القضايا المصلحية والقضايا الاجتهادية ، وقال من قال : هذا نظام غربي ، هذا نظام مستورد ، هذا نظام ديمقراطي لا نعرفه ولا يعرفنا ! .

وهكذا بهذه السهولة وهذه البساطة ردّ أولئك المتسرعون هذا النظام الذي يقوم على اعتبار رأى الأغلبية بمثل هذه الآيات ، وهذا استدلال خطأ ، فالمشكل ليس في الاستدلال بالقرآن والسنة ، فكثير من الناس يستدلون بالقرآن ويستدلون بالحديث ، والحديث الصحيح ، ولكن كثيرًا ما يوضع النص في غير موضعه ، أن يستدل بالنص على ما لم يسق له النص ، وهنا الآفة الكبيرة : وضع النصوص في غير موضعها ،وأحيانًا يكون هذا عن غفلة ، وأحيانًا يكون عن عمد وسوء نية ، وهذا ما نسميه (تحريف الكلم عن مواضعه) .

فالآيات التي ذمت أكثرية الذين لا يؤمنون أو لا يشكرون أولا يعلمون ، جاءت في قضايا العقيدة ، ولكن في القضايا التي تتعلق بمصالح الناس وتتعلق بالأمور الاجتهادية التي تتعدد فيها وجهات النظر ما بين مؤيد ومعارض ، أنختار هذا رئيساً أم نختار ذاك ؟ زيدًا أم عمرًا أم بكرًا ؟

---

(١) وردت هذه الصيغة اثنتي عشرة مرة منها بعض آية في ١٨٧ الأعراف ، ٢١ ، ٤٠ ، ٦٨ يوسف ، ٣٨ النحل وغير ذلك .

كيف نفضل إذا تساووا فى المزايا أو كان لكل منهم مزية تقابل مزية الآخر ؟ .

ليس لنا إلا أن نرجح بالأغلبية ، وإذا كانت مصلحة معينة مختلف عليها : أندخل الحرب أم لا ندخلها ؟ أو كانت قضية من القضايا التى يختلف فيها الناس ، فلابد من ترجيح ، وإلا فلن نستطيع أن نرجّح بغير مرجح ، فليست كل القضايا يحكم فيها النص كما يظن بعض الناس ، فهناك أشياء سكت عنها الكتاب والسنة وهى منطقة العفو التى جاءت تسميتها فى الحديث هكذا « ما أحل الله فى كتابه فهو حلال وما حرم فهو حرام وما سكت عنه فهو عفو فاقبلوا من الله عافيته فإن الله لم يكن لينسى شيئًا »[1] من حديث أبى الدرداء ، وحديث « سكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها » الذى رواه الدارقطنى وهو من أحاديث الأربعين النووية أيضًا[2] .

هذه المنطقة التى سكتت فيها النصوص أو اختلفت فيها النصوص ، وتفاوتت فيها أنظار أهل الاجتهاد ، وفيها قضايا المصالح ، وما أكثرها ، حتى إنك لو رجعت إلى الفنيين فيها لوجدتهم يختلفون ، وقد رأينا الصحابة - رضوان الله عليهم - يختلفون فى بعض القضايا النظرية ، ويختلفون أيضًا فى القضايا العملية كقضية أسرى بدر ، فقد كان منهم من يميل إلى الشدة مثل عمر ، ومنهم من يميل إلى اللين ، مثل أبى بكر، فماذا نصنع فى مثل هذا ؟ .. بعض الناس يقول : نحن مع الحق ، ولكن ما هو الحق فى هذه القضايا ؟ ، ليس هناك شىء اسمه الحق فى القضايا الاجتهادية ، فكل واحد يرى أن رأيه هو الحق وهو الصواب ، وهنا نقول : رأى الاثنين أقرب إلى الصواب من رأى الفرد ،ورأى الثلاثة أقرب إلى الصواب من رأى الاثنين ، وفى الفقه نقول : هذا الرأى أولى

---

(١) حديث مرفوع خرجه البزار فى مسنده والحاكم من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه وقال الحاكم : صحيح الإسناد وقال البزار : إسناده صالح ، وخرجه الطبرانى والدارقطنى والترمذى وابن ماجه من وجوه أخرى .

(٢) رواه الدارقطنى وغيره عن أبى ثعلبة الخشنى (جرثوم بن ناشر) ، وقال النووى : حديث حسن .

وأرجح ؛ لأنه رأى الجمهور إذا لم نجد مرجحًا آخر ، والإمام الغزالى ذهب فى بعض كتبه وهو « الاقتصاد فى الاعتقاد » إلى أن الترجيح فى بعض الأحيان يكون بالكثرة ،وسيدنا عمررضى الله عنه قعّد هذه القاعدة ،وقد رأينا النبى ﷺ حينما استشار أبا بكر وعمر وسأل الأسرى قال : «لو اتفقتما على رأى ما خالفتكما » والمعنى أنهما سيكونان صوتين والنبى ﷺ صوت واحد ، وفى غزوة أحد كان النبى ﷺ وكبار الصحابة يرون عدم الخروج إلى القوم والبقاء فى المدينة يحاربون من داخلها ، ولكن شباب الصحابة – وهو الأكثرية – أبوا إلا أن يخرجوا لقتال الأعداء ، ووجدوا أنه لا يليق بهم أن يظلوا فى المدينة حتى يدخل عليهم هؤلاء ، فنزل الرسول ﷺ على رأيهم ، صحيح أنه لم يَعُد ، لأن الأمر كان واضحًا ، والعَدّ جاء فى العدد المحدود ، وهو ما صنعه سيدنا عمر حينما جعل الشورى فى ستة من كبار الصحابة الذين تجتمع الأمة على واحد منهم إذا وافقوا عليه ، وهؤلاء الستة ممن توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ، ومن العشرة المبشرين بالجنة ومن السابقين من المهاجرين ، فوضع عمر نظامًا لهم : إذا اختار خمسة واحداً منهم فيجب أن يخضع الواحد للخمسة ، وإن رفض وتمرد تضرب عنقه ، وإذا أربعة اختاروا وعارض اثنان فيؤخذ باختيار الأربعة ، وإذا اختار ثلاثة واحداً ، وثلاثة واحداًوتساوت الكفتان ، أخذ بمرجح من الخارج وهو عبد الله بن عمر ، فإذا لم يقبلوا عبد الله بن عمر ، فيؤخذ باختيار الثلاثة الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، فاعتبر لصوت عبد الرحمن ابن عوف ميزة ترجيحية كأن صوته بصوتين وهذا ما جعل عبد الرحمن بن عوف ينزع نفسه من هذا الأمر ، ويقول : لا أريده حتى يستطيع أن يجمع الناس على أمر ، وهذه العملية كما نرى عملية تصويت سنها سيدنا عمر ، وقد أمرنا أن نتبع سنة الراشدين « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ »[١] .

فهذا هو النظام الإسلامى وقد جاء فى الحديث « اتباع السواد الأعظم » وهذا الحديث حسّنه بعض العلماء وصححه بعضهم وورد من عدة طرق . وليس

---

(١) رواه أبو داود والترمذى وقال : حديث حسن صحيح ، وخرجه الإمام أحمد وابن ماجة وغيرهما من طرق أخرى .

هناك دليل للذين قالوا : إن الأكثرية لا معنى لها ولا يقوم عليها أمر ؛ لأن الله ذم الأكثرية ، فهذا فى موضع وهذا فى موضع آخر،ولا تخلط الأمور بعضها ببعض .

والقول بأن هذا النظام مستورد لا يسلم ؛ لأن هذا النظام أساسه إسلامى كما رأينا على أنه لا مانع من استيراد بعض الأمور النافعة إذا لم يكن الإسلام ينكرها ، وإذا لم تخالف مبدءا من مبادىء الإسلام لا فى عقيدته ولا فى شريعته ولا فى أخلاقه ولا فى قيمه ، ولا فى غير ذلك ، فلا مانع من الاقتباس ، وقد اقتبس المسلمون الأوائل ما ينفعهم ، إذا كان فيما نقتبس مصلحتنا وليس فيه مخالفة لشريعتنا ، وفى هذه الحالة ندخله ضمن نظامنا الإسلامى فيصبح جزءا من النظام الإسلامى ، ويفقد جنسيته الأولى ، ويلتحم بالنظام الإسلامى ، ويأخذ فى هذه الحالة الصبغة الإسلامية والروح الإسلامية [1] .

* * *

(١) انظر : فتوى الشيخ القرضاوى عن (الإسلام والديمقراطية) فى الجزء الثانى من كتابه (فتاوى معاصرة) وانظر أيضا كتابه : « من فقه الدولة فى الإسلام » .

﴿ اللهُ الَّذى رَفَعَ السَّمَوَات بغَيْر عَمَد تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ [الرعد : ٢] .

عناية القرآن بالكون :

يقول بعض علماء الإسلام ، إن هناك مصحفين . أحدهما ناطق . والآخر صامت . فالناطق هو القرآن ، والصامت هو الكون .

المصحف الأول – القرآن – آياته مقروءة مسموعة ، والمصحف الثانى – الكون – آياته منظورة مشهودة . وكلا المصحفين يدل على الله ويهدى ويشد العقول والقلوب والأبصار والبصائر إلى الله .

القرآن يهدى إلى الله بما اشتمل عليه من آيات معجزة بينت الحق من الباطل وميزت الهدى من الضلال . والكون كذلك يهدى إلى الله بكل ما فيه . أرضه وسمائه ، إنسانه وحيوانه . نباته وجماده . من الذرة الصغيرة الصغيرة إلى المجرة الكبيرة الكبيرة . ويأخذ بالعقول والقلوب لتقف بين يدى الله الكبير المتعال .

كل ما فى هذا الكون دال على الله تبارك وتعالى . كما يقول ذلك القائل :

تأمل سطور الكائنات فإنها　　　من الملأ الأعلى إليك رسائل
وقد خُطَّ فيها لو تأملت سطرها　　　ألا كل شيء ما خلا الله باطل

ولهذا نري الآية الأولى حينما تحدثت عن المصحف الناطق . تحدثت الآية الثانية عن المصحف الصامت عن الكون . وبدأت بالسماء أعظم ما فى هذا الكون . ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر : ٥٧] ، وخلق السموات أكبر من خلق الأرض لهذا بدأ الله بها .

الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها . الله اسم للذات الإلٓهية . علم

على الذات المقدسة . ذات الخالق الأعلى الذى خلق فسوى والذى قدّر فهدى . علم على الله فى هذه اللغة العربية .وقد ذكرت في القرآن الكريم كله الفين وستمائة وسبعًاوتسعين مرة . كما فى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم على اختلاف تشكيلها بالضم أو بالفتح أو بالكسر . فإذا أضفنا إليها مائة وثلاث عشرة مرة وردت فيها في البسملة . كان المجموع ألفين وثمانمائة وعشر مرات . وهذا لفظ الجلالة صريحًا . فإذا نظرنا إلى أنه يذكر مع صفات أخرى وأفعال . مثل هذه الآية التى معنا ﴿ رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى ، يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ ﴾[الرعد : ٢] ، ومثل آية الكرسى : ﴿ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحيُّ القَيُّومُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] حيث ذكر لفظ الجلالة الله مرة واحدة فيها . وذكر ظاهرًا ومستترًا سبع عشرة مرة خلالها أيضًا على نحو. هو الحى القيوم . والهاء فى ، لا تأخذه ، وفى « له » وفى « عنده »، وفى « إلا بإذنه » وهكذا.فإذا ذكر الله تعالى قريبًا من ثلاثة آلاف مرة . فكيف بذكره تعالى بأسمائه الأخرى وأفعاله وبالضمائر المستترة ؟! إنه الشيء الكثير . وذلك أن هذا القرآن إنما نزل أولاً ليصل الناس بحبل الله . ليقيم هذه الصلة بين الإنسان وربه . فليس هناك فجوة ولا جفوة بين الله تعالى وعباده . وهذا من أعاجيب هذا القرآن ، فلا يعرف فضل القرآن إلا من قرأ الكتب الأخرى مثل ما يسمى بالتوراة ، أسفار العهد القديم ، التى لا تكاد تحس بوجود الله تعالى فيها إلا بين الفينة والفينة . فهى مشحونة بالحديث عن بنى إسرائيل . وعن ملك بنى إسرائيل ومجد بنى إسرائيل وأخبار بنى إسرائيل وقبائل بنى إسرائيل وتعداد بنى إسرائيل.أما الله ولقاؤه وحسابه وجزاؤه فشيء بسيط جدًا .

رفع السموات بغير عمد :

إن القرآن حافل بالثناء على الله وبتعظيم الله عز وجل وبتمجيد الله ﴿ اللهُ الَّذى رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ . هذا السقف المرفوع . السقف المحفوظ . هذا البناء الربانى ، من فوقنا ، والسماء فى اللغة هى كل ما علاك ،

حتى السقف يمكن أن يكون سماء كما جاء فى سورة الحج ﴿ مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَّنَ يَنصُرَهُ اللهُ فِى الدُّنْيَا وَالآخرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ [الحج : ١٥] فقوله « بسبب إلى السماء » يعنى بحبل إلى السقف فيخنق نفسه . وهل هذا يريحه وينتهى الأمر؟! .

وتطلق السماء أيضًا على السحاب الذى ينزل الله سبحانه وتعالى منه الماء . وهناك السموات العلى كما جاء فى سورة طه ﴿ تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴾ [طه : ٤] .

وقد ذكرت سموات منكرة خمس مرات . وذكرت السموات معرفة مائة وخمسًا وثمانين مرة [١] . ولكن ما هى السموات ؟ بعض الناس فى عصرنا من المتأولين للقرآن على غير وجهه ممن فتنوا ببعض ما عرفوا من العلم الحديث حاولوا أن يجعلوا السموات السبع تلك الكواكب السيارة المرتبطة بمجموعتنا الشمسية هذه . ومن هؤلاء الشيخ جمال الدين القاسمى فى تفسيره محاسن التأويل . واتجه إلى ذلك أيضًا الشيخ عبد القادر المغربى فى تفسيره جزء تبارك من القرآن . وأنا أعتقد أن السموات السبع شىء أعظم من هذه الكواكب . فقد عرفنا فى عصرنا أن المجموعة الشمسية واحدة من ملايين المجموعات تحتويها المجرة التى نحن جزء منها . وهذه المجرة واحدة من ملايين المجرات الأخرى .

وهذا يدل على أن هذا الكون عظيم لا يعلم سعته إلا الله عز وجل . ونحن نقول حين نرفع من الركوع - كما علمنا رسول الله ﷺ - ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء مابينهما وملء ما شئت من شىء بعد [٢] .

وإذا كان ملك الله عظيمًا . وكانت السموات العلى هى أعظم ما فى هذا

---

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٣٦٤ وما بعدها وقد وردت السماء هكذا مفردة مائة وعشرين مرة فى القرآن الكريم كله حسب المعجم المفهرس أيضاً .

(٢) الحديث رواه مسلم عن على وابن أبى أوفى وأبى سعيد الخدرى وابن عباس رضى الله عنهم جميعًا كما فى الأذكار للنووى ص ٥٢ ، ٥٣ .

الملك بعد العرش والكرسى – وهما فى الجهة الفوقية أيضًا – فلا نستطيع أن نقبل تأويل من تأول السموات السبع بأنها الكواكب السيارة هذه السبعة أو الأفلاك السبعة – كما فى التفاسير القديمة – وأن الكرسى هو الفلك الثامن والعرش هو الفلك التاسع جريًا وراء علم الفلك اليونانى القديم . الذى جاء علم الفلك الحديث وأثبت أن هذا كله خرافات . ولذلك لا ينبغى أن ينشغل بها من يريد أن يفهم كتاب الله عز وجل . ولا ينبغى أن نقع فى مثلها فى عصرنا .

السموات هى هذا الكون العلوى العظيم من فوقنا لا نعرف منه إلا القليل . ترى هل ما نعرفه من هذه الكواكب والنجوم التى تصل إلينا أشعتها بعد ملايين السنين – كما يقول الفلكيون – هل هو السماء الدنيا ؟ والله تعالى يقول : ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ﴾[فصلت : ١٢] ، ويقول﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ﴾ [الصافات : ٦ ، ٧] ، كان هذه الكواكب والنجوم هى زينة السماء الدنيا . وهل بعد هذه السماء الدنيا سموات أخرى لا نعلمها ؟ قد يكون . ولا نخوض فى هذا لأنا لم نؤت من العلم إلا قليلاً . ورحم الله امرأ عرف حده فوقف عنده . ومن سعادة جدك وقوفك عند حدك . ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] .

المهم أن هذه السموات العلى، هذا البناء العظيم، رفعه الله تعالى بغير عمد ترونها . ومعنى رفعها أى خلقها مرفوعة . وليس معناها أنها كانت خفيضة فرفعها . ولكن ابتدأها وأنشأها مرفوعة هكذا .

« بغير عمد » كيف رفعت بغير عمد ؟ . العرب عرفوا الخيام وهذه الخيمة الصغيرة ما كانوا يستطيعون رفعها بغير عمد فى اطرافها وفى وسطها . فكيف بهذه الخيمة الكبرى ؟ . بهذه السموات كيف رفعها الله بغير عمد ترونها ؟ ترى هل النفى هنا للموصوف والصفة معًا ؟ أى ليس هناك عمد بالمرة مرئية أو غير مرئية . أم أن النفى للصفة ؟ وهناك عمد غير مرئية ؟ . وعمد جمع عماد وعمود . فهل هناك أعمدة يقوم عليها هذا البناء العلوى العظيم ولكننا لا نراها ؟ هذا ما يفسره العلم الحديث بأنه القوى الجاذبة التى تمنع تلك الأجرام

العظيمة أن تتصادم أو تتهاوى أو تتساقط . وتحفظ بعضها أن يرتطم ببعض بالجاذبية والقوى الطاردة . فهل هذه القوى هي العمد غير المرئية ؟ يمكن أن يكون هذا فالله هو الذى ﴿ يُمسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا ﴾[فاطر : ٤١] وقد تساءل رائد الفضاء الروسى جاجارين حينما صعد إلى الفضاء ونظر إلى الأرض من بعد فقال : ما أجملها ، من علقها ؟ ، الذى علقها هو الله عز وجل الذى أمسكها أن تزول وتسقط . والسموات أعظم من الأرض وقد رفعها الله بغير عمد ترونها .

استواء الله على عرشه :

ثم استوى على العرش » كيف استوى على العرش ؟ هناك معركة كلامية – لا نريد أن ندخل فيها – بين السلف والخلف فى معنى الاستواء. والمعنى واضح فهمه الصحابة دون أن يسألوا عنه . فالله استوى على عرشه . يدبر الأمر يعنى أمر الملك والملكوت . ينظم هذا الكون . هكذا فهم الصحابة الاستواء على العرش . يعنى انفراد الله سبحانه وتعالى بهذا الملك . وتفرده بالتدبير سبحانه وتعالى من فوق عرشه . وجاء بعد ذلك من جاء . وجعل من هذه القضية معركة بين السلف والخلف . بين من يؤول ومن لا يؤول . ونحن لا نحب فى أمور الغيبيات المتعلقة بالله تبارك وتعالى . أو بالدار الآخرة ، أن نخوض فى تفاصيلها . أو نبحث عن كنهها . بل نقول كما قال السلف: استوى استواء يليق بذاته . ومذهب السلف هو الراجح – عندنا – في هذه القضايا . لان قضايا الألوهية أكبر من عقولنا فلا ينبغى أن نبدد طاقات عقولنا فيما لا تستطيع أن تصل إليه أو تعرف حقيقته . وهى التى لم تصل إلى كل حقائق الوجود المادى بعد . فالعلم يقول إننا لم نعرف من حقائق الكون المادى إلا نسبة ضئيلة (٣ ٪) . والنسبة الكبرى (٩٧ ٪) التى يسمونها (الأعماق السوداء)لا نعرف عنها شيئًا،والله يقول:﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ ﴾[الحاقة : ٣٨ ، ٣٩] وما لا نبصر أكثر . فكيف نطمع أن نعرف الله سبحانه وتعالى ؟! . إننا نؤمن به دون أن نبحث فى التفاصيل أو الكيف . والسلف كانوا يؤمنون بهذا دون تكييف ولا تمثيل كما ورد ذلك عن أم سلمة

وعن ربيعة وعن الإمام مالك حينما سئل عن الاستواء ، فقال : « الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . لأن السؤال عن ذلك يفتح باباً من أبواب الفتنة ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ [آل عمران : ٧] لهذا فنحن نوفر الطاقة العقلية للبحث فيما يفيد . ولا نبحث في هذه الأمور ولا نطيل فيها .
ومن ناحية أخرى فقد اتفق الجميع — سلف وخلف — على أن ذات الله تعالى ليست كسائر الذوات . والمفروض أن نقول : إن صفات الله تعالى ليست كسائر الصفات . وأفعال الله تعالى ليست كسائر الأفعال . فلا نقيس الغائب على الشاهد ؛لأنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[الشورى : ١١] . ثم نحن لا نأمن إذا دخلنا في باب التأويل وخضنا لجته أن نقول على الله بغيرعلم . وإذا سلّمنا كان ذلك أسلم لنا . فلو قال الله سبحانه وتعالى: ماذا قلتم في شأني ؟ نقول : آمنا بماوصفت به نفسك وبما وصفك به رسولك ﷺ . وهكذا نخرج من العقدة . ولكن لو أولنا ربما سئلنا : من أين لكم ما قلتم ؟ كيف قلتم عليَّ ما لا تعلمون ؟ فلا نجد جوابا .

ثم إن الجميع قد اتفقوا على أن مذهب السلف أسلم . ومعنى هذا أن مذهب الخلف الذين أوَّلوا لا يخلو من خطر . والإنسان في باب العقائد لا يعدل بالسلامة شيئًا . ولهذا نترك الدخول في معمعة التأويل ، فهناك أشياء يتكلف تأويلها ، كأن تقول اليد معناها القدرة أو النعمة ، فما معنى ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [سورة ص : ٧٥] على هذا التأويل ؟ لا نجد إلا نوعاً من التكلف المرذول . ثم إن كثيراً من الذين أوّلوا انتهى في أواخر عمره إلى مذهب السلف في عدم التأويل . كإمام الحرمين في رسالته النظامية . والغزالي في كتابه : إلجام العوام عن علم الكلام ، وإمام المؤولين الفخر الرازي الذي دافع عن التأويل وكتب فيه كتباً ثم انتهى في كتابه « أقسام اللذات » إلى قوله: لقد تأملت المناهج الفلسفية والطرق الكلامية فوجدتها لا تشفي عليلاً ولا تروي غليلاً . ووجدت أقرب الطرق طريقة القرآن .

اقرأ في الإثبات ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ [طه : ٥] . واقرأ في النفي ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] . وكذلك الإمام أبو الحسن الأشعري أوَّل في مطلع حياته ثم رجع عن التأويل في كتابه : الإبانة في أصول الديانة . وكتابه مقالات الإسلاميين . وفي رسالته إلى أهل الثغر . وانتهى إلى مذهب الإمام أحمد ، وهذا أقرب إلى الصواب وأبعد عن الخطأ .

ثم إن الذين أوّلوا لابد لهم فى النهاية أن يتفقوا مع الآخرين كما قال الشيخ عبد الوهاب الشعرانى فى بعض كتبه ، إن الذين يؤولون الاستواء بالاستيلاء لابد لهم أن يؤولوا الاستيلاء أيضا . إذ كيف يكون استيلاء الله تبارك وتعالى ؟ ، ويذكرون فى هذا بيتًا من الشعر يقولون إنه منحول :

قد استوى بشرٌ على العراق   من غير سيف ودم مهراق

فهل استواء الله تعالى على عرشه كاستواء بشرٍ على العراق ؟ ، لا يمكن أن يقول ذلك أحد . فهو استيلاء ليس كاستيلاء المخلوقين . وبهذا يتفق الفريقان .

فنحن إذن نأخذ بمذهب السلف ولا نخوض فى لجة التأويل . ومذهب السلف ليس كما يفهمه العوام أو يصوره بعض الغلاة ممن يدّعون السلفية الذين يقول بعضهم : فهذا لا يمكن أن يقوله سلفىّ يعرف معنى السلفية لأن هذا تشبيه،والتشبيه ممنوع . أما السلف فيقولون نثبت لله ما أثبته لنفسه بلا تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل ، كما يقول تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ .

وأحب أن أضيف أننا إذا رجحنا مذهب السلف . فليس معنى هذا أننا نضلل الآخرين ممن أوّلوا أو نكفرهم . فبعضهم من أعلام الأمة ، وما كانوا يقصدون إلاتنزيه الله تبارك وتعالى ، وشرح الإسلام للعقليين من الناس ، فوجهتهم حسنة ونيتهم طيبة . ولا ينبغى أن نرميهم بالكفر أو بالفسوق أو بالإثم . لكن نقول إن مذهب السلف هو الأرجح والأسلم هنا ، رغم مبالغة بعضهم وقوله ليس هناك عرش ولكنه كناية ، كما نقول استوى الحاكم على سرير الملك ولعله لم يجلس عليه قط أو لعله ليس له سرير ولا عرش . فهذه مبالغة مرفوضة . والشيء المؤكد أن هناك عرشًا . وقد ذكره الله تبارك وتعالى فى أكثرمن عشرين آية من كتابه الكريم . وذكر أن له حملة ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾[غافر : ٧] ، وهذا فى الدنيا . وفى الآخرة ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾[الحاقة : ١٧] ﴿ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾[الزمر : ٧٥] ، فهناك عرش حقيقى .. وقد ذهب المحققون من علماء المسلمين ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم إلى أن من اجتهد فى فهم دين الله وفى طاعته فى المسائل العلمية الأصولية والعملية الفروعية فهو دائر بين الأجر والأجرين . أى أنه مأجور وليس مجرد معذور، فإن أخطأ فله أجر واحد وإن أصاب فله أجران .

* * *

﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُسَمًّى ، يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾[الرعد : ٢] .

تسخير الشمس والقمر ومعناه :

عنى القرآن بهذا الكون عناية بالغة ، عنى بالسموات ، بالأفلاك ، بذلك العالم العلوى من فوقنا ، وعنى فيه خاصة بالشمس والقمر ، ورغم وجود نجوم أخرى لا عد لها ولا حصر ،ولا يعلمها إلا الله عز وجل ، ومنها ما هو أكبر من الشمس بآلاف المرات وملايين المرات ، ولكن الشمس - وهى نجم - والقمر - وهو كوكب - هما اللذان يهمان البشر ، لهذا ذكر الشمس والقمر فى القرآن الكريم أكثر من ثلاثين مرة ، قد تذكر فيها الشمس منفردة ، وقد يذكر فيها القمر منفرداً ، وقد يذكران معًا ، وقد ذكر تسخيرهما فى ستة مواضع من القرآن منها هذا الموضع الذى معنا ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ .

وهنا نتساءل لم سخر الشمس والقمر ؟ إنهما سخرا لنا لم يذكر القرآن من المسخر له الشمس والقمر هنا فى هذا الموضع ، ولكنه ذكر فى آيات أخرى أن ذلك التسخير لنا ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ [إبراهيم : ٣٣] ، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾[النحل : ١٢] فكل هذه مسخرة لنا .

فما معنى التسخير إذن ؟ التسخير سوق الشىء قهرًا إلى غاية يقصدها المسخر ، أو هوتذليل الشىء وسوقه بعصا القهر ، فالشمس والقمر مسخران ذللهما الله وسخرهما ، الشمس ذلك النجم العظيم الذى هو أكبر من أرضنا بملايين المرات سخره الله عز وجل ، وسخره لنا لمصلحتنا نحن البشر فوق هذه الأرض ، تستفيد من ضيائها وحرارتها بالنهار ونستفيد من ضيائها بالليل على وجه القمر ، فهى مسخرة لنا ، وليست إلَهًا ولا معبوداً كما صنع ذلك من صنع طوال التاريخ ، فهناك أناس عبدوا الشمس ، وأناس عبدوا القمر ، وأناس عبدوا الكواكب ، وقد ضلّت البشرية حينما عبدت الأشياء المسخرة لها ، ومشكلة البشرية ليست فى الإلحاد ، فالإلحاد شىء ضئيل جداً ، ولهذا لم يأت

الرسل ليقيموا الدليل على وجود الله ، ولا ليقاوموا الإلحاد والجحود ، إنما جاءوا ليقاوموا الشرك ، جاء كل منهم لقومه يقول : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾[الأعراف : ٥٩ ، وتكررت فى آيات أخرى] .

وكانت مشكلة البشرية على مدار التاريخ فى الشرك الذى أفسد العقول ، وكان وكراً عششت فيه الأباطيل والخرافات ، فعبد الناس مظاهر الطبيعة المختلفة ، ومظاهر القوة ومظاهر النفع ، ومن أجل ذلك عبدوا الشمس وعبدوا القمر وعبدوا الكواكب من قديم ، فالمصريون القدماء عبدوا الشمس الإله رع ، وأهل سبأ عبدوا الشمس كما حكى عنهم القرآن على لسان الهدهد الذي ذهب إلى سبأ وعاد يقول : ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾[النمل : ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤] .

فالناس ضلوا بعبادة هذه الأجرام السماوية ، ولا عجب إذا كان هناك من عبد الحجر ، بل هناك من عبد إلهاً من العجوة فإذا جاع أكله ! لا عجب إذا عبدوا الشمس التي يرونها من بعيد ،وجاءت عقيدة التوحيد تحريراً للإنسان من العبودية للأشياء أيًّا كانت هذه الأشياء سواء كانت فى عالم الأرض أو فى عالم الأفلاك ، وإعطاء الإنسان هذه الفكرة العظيمة الإيجابية النافعة ، إن كل ما في الكون مسخر للإنسان ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾[الجاثية : ١٣] .

فهذه الشمس ، هذه الكتلة الملتهبة الضخمة مسخرة للإنسان ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ ، والقمر تابع للأرض وهو أكبر تابع من توابعها ، وله صلة بحياة الإنسان من ناحية المد والجزر والإضاءة فى الليل وغير ذلك ، فالقمر والشمس كلاهما مسخران من قبل الله تبارك وتعالى للإنسان ، ﴿ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ يجريان ، الشمس تجرى ، والقمر يجرى كما قال الله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ، ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[يس : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠] وقد قال بعض أهل الفلك والجغرافيا الفلكية فى وقت من الأوقات : أن الشمس ثابتة والأرض هى التى تدور وتتحرك ثم ثبت خطأ هذا ، وأن الشمس تدور وتتحرك

أيضًا بمعدل دورة فى كل خمسة وعشرين يومًا عندخط الاستواء ، وفى كل خمسة وثلاثين يومًا عند القطبين ، فالشمس لها دورتها ، والقمر له دورته أيضًا فى كل سبعة وعشرين يومًا ونصف اليوم دورة وأكملت بعد ذلك بيومين لتكون تسعة وعشرين يومًا ونصف اليوم وهذه هى عدة الشهر القمرى ، فكلاهما إذن – الشمس والقمر – يدور ويتحرك ، وكل ما فى الكون يتحرك ولكنها حركة منتظمة ، حركة فى إطار ثابت وحول محور ثابت ،فالحركة أصل فى الكون والثبات أصل فيه أيضاً ٠

﴿ كُلٌّ يَجْرِى ﴾ أى كل من الشمس والقمر يجرى ، واختار القرآن كلمة يجرى مثل جريان الفلك ، ﴿ وَالْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴾ [الحج : ٦٥] ومثل كلمة السبح﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠] كأن هذا الكون بحر كبير تجرى فيه الشمس ويجرى فيه القمر ، وتسبح فيه النجوم فى أفلاكها ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ ٠

﴿ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ الأجل المسمى هو الوقت المحدد ، فهل تجرى الشمس والقمر إلى وقت محدد هو إكمال الدورة أى الشمس تكمل دورتها والقمر يكمل دورته ثم يعود كل منهما إلى الدوران من جديد دون توقف ؟ ، أم أنهما يدوران لأجل مسمى وهو الأمد الذى قدَّر الله تبارك وتعالى أن تنطفىء فيه الشمس وأن يعتم أو يخسف هذا القمر كما قال تعالى : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ [التكوير : ١ ، ٢ ، ٣] حينما يأذن الله تعالى بأن يطوى صفحة هذا العالم ؟ هذا جائز وممكن أن يكون هذا الأجل هو القيامة عندما تقوم الساعة ، وممكن أن يكون الأجل المسمى للدورة المحددة ثم يعود كل منهما من جديد ، ولعل هذا هو الأوفق لأن الله قال بعد ذلك ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾ وهذا من جملة تدبير الله عز وجل ، تسخير هذه الأجرام لمنفعة الإنسان ٠

تدبير الله للأمور :

﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ أى يصرفه تصريف من يعلم أدباره وعواقبه ، قد يعلم بعض الناس أوائل الأمر ولا يعرف أواخره ، يعرف الحاضر ولا يعرف المستقبل ، يعرف شيئًا وتغيب عنه أشياء ، ولكن الله سبحانه وتعالى حينما يقضى أمرًا يعرف ما وراءه ، يعرف العواقب القريبة والبعيدة ، فمثلاً حينما ألقى إخوة

يوسف أخاهم يوسف فى الجب ما كانوا يعرفون ما سوف يحدث بعد ذلك ، ولكن الله سبحانه وتعـالى يعلم أن يوسف سيلتقطه سيارة ويبيعونه إلى عزيز مصر ، وسيكرم مثواه ، وسيقع فى محنة ويلقى به في السجن ، وسيخرج ويحدث له أشياء كثيرة ويصبح عزيز مصر ، ويجعل الله على يديه بعد ذلك إنقاذ مصر وما حولها من المجاعة الطاحنة والأزمة الخانقة التى كادت تقتل الناس ، فالله هو الذى يدبر الأمر ويعلم العواقب ، ولذلك فالتدبير من صفات الله تعالى ومن أسمائه ، وقد اشتهر عند الناس : العبد يفكر ، والرب يدبر ، أو العبد فى تفكير والرب فى تدبيـر ، وماذا يدبر ؟ ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾ ، وأل فى الأمر للاستغراق ، فالأمـر هو كل الأمر : أمر السماء وأمر الأرض ، أمر الإنس وأمر الجن ، أمر الإنسان وأمر الحيوان ، وأمر النبات ، وأمر الجماد ، وأمر العالم الأرضى وأمر عالم الأفلاك ، أمر اليوم وأمر الغد ، الأرزاق والآجال ، الإماتة والإحياء ، الإفقار والإغناء ، الإسعاد والإشقاء ، الإضحاك والإبكاء ، الضـر والنفع ، والخفـض والرفع ،كل شيء يدبره الله تعالى ويدبره على أحسن الوجوه وأحكمها ؛ لأنه يعلم ما كان وما هو كائن وما سـيكون : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ ﴾ [آل عمران : ٥] فعنده العلم وعنده الحكمة ، وعنده القدرة ، فلماذا لا يدبر الأمر على أحسن الوجوه ؟ وهذا من مقتضى ملكه وسلطانه ، ولذلك جاءت مسألة التدبير هذه فى القرآن الكريم ثلاث مرات بعد الاستواء على العرش ، كما قال تعالى فى سورة يونس : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، يُدَبِّرُ الأَمْرَ ، مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ [يونس : ٣] وجاء فى سورة السـجدة أيضاً بعد الاستواء على العرش ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾[السجدة: ٥] وفي آية الرعد التي معناً: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى ، يُدَبِّرُ الأَمْرَ ﴾ فالتدبير من صنعه سبحانه ومن صفته ، والله سبحانه وتعالى ذكر ما يدل على اعتراف المشركين له بالتدبير : ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، أَمَّن يَمْلِكُ السَّـمْعَ وَالأَبْصَارَ ، وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَـيِّ ، وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْـرَ ، فَسَيَقُولُونَ

الله ﴾ [يونس:٣١] هـكذا حتى المشركون إذا سألتهم من يدبر الأمر ؟ ﴿ فَسَيَقُولُونَ اللهُ ، فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ .

فالله هو المدبر ،ولا نقول عن غيره مدبر الأمر وإنما نقول فلان مدبر أمرًا كما قال الله تعالى فى سورة النازعات : ﴿ فَالمدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ [النازعات : ٥]أى أمرًا من الأمور هكذا بهذا التنكير، سواء قلنا : إن هذه المدبرات هى الملائكة أو قلنا : إنها الغزاة أو خيل الغزاة ﴿ والنَّازِعَاتِ غَرْقًا * وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا * وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا * فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا * فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴾ [النازعات : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥]من باب المجاز ، المهم أنه أمر من الأمور ، أما مدبر الأمر فهو الله سبحانه وتعالى ، لكن ليس معنى هذا أن الإنسان لا عمل له ولا سعى له ، وأن يترك كل شىء بزعم أن الله هو المدبر كما قال ذلك بعض الصوفية ، فبعضهم ألف كتابًا أسماه « التنوير فى إسقاط التدبير » وهذا فى الواقع نوع من الغلو لأن تدبير الله سبحانه وتعالى لا يعنى أننا لانفكر فى أمورنا ولا نرتبها ولا نخطط لها ، بل يعنى أن نخطط وندبر كما خطط سيدنا يوسف لمدة خمسة عشر عامًا ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ، فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِه إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ * ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾[يوسف : ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩] ، وكما خطط الرسول ﷺ للهجرة ورتب لها .. وهكذا فالأخذ بالأسباب لا ينافى التوكل على الله ، والسعى والتفكير وترتيب الأمور وفق سنن الله تعالى لا ينافى التدبير من عند الله سبحانه وتعالى .

تفصيل الآيات من الله تعالى :

﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ ﴾ يدبر ويفصل الآيات يبينها مفصلة متميزة بعضها عن بعض ، واضحة كالصبح لذى عينين ، وهنا نتساءل أهى الآيات التنزيلية آيات الكتاب المحكمة ؟ ولعل هذا هو الأقرب لأنه يتفق مع قوله ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ ﴾ فى مطلع السورة ، فهو يفصل الآيات حتى تقتنع العقول وتستنير القلوب وتحيا الضمائر بهذه الآيات ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾[الأنعام : ٥٥] وهنا لتستبين سبيل المؤمنين ، أم أن الآيات هنا

فى هذا الكون الدالة على وجوده وعلى وحدانيته وعلى كمال قدرته وعلى واسع رحمته وعلي بالغ حكمته ؟ هى آيات أيضاً ولعل هذا هو ما يفيده قوله تعالى فى سورة الأنعام : ﴿ وَهُوَ الَّذى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لتَهْتَدُوا بهَا فى ظُلُمَات الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، قَدْ فَصَّلْنَا الآيَات لقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَهُوَ الَّذى أَنشَأَكُم من نَّفْسٍ وَاحدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ، قَدْ فَصَّلْنَا الآيَات لقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ [الأنعام :٩٧، ٩٨] فالآيات هنا لعل الأرجح أن تكون كونية ، فالله يفصلها كما يفصل الآيات التنزيلية .

معنى اليقين بلقاء الله وأهميته :

﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَات ﴾ لماذا ؟ ﴿ لَعَلَّكُم بلقَاء رَبِّكُمْ تُوقنُونَ ﴾ الله سبحانه وتعالى أقام هذا الكون الكبير ، هذا الكون البديع ، هذا الكون الذى أحسن الله فيه كل شىء خلقه ، وأتقن فيه كل شىء صنعه ورتبه أحسن ترتيب ، وأحكمه أروع إحكام ، لماذا فعله هكذا ؟ ولماذا سخر ولماذا دبر ؟ ، ولماذا فصل الآيات ؟ ﴿ لَعَلَّكُم بلقَاء رَبِّكُمْ تُوقنُونَ ﴾ « ولعل » فى القرآن الكريم تأتى إما للترجى وإما للتعليل وأضاف بعضهم معنى ثالثًا فقال : إنها قد تأتى للاستفهام مثل ﴿ لاَ تَدْرى لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدثُ بَعْدَ ذَلكَ أَمْرًا ﴾ [الطلاق : ١] ، ومثل : ﴿ وَمَا يُدْريكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَريبٌ ﴾ [الشورى : ١٧] لكنها أكثر ما تأتى للترجى أو للتعليل ، ومعنى الترجى أى توقع حصول شىء يحبه الإنسان كأن تقول : لعل هذا يحدث ، أو تقول عسى أن يحدث كذا ، وأحيانًا تفيد التعليل مثل الأوامر القرآنية كما قال الراغب الأصفهانى : إنها تحتمل الترجى وتحتمل التعليل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلحُونَ ﴾ [الحج : ٧٧] أى راجين أن تفلحوا ، أو لكى تفلحوا بمعنى التعليل ، وقال الراغب الأصفهانى : إنها إذا جاءت فى معرض الخطاب ولم يكن قبلها أمر فالغالب أنها تفيد التعليل مثل الآية التى معنا هنا : ﴿ لَعَلَّكُم بلقَاء رَبِّكُمْ تُوقنُونَ ﴾ أى لكى توقنوا بلقاء ربكم ، فالله رفع السموات وسخر الشمس والقمر ويدبر الأمر ويفصل الآيات لتوقنوا بلقاء الله عز وجل ، أى لتؤمنوا بالآخرة وتعلموا أن هذه الحياة وراءها حياة أخرى ، وأن الموت ليس نهاية

المطاف ، وإنما هو رحلة إلى عالم آخر كما قال عمر بن عبد العزيز : إنما خلقتم للأبد وإنما تنقلون بالموت من دار إلى دار ، وكما قال الشاعر الصالح :

وما الموت إلا رحلة غير أنها ... من المنزل الفانى إلى المنزل الباقى

فهذا الكون الذى خلقه الله عز وجل وتلك الدلائل التى نصبها لنا لنعلم أن هناك حياة أخرى ودارًا أخرى ، توفى فيها كل نفس ما كسبت وتخلد فيما عملت وهذا هو معنى لقاء الله أى وقوف الإنسان بين يدى ربه يوم العرض للحساب والجزاء والثواب والعقاب فلابد أن نعلم هذا بيقين .

واليقين أن يعلم الإنسان الشىء علمًا لا شك فيه ينتفى عنه الريب والشبهات ، فهو العلم الجازم الذى لا يحتمل النقيض وهذا هو اليقين ، تقول أيقن الشىء أو أيقن به إذا علمه علمًا لا شك فيه ، فاليقين هو الأمر الواضح الثابت الذى لا شك فيه ولذلك سمى الموت يقيناً ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [الحجر : ٩٩] أى يأتيك الموت فهذا أمر لا شك فيه ، والله تعالى يقول : ﴿ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴾ [المدثر : ٤٧] أى أتانا الموت .

فقوله تعالى ﴿ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ يعنى تؤمنون به إيمانًا جازمًا لا يتطرق إليه ريب ولا شك ، وينبغى أن نعلم أن هناك مراتب ، فهناك اليقين ، وتحت اليقين الظن ، وهناك من الظن الراجح والضعيف ، وهو أقرب إلى الشك أو إلى الوهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية : ٣٢] فهذا هو الظن الضعيف لأن كلمة « ظنًّا » هكذا بالتنكير تدل على التحقير .

والظن الراجح أحيانًا يعبر به عن اليقين كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ [البقرة : ٤٦] وكما قال أيضًا : ﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] فالظن إذا كان راجحًا يكفى الإنسان ليخشى الله عز وجل ويؤمن بلقائه قال تعالى : ﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ [الحاقة : ٢٠] ، أما الظن

الضعيف كما قلنا فهو أشبه بالشك ، وعندنا الظن الذى هو الإدراك الراجح ، والإدراك المستوى الطرفين يسمى شكًّا ، والإدراك المرجوح يسمى وهمًا ، فلا الوهم ينفع ولا الشك ينفع .

لكن المطلوب فى أمر الآخرة هو اليقين ، ولذلك وصف الله تعالى المتقين فى أول سورة البقرة فقال : ﴿ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة : ٤] فلا تقوى بغير يقين ، وفى سورة النمل : ﴿ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [النمل : ٢ ، ٣] وكذلك فى سورة لقمان وصف المحسنين بأنهم ﴿ بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [لقمان : ٤] فالمتقون والمؤمنون والمحسنون لا يمكن أن يكونوا إلا موقنين بالآخرة ، واليقين بالآخرة هو دواء كل داء ، ومشكلة البشرية هى عدم الإيمان بالآخرة ،ومع أن هذه القضية المصيرية الأولى ، فلو آمن الناس بالآخرة لانحلت العقد وانحلت المشاكل ، ولكن الناس يعيشون ليومهم ، ولا يفكرون في غدهم ، ولو أنهم آمنوا بالآخرة لرتبوا حياتهم ترتيبًا آخر ، وفكروا لها تفكيراً آخر ، ولذلك كان القرآن مركّزًا على هذه القضية « اليقين بالآخرة » وانصراف الناس عن الإيمان بالآخرة هو أصل كل فساد : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس: ٧، ٨] .

* * *

﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا ، وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الرعد : ٣] ٠

بعد أن تحدث الله عن العالم العلوى ، عن السموات التى رفعها بغير عمد ، وعن استوائه سبحانه على العرش ، وتسخيره الشمس والقمر يجريان لأجل مسمى ، نزل الله سبحانه وتعالى بنا إلى هذه الأرض التى نعيش عليها ، أجل ، بعد أن حدثنا عن السماء من فوقنا ها هو يحدثنا عن الأرض من تحتنا ومن حولنا ٠

اهتمام القرآن بالأرض بعد السماء :

ولابد للإنسان أن ينظر فى العالم من حوله ، من فوقه ، ومن تحته :﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ [غافر:٥٧] ولأن السموات أعظم فقد بدأ الله بها،ثم ثنَّى بالأرض : ﴿وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا ﴾ وقد نبهنا القرآن فى آيات كثيرة ووفيرة إلى هـذا الكوكب الذى نعيش عليه «الأرض» التى ذُكرت هـكذا معرّفة – بإعرابها مرفوعة أو منصوبة أو مجرورة – أربعمائة وإحدى وخمسين مرة فى القرآن الكريم كله (١) ، وهذا ليلفت أنظارنا إلى هذه الأرض ٠

المراد بكلمة (الأرض) فى القرآن :

والأرض حينما تذكر فى القرآن تذكر بمعان ثلاثة :

أولها : أن يراد بها هذا الكوكب الذى نعيش عليه ، ومعظم ما جاء فى القرآن الكريم من لفظة الأرض جاء بهذا المعنى ، وخصوصًا إذا قوبلت بالسماء فى نفس الآية ، أو فى مثل ما معنا الآن ﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ

---

(١) وردت لفظة الأرض مرفوعة أربعًا وثلاثين فى القرآن ووردت منصوبة ستًا وثمانين مرة ، ومجرورة ثلاثمائة وإحدى وثلاثين مرة ليكون المجموع أربعمائة وإحدى وخمسين مرة ٠

تَرَوْنَهَا ﴾ ، ﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ ﴾ فهنا يتضح لنا أن الأرض هى هذا الكوكب الذى يقابل السماء فى نظر القرآن .

وثانيها : أن يراد بالأرض جزء من هذا الكوكب، كقطر من الأقطار، أو إقليم من الأقاليم حسب ما يدل عليه السياق ، كما جاء فى سورة يوسف : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾ [يوسف : ٥٦] فالمقصود أرض مصر وليس الأرض كلها، وحينما قال يوسف للملك : ﴿ اجْعَلْنِى عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ ، إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف : ٥٥] إنما قصد بالأرض هنا أرض مصر ، وكذلك حينما قال أخو يوسف ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِى أَبِى ﴾ [يوسف : ٨٠] قصد أرض مصر ، فالسياق دل على المراد .

ثالثها : أن يراد بالأرض أرض الجنة كما جاء فى أواخر سورة الزمر : ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لله الَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ، فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [الزمر : ٧٤] .

فهذه المعانى الثلاثة هى التى تقصد بها كلمة الأرض حيثما ذكرت فى القرآن الكريم ، وأحيانًا يختلف المفسرون فى تحديد معنى الأرض مثل ما جاء فى أواخر سورة الأنبياء ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٥] فقد اختلف المفسرون فى المقصود بالأرض هنا ، حيث ذهب بعض المفسرين إلى أن الأرض هنا هى الأرض ، أى أرض يمكّن الله فيها للعباد الصالحين بصلاحهم ، فهم الذين يستحقون الخلافة فى الأرض والتمكين فيها ، والصلاح هنا يشمل الصلاح الدينى والصلاح الدنيوى ، فهم صالحون لعمارتها ، وهم صالحون لزراعتها ، وهم صالحون لإقامة دين الله فيها ، وذهب بعض المفسرين إلى أن الأرض هنا هى أرض الجنة ، وكأنهم نظروا فى الواقع وقالوا : إن الأرض فى بعض الأحيان لا يرثها الصالحون ، وإنما يتمكن فيها الجبابرة والطغاة والكفار ، ويسلطون عليها ، فالمراد بالأرض على هذا أرض الجنة فى قوله تعالى : ﴿ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ ﴾ .

فكلمة الأرض إذا ذكرت يقصد بها أحد هذه المعانى الثلاثة إلا فى موضع

فى سورة سبأ ، حيث قال الله عز وجل فى قصة سليمان : ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ﴾ [سبأ : ١٤] فقد ذهب بعضهم إلى أن الأرض هنا هى مصدر أَرَضَ يَأْرِض ، لتخرج بذلك عن المعانى الثلاثة السابقة .

المقصود بالأرض هنا :

أما الأرض فى الآية التى معنا فالمقصود بها الكوكب الذى نعيش عليه بدليل أنه ذكرها بعد السموات ﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَاوَاتِ ﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ ﴾ ومعنى أنه مد الأرض أى بسطها طولاً وعرضًا ، وهيأها لمعيشة الإنسان ، وهنا نجد القرآن الكريم حينما يحدثنا عن الأرض : يحدثنا أحيانًا عن أن الله تعالى جعلها بساطًا ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ بِسَاطًا * لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلاً فِجَاجًا ﴾ [نوح : ١٩ ، ٢٠] ، أو جعلها مهدًا : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ [طه : ٥٣] مثل مهد الطفل ، أو مهادًا ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا ﴾ [النبأ : ٦] أو فراشًا : ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ﴾ [البقرة : ٢٢] ﴿ وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٨] أو قرارًا : ﴿ أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ، أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ [النمل : ٦١] .

فهى مهيأة ، تهيئة يمكن أن توصف بأنها فراش وأنها مهاد وأنها قرار وإنها بساط وأنها مستقر وأنها متاع : ﴿ وَلَكُمْ فِى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ [البقرة : ٣٦] المهم أن الله هيأها وذللها بحيث يستطيع الإنسان أن يقوم فيها بالمهمة التى وكلت إليه ، مهمة الخلافة ومهمة العمارة : ﴿ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [البقرة : ٣٠] هذه المهمة التى اشرأبت إليها أعناق الملائكة وتمنوا أن يكونوا هم أصحاب هذا المنصب ، ولكنهم لم يؤهلوا لذلك ، ولذلك حينما قالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة : ٣٠] قال الله تعالى : ﴿ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٣٠] وبين لهم فى مسابقة عقدت بينهم وبين آدم أنهم لا يملكون

المؤهلات التى تجعلهم خلفاء فى هذه الأرض ، أما آدم فقد أوتى العلم الذى يمكنه وهم لم ويؤتوه ، فالإنسان مهمته أن يقوم بالخلافة في الأرض وأن يقوم بعمارتها ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود : ٦١] واستعمركم أى طلب إليكم عمارتها فالسين والتاء للطلب ، كما يقول أهل اللغة .

مدّ الأرض وبسطها لا ينافى تكويرها :

فالله إذن قد هيأ الأرض ليقوم الإنسان فيها بالعمارة الخلافة ﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ ﴾ أى بسطها ، وهنا يأتى السؤال هل هى مبسوطة أو مكوَّرة ؟ وقد قال المفسرون هنا : مدها : أى بسطها طولا وعرضًا حيث تتسع لحياة الإنسان ومعيشته ، فهل يتنافى هذا مع التكوير ؟ أى مع كونها كرة كما دل على ذلك العلم الحديث ؟ أقول : لا يتنافى ذلك مع التكوير أبدًا ، فالتكوير أصبح حقيقة واقعة ، ولم يعد حقيقة علمية ، بل أصبح حقيقة عملية ، فالإنسان قد دار حول الأرض آلاف المرات ، والمحاولات مستمرة بصورة أو بأخرى .

وقضية التكوير هذه سبق المسلمون بها غيرهم فى الوقت الذى كانت أوروبا تجهل كل الجهل هذا الأمر ، وتعتقد أن الأرض مبسوطة ، ولا يمكن أن تحتمل التكوير ، قبل أن يظهر كوبرنكس وجاليليو وغيرهما ، كان المسلمون يقررون ذلك فى كتبهم الدينية ، لا أقول الكتب الفلسفية أو العلمية أو الفلكية ، بل أقول الكتب الدينية فهذا ابن حزم فى كتابه « الفصل فى الملل والنحل » يدلل على كروية الأرض ويرد على من ينكر ذلك ، وفخر الدين الرازى فى تفسيره فى مواقع شتى يتحدث عن هذا ، وكتب علم الكلام ، الكتب التى خلطت الكلام بالفلسفة مثل المواقف والمقاصد وغيرها تتحدث عن هذا ، وكتب التفسير من المتقدمين والمتأخرين حتى العلامة الألوسى يتحدثون عن هذا الأمر ، فلم تكن هذه القضية مشكلة عند المسلمين ، ولكنها بالقطع كانت مشكلة عند النصاري ، عندما اكتشف المكتشفون بعد ذلك أن الأرض كرة وليست مبسوطة .

فالكروية لا تنافى البسط لأن الجسم العظيم بالنسبة لمن يعيش عليه يكون مبسوطًا ، والإنسان يرى الأرض مبسوطة مهيأة للحرث والزرع والبناء ، والواقع أنها لو لم تكن مبسوطة لما استطاع الإنسان أن يعيش عليها وما أمكنه أن يراها ممدودة ، ولو كانت الأرض مربعة أو مستطيلة أو مثلثة أو فى صورة دائرة لكانت ممدودة فى وسطها فقط : فى مركز الدائرة وما حوله ، فإذا ذهبت إلي الحواف أو الأطراف ، فلن تراها ممدودة لأن الطرف فى هذه الحالة يعنى المد فى ناحية واحدة ، فمن تأمل فى مد الأرض يجده بالفعل دليلاً على التكوير ، فالتكوير هو الذى تجد فيه المد والبسط فى أى مكان على الكرة ما دامت كرة كبيرة ، المد والانبساط فيها واضح ، فليس هناك إذن تناف بل هناك تكامل بين عملية المد والبسط وعملية التكوير ٠

أهمية الجبال الرواسى للأرض:

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ﴾ أرساها بالجبال فالرواسى هى الجبال الراسية أى الثابتة الراسخة ، وقد سماها القرآن فى بعض الآيات أوتادًا : ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ [النبأ : ٦ ، ٧] تمسك الأرض أن تميد أو تضطرب ، فهى بمثابة الأوتاد للخيام ٠

هذه الجبال لها أهميتها فى منع الأرض من الميدان أو الاضطراب ، وهذا ما تفضل الله تعالى بذكره فى آيات كثيرة ، كما فى سورة لقمان : ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ، وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ، وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ ، وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ * هَذَا خَلْقُ اللَّهِ ، فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ [لقمان : ١٠ ، ١١) فالله ثبت هذه الجبال الرواسى فى الأرض حتى لا تميد الأرض ٠

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ﴾ كما جعل الله فى الأرض الرواسى ، جعل فيها الأنهار ، لأن الحياة لا يمكن أن تتم إلا بالماء ، وهذه حقيقة قررها القرآن ، وقررها العلم ، وقررها الواقع ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾[الانبياء : ٣٠] ومن هنا جعل الله فى الأرض أنهارًا ، سواء كانت هذه الأنهار من ماء نبع من الأرض ، ثم سار وجرى أو كانت من السحاب كما هو الشأن

فى الأنهار ، وحتى الماء الذى ينزل من السحاب أصله الأرض كما قال تعالى : ﴿ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴾[النازعات : ٣٠ ، ٣١] فأصل الماء خارج من الأرض ، ومعلوم أن السحاب ماء تبخر ،وقد قال الشاعر العربى :

كالبحر يمطره السحاب وماله فضـــــل عليه لأنه من مائه !

فالله هيأ هذه الأنهار بمياهـها العذبة لإحياء الأرض بالنبات ، وليشرب منها الإنسان والحيوان :﴿ وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾[الفرقان : ٤٩] .

معنى كلمة (جعل) :

وكلمة « جعل » تأتي على عدة أوجه ، هناك جعل اللازمة وهى من أخوات كاد التى تسمى بأفعال الشروع فنقول : « جعل يصنع كذا » أى شرع فيه وطفق يفعل كذا وكذا وهذه لم تأت فى القرآن ، وهناك جعل المتعدية التى تأتى فى القرآن ، وأحيانًا تكون متعدية لفعل واحد ، وهنا تكون بمعنى أنشأ وأوجد كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ [الأنعام : ١] أى أنشأ الظلمات والنور وأوجدها وخلقها ، وأحيانًا تكون متعدية لفعلين وتكون فى هذه الحالة من أخوات ظن ، كما هو مقرر فى علم النحو ، ومعناها تصيير شيء إلى شيء إما حقيقة أو اعتقادًا : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ﴾[الزخرف : ١٩] وجعل التى معنا ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ﴾ من المتعدى لفعل واحد بمعنى أنشأ وأوجد فيها رواسى وأنهارًا .

ظاهرة الزوجية فى النبات وفى الكون كله :

﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ من جميع الثمرات فى الأرض جعل الله سبحانه وتعالى زوجين اثنين ، وكلمة زوج أحيانًا تطلق على الفرد أو الشيء الذى يقرن بغيره من نظير له أو ضـد له ، وأحيانًا تطلق على الاثنين فهناك زوج وهنـاك فرد ، وتطلق على الصنف ، فمن كل زوج صنف كما قال الله تعالى : ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ [سورة ق : ٧] أى صنف جميـل حسن، وقال:﴿ مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾[الشعراء : ٧ ، لقمان : ١٠]

أى صنف أصيل رفيع القيمة ، فأما الزوج من الشيء وضده فمثل الذكر والأنثى ﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى ﴾ [النجم : ٤٥] .

فما المراد هنا من ﴿ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ ؟ هل المراد من جميع الثمرات خلق الله صنفين اثنين مختلفين فى الكمية مثل الصغر والكبر ؟ أو فى اللون مثل الأبيض والأسود ، أو فى الطعم مثل الحلو والحامض ؟ ، أو فى الكيفية مثل الحرارة والبرودة ؟ ، هذا احتمال ، يعنى أنها أصناف مختلفة ، فمن كل الثمرات خلق الله أصنافًا مختلفة .

أم أن المراد أنه خلق من كل صنف زوجين اثنين ؟ أى زوجين زوجين ، أو صنفين صنفين أو نوعين نوعين،ثم تكاثرت هذه الأصناف وتنوعت ، وهذا مثل الذكورة والأنوثة،وقد ذهب إلى هذا بعض المفسرين،ولكنهم قالوا : لا دليل على هذا ، فلم يكن عندهم دليل على أن هناك ازدواجًا عامًا فى النبات وفى ثمراته ، وقد عرفوا من هذا فقط النخيل ، ففيه ذكورة وفيه أنوثة ، ومن قديم عرف الناس تأبير النخل وتلقيحه ، أما أن يكون ذلك شيئًا عامًا فى كل النبات ، فهذا ما لم يعرفوه ، ولذلك استبعده بعض المفسرين ، مع أن القرآن قرر ذلك فى آيات أخر ، وأشار إلى هذه الحقيقة الكونية التى أصبحت من الحقائق العلمية المعروفة فى عصرنا : أن النباتات مزدوجة ، فيها ذكورة وأنوثة ، وهناك حبوب التذكير وحبوب التأنيث ، وأنها تنتقل بين أفراد النبات عن طريق الحشرات كالنحل وغيرها ، أو عن طريق الرياح أو غير ذلك من الوسائل ، والله تعالى يقول فى سورة يس : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ﴾[يس : ٣٦] ، فهنا ممكن أن تفسر الأزواج بمعنى الأصناف ، أو بمعنى المزدوجة المتقابلة مثل الذكورة والأنوثة ، وهذا من إعجاز القرآن الكريم ، لأنه لو احتمل معنى واحداً كالمعنى الأخير فقط لكان ذلك شيئًا معمًّى على الناس فى عصر نزوله وما بعد عصر نزوله ، إذ لم يكتشفوا هذه الحقيقة ، فهو يمكن أن يفهم على وجه معقول ويؤدى الثمرة المطلوبة ، والأوضح

من ذلك والأشمل قوله تعالى فى سورة الذاريات : ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٩] فهذه كلية مطلقة عامة .

وقد كان بعض المفسرين يقول : إنها أغلبية وليست كلية ، فهى من باب التغليب ، ولكن الواقع يقول لنا الآن : إن هناك ازدواجًا فى الكون ، وتقابلاً بين الأشياء ، كما نعرف فى الكهرباء الموجب والسالب ،وهنا نجد أن البناء الكونى يقوم على الذرات ، والذرة فيها الشحنة الكهربائية الموجبة وتقابلها الشحنة السالبة ، أو البروتون والإلكترون كما يقولون ، فأصبحت هذه الحقيقة القرآنية فعلاً حقيقة واقعية ، وأنا لست من الذين يلوون أعناق النصوص ليؤيدوا مكتشفًا علميًا أو نحو ذلك ، ولكن إذا كان القرآن واضحًا فينبغى أن نصحح فهم الأولين ، أو نكمله إذا كانت الحقيقة حقيقة علمية فعلاً ، وكان النص القرآنى يتسع لها بغير تكلف ولا اعتساف .

فلا عجب إذن أن يفيد قوله تعالى : ﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ زوجية المتقابلات هذه ، وهناك ذكورة وأنوثة فى النبات كما عبر عنها علماء البيولوجيا وعلم الأحياء .

معنى إغشاء الليل النهار :

﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾يلبس الليل النهار فيغشّيه ويلتف عليه،كما يلتف الملبوس على لابسه ، فالليل يستر النهار ، وبعد ذلك يأتى النهار فيطغى على الليل،أى أن كلاًّ منهما يعمل فى الآخر:﴿ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ، وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[يس : ٤٠] بصورة متعاقبة ، فظاهرة التعاقب بينهما واختلافهما لفت إليها القرآن كظاهرة كونية وحدثنا عن الليل والنهار فى نحو خمسين آية أو أكثر من ذلك ليلفتنا إلى هذه الظاهرة : أن الليل يعقبه نهار والنهار يعقبه ليل ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ [النبأ: ١٠ ، ١١] ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ﴾ [القصص : ٧٣] ، إلى آخر ما جاء فى القرآن الكريم .

﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ﴾ وفى سورة الأعراف : ﴿ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا ﴾ [الأعراف : ٥٤] كأنما يسارع وراءه ويركض خلفه ، وجاء أيضًا : ﴿ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ

عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ ﴾ [الزمر : ٥] ولعل هذا أيضًا مما يفيد فى قضية تكوير الأرض ، وفى آيات أخرى ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ ﴾ [الحج : ٦١] أى يدخل كلاً منهما فى الآخر ، فهما متلاحقان ،كأنما أصبح كل منهما جزءًا من الآخر ٠

وقد تساءل بعض المفسرين هنا : لماذا ذكر الليل والنهار هنا ،وإغشاء الليل والنهار فى هذه الآية ، مع أن هذا يتصل بالشمس والقمر ، فكان المتوقع أن يكون ذلك فى الآية السابقة التى تحدثت عن الأفلاك والعالم العلوى ، وعن رفع السموات بغير عمد ، وعن الشمس والقمر إلى آخر ذلك ؟ وأجاب بعض المفسرين : بأن هذا يقع فى الأرض فربطه بموضوع الأرض ، ونحن فى عصرنا عرّفنا العلم بجواب أسَدّ وأصوب من هذا الجواب .وهو أن الليل والنهار مرتبطان في الواقع بالأرض أكثر من ارتباطهما بالسماء وبالشمس وبالقمر ، فالليل والنهار إنما يأتيان نتيجة دوران الأرض حول نفسها ، كما هو مقرر فى الجغرافيا الفلكية التى يدرسها التلاميذ فى مدارسهم ، الأرض تدور حول نفسها ، ونتيجة هذا الدوران اليومى كل أربع وعشرين ساعة يحدث الليل والنهار ، فهذه ظاهرة أرضية فعلاً ، ولسنا فى حاجة إلى تكلف الجواب الذى تكلفه بعض المفسرين ٠

الكون مجال للتفكر فى آيات الله :

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ هذه الظواهر الكونية فى عالمنا الأرضى ، فى كوكبنا الذى نعيش عليه ، من مدّ الأرض وإنشاء الجبال الرواسى أوتادًا للأرض ، وإنشاء الأنهار لتكون مصدرًا للحياة ، حياة النبات وحياة الحيوان وحياة الإنسان ، وخلق هذه الثمرات من كلٍّ زوجين اثنين ، كل هذا جدير بأن يكون فيه آيات ودلائل على وجود الصانع الحكيم ، لأن هذا التدبير لا يمكن أن يكون من غير مدبر ، ولا يمكن أن تكون هذه الصنعة من غير صانع ، ولا يمكن أن يكون هذا الأثــر من غير مؤثر ، ولا يمكن أن يكون هذا الإبداع من غير مبدع ، ولا يمكن أن يكون هذا التنظيم من غير منظم ، فهذا مستحيل ٠

وقد ألّــف بعضهــم وهــو – جــوليان هكسلى – كتابًا تحت عنوان Man stands Alone الإنسان يقوم وحده مستغنيًا عن الإله ، ذكر فيه أن هذا الكون وجد أو نشأ بالصدفة ،وهو يقوم من غير إله ، وردّ عليه رجل من المتضلعين فى

شتى العلوم الكونية والرياضية وهو رئيس أكاديمية العلوم بنيويورك أ . هـ - كريسى موريسون فى كتاب أسماه « الإنسان لا يقوم وحده » وترجم إلى العربية تحت عنوان « العلم يدعو إلى الإيمان » وترجمه الأستاذ محمود صالح الفلكى ، وهو كتاب قيِّم يردّ فيه صاحبه بمنطق عالم راسخ متمكن فى الجيولوجيا وفى الفلك وفى الفيزياء وفى الكيمياء وفى النبات وفى الحيوان وفى الرياضيات ، فالرجل دائرة معارف علميــة وموسوعى ، ولذلك استطاع أن يردّ على هذا الرجل ، ويبين له بالمنطق الرياضى والمنطق العلمى : أن هذا الكون لا يمكن أن يقوم وحده ، ولابد أنه من صنع صانع حكيم ، وكل شىء فيه يدل على هذا ، وتحدث عن الأرض فقال : إن الحياة لكى تقوم على الأرض - حياة الإنسان - فإنها تحتاج إلى آلاف الموافقات والترتيبات والتدبيرات التى يستحيل أن تأتى صدفة ، وأنا لا أستطيع أن ألخص الكتاب هنا ولكنى أنصح بقراءته ، خصوصاً للذين يتعرضون لشبهات الملاحدة والجاحدين فى عصرنا ،والحمد لله فقد انهارت دولة الإلحاد ، الدولة التى قامت على « لا إله والحياة مادة » انهارت فى بلادها وللأسف لا يزال فى بلادنا أناس يتحدثون عن مثل هذا ويماحكون فى هذه الأشياء ويجادلون فى الله ﴿ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴾ [الحج : ٨ ، لقمان : ٢٠] ، فالرجل تحدث فى كتابه عن الحياة لكى تقوم على ظهر هذا الكوكب لابد من أشياء كثيرة ، ولو حدث أى خلل فى التنظيم الكونى ما أمكن أن تقوم الحياة على الأرض ، مثل أن تبعد الأرض عما هى عليه الآن عن الشمس قال :

ما كانت حرارة الشمس تكفى لأن تنشىء فى الأرض الحرارة الكافية لأن تقوم الحياة ، أو أن تقترب الأرض عما هى عليه الآن من الشمس فإن ذلك يجعلها تحترق، ولو كانت الأرض تدور بسرعة أكبر ما أمكن أن تقوم عليها الحياة لأن الضوء حينئذ لا يتسلط عليها بدرجة كافية ، وكذلك لو كانت أبطأ فى دورانها لتسلطت عليها حرارة الشمس فى الجهة المقابلة لها مدة أطول وبالتالى تحترق،ولتجمدت الأحياء فى الجهة الأخرى غير المقابلة من شدة البرودة ، وهكذا كل شىء ، سرعة الدوران ، والقرب ، والبعد ، والحجم لو كانت أصـغر حجماً

أو كانت أكبر حجمًا ، وكمية الماء لو كانت فى الأرض أقل أو أكثر ، وكمية الأكسجين والهيدروجين .. وكل شىء حينما تقرأ سوف تجده بمقدار ، وصدق الله العظيم : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد : ٨] ، ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] .

فالرجل قال : إن هذا لا يمكن أن يتم بالمصادفة العمياء ، وهو يناقش مسألة المصادفة مناقشة حسابية رياضية لا يتسع المقام لأحدثكم عنها وقد كتبت هذا فى رسالة عنوانها « وجود الله » .

فالقرآن – إذن – يلفتنا إلى أن هذه الظواهر الكونية فى هذه الأرض فيها آيات ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ و « ذلك » إشارة إلى تلك الظواهر مد الأرض وإنشاء الرواسى وإنشاء الأنهار وخلق الثمرات .. إلخ والمفسرون يقولون إن التعبير بـ « ذلك » فى مثل هذا الموقع دلالة على علو شأن المشار إليه وإن كان قريبًا ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، فمن لا يتفكر مثل جوليان هكسلى هذا لا يجد أى آية ، ولكن الذى يتفكر – مسلمًا كان أو غير مسلم – لابد أن يصل إلى أن هذا الكون وراءه مكوِّن ، ومكون عظيم، فيستدل على وجود الله،ويستدل على عظمة الله تعالى وكماله،على عظيم قدرته، على جميل حكمته ، على إحسان صنعه؛لأنه﴿ أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ [السجدة : ٧] ﴿ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : ٨٨] فلا يصل إلى مجرد الإيمان بوجود الإله ، بل إلى كمال هذا الإله ، فلا يمكن أن يصنع هذا إلا من هو متصف بكل كمال : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

القرآن والدعوة إلى التفكر :

والتفكر من الأمور التى ذكرها القرآن فى مجالات عدة ، وخصوصًا فى المجال الكونى ليثير فى الإنسان أن يتفكر ، أن يعمل عقله ، يستخدم هذه اللطيفة الربانية التى وهبها الله تعالى إياه لا يعطلها ولا يجمدها ، فشأن الكفرة والجاحدين أنهم يعطلون هذه الأجهزة الربانية التى جهّز الله بها الإنسان ، فلم تعد تغنيهم هذه الأجهزة شيئًا بعد الجحود : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ ، وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ

وَلاَ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ ﴾ [الاحقاف : ٢٦] فالجحود خرّب هذه الأجهزة ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف : ١٧٩] ، إن على الإنسان أن يدع الغفلة وينتبه لما حوله ويتفكر فى هذا الكون ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ .

وقد جاء هذا التعبير « التفكر ومشتقاته » فى القرآن الكريم ما يقرب من عشرين مرة [1] على صور مختلفة ، فأحيانًا « تتفكرون » وأحيانًا « يتفكرون » وأحيانًا « يتفكروا » ﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا ، مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾ [الأعراف : ١٨٤] ﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِم .. ﴾ [الروم : ٨] ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ، أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا .. ﴾ [سبأ : ٤٦] أى أن تقوموا مخلصين فى طلب الحق وهو معنى القيام لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا .

ومجالات التفكر فى القرآن : الكون بسمائه وأرضه ،والإنسان والتفكر فى خلقه ، والتاريخ ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الأعراف : ١٧٦] ، والقرآن نفسه : ﴿ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الحشر : ٢١] أمثال القرآن ، والعلاقات الاجتماعية : ﴿ وَمِن آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الروم : ٢١] لابد للإنسان أن يتفكر فى شتى المجالات ،ولا يجمّد عقله ولا يعطّل فكره .

وكما يقول أهل اللغة : الفكر هو إعمال الخاطر فى الشىء ، وكما يقول أهل المنطق : هو ترتيب المعلوم للوصول إلى المجهول ، والمنطق نفسه قد عرّفوه بأنه آلة قانونية تعصم مراعاتها الذهن عن الخطأ فى الفكر ، وحينما عرّفوا الفكر

---

(١) فى معجم ألفاظ القرآن الكريم إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة وردت ١٨ مرة منها فكّر وتتفكروا ويتفكرون وغيرها ص ٨٦٣ جـ ٢ وفى المعجم المفهرس (عبد الباقى) وردت ١٨ مرة ص ٥٢٥ والملاحظ أن مادة الفكر هذه لم ترد فى القرآن مصدراً وإنما أتت على صورة أفعال ولعل هذا أدعى لإعمال الفكر .

قالوا : الفكر هو ترتيب المعلومات التصورية أو التصديقية للوصول بها إلى مجهولات تصورية أو تصديقية .

و (التفكر) لفظة قرآنية الأساس ، لكثرة ترديد فعلها (يتفكر) فى القرآن . وجاء فى القرآن فعل (فكّر) مرة واحدة .

﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴾ [المدثر : ١٨] وإن كان المشهور الآن على الألسنة (التفكير) ، ومن ذلك ما كتبه الأستاذ العقاد – رحمه الله – من كتابه : « التفكير فريضة إسلامية » – وصيغة التفعّل هذه التفكر – فى نظرى – أوسع من مجرد ترتيب المعلومات للوصول إلى المجهول ، لأن استخدام الاستقراء ، والنظر فى الأشياء الذهنية المجردة لاكتشاف المجهول ، والاختيار بين البدائل كل هذا يدخل فى التفكر .

التفكر فى الخلق لا فى الخالق :

والمهم أن يتفكر فى مخلوقات الله ولا يتفكر فى الخالق ، ولذلك نرى أن كل ما جاء فى التفكر فى القرآن بعيد عن التفكر فى ذات الله عز وجل ، ومن هنا جاء الحديث « تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله فتهلكوا » (١) وهو حديث ضعيف ، ولكنه روى من طرق يقوى بعضها بعضًا ، ولذلك حسنه بعض العلماء ، ومعناه صحيح باتفاق .

أما التفكر فلا يكون فى الله ، فمن أين للمخلوق أن يتفكر فى خالقه ؟ ومن أين للعاجز أن يتفكر فى القادر ؟! ، من أين للمحدود أن يتفكر فى المطلق ؟! من أين للناقص أن يتفكر فى الكامل ؟! ، وإذا كان الإنسان لم يعرف

---

(١) رواه أبو نعيم فى الحلية عن ابن عباس رضى الله عنهما بلفظ « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله » ورواه ابن أبى شيبة عن ابن عباس ، ورواه الأصبهانى فى ترغيبه ، والطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب عن ابن عمر مرفوعًا وبعض لفظه « تفكروا فى آلاء الله .. » كما رواه أبو الشيخ والديلمى ورواه أحمد مرفوعًا وغيره عن عبد الله بن سلام عن الرسول ﷺ ، واجتماع هذه الأسانيد يكسب الحديث قوة .

الكون المادى من حوله ، بل لم يعرف نفسه – حقيقة نفسه – فكيف يعرف غيره؟وقد ألّف أحد أقطاب العلم العصـرى كتابًا سماه« الإنسان ذلك المجهول » ، وقال : إننا عرفنا الجمادات وقوانين الجمادات وقوانين الذرة ، وقوانين الكون من حولنا ، واكتشفنا هذه الظواهر ، ولكنا لم نعرف أنفسنا بعد .. [1] ، فإذا كان الإنسان لا يزال مجهولاً عند نفسه فكيف يطمع أن يدرك كنه ربه ؟! .

إدراك الكنه هذا بعيد ولا سيما بالنسبة للألوهية﴿ وَلاَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٠] ولذلك ينبغى البعد عن هذه الساحة ،وعلى الإنسان أن يوفر طاقته وجهده الذهنى لما ينفعه ولما يستطيع أن يصل إلى الحقيقة فيه ، أما ما هو أكبر منه وأبعد عن اختصاصه ، فلا ينبغى أن يشغل نفسه به ، لأن ذلك سيدخله فى متاهة لا يستطيع أن يصل فيها إلى قرار ، والذين بحثوا فى مسألة الذات والصفات وغير ذلك من الأشياء التى خاض فيها بعض المتكلمين من المسلمين ، وصلوا فى نهاية الأمر إلى أنهـم خاضوا أو غاصوا فى بحر عميق كادوا يغرقون فيه ، وانتهى بعضهم فى النهاية إلى أنه كان يتمنى أن يعيش على إيمان العجائز، ويطلب إيمانًا كإيمان العجائز !! ويقول الفخر الرازى فى هذا :

العلم للرحمن جلّ جلاله وسواه فى جهـلاته يتغمغم

ما للتراب وللعـــلوم وإنما يسعى ليعلـم أنه لا يعلم ؟

وبعد أن حصّل أفكار المتقدمين والمتأخرين وغاص فيما غاص قال فى النهاية :

نهاية إدراك العقول عقال وغاية سعى العالمين ضلال

وانتهى إلى مذهب السلف فى التسليم فى الأمور التى يعجز العقل عن إدراك كنهها .

---

(١) هو أليكيس Carrel , Alexis جراح وعالم بيولوجى فرنسى ، ولد عام ١٨٧٣ م وتوفى ١٩٤٤ م ألف كتابه الشهير : الإنسان ذلك المجهول (L ' Homme , Cet inconnu) عام ١٩٣٥ م وترجم إلى العربية ونشر تباعًا .

وكذلك انتهى قبله الإمام الغزالى ، وشيخه إمام الحرمين ، رحمهم الله جميعا .

فالأشياء البسيطة لم يعــرفها العقل ، فلم يعرف معنى الحياة ، ما هى الحياة ؟ ما هى حقيقة الحياة ؟ مع معرفته بآثار الحياة من نمو وتنفس وإفراز وعضوية ، فإذا عجز العقل الإنسانى عن معرفة بعض الحقائق المادية من حوله ، فكيف يطمع أن يعرف حقيقة الله تبارك وتعالى ، ولذلك ينبغى أن يكون مجال التفكر هو الكون وسنن الله فى هذا الكون ، والإنسان فى هذا الكون ، وتاريخ الإنسان ، ويتفكر فى آيات الله الكونية ، وفى آيات الله التنزيلية . فهذا هو الموضع الحقيقى للتفكير ، وهو الموضع النافع ، وإلا زلّت قدم الإنسان ودخل فى صحراء يتيه فيها وهيهات أن يخرج منها سالمًا .

* * *

﴿ وَفِى الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِى الأُكُلِ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ، وَأُوْلَئِكَ الأَغْلالُ فِى أَعْنَاقِهِمْ ، وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [الرعد : ٤ ، ٥] .

آيات الله فى الأرض والزرع :

بعد أن حدثنا الله تبارك وتعالى عن رفع السموات بغير عمد ، وتسخير الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ، وتدبير الأمر ، وتفصيل الآيات ،لعل الناس بلقاء ربهم يوقنون ، وحدثنا بعد ذلك عن هذا العالم السفلى الذى نعيش فيه ، عن هذا الكوكب ، عن هذه الكرة ، عن هذه الأرض ، وعن مدّ هذه الأرض وبسطها طولاً وعرضاً وتهيئتها لحياة الناس ، حياة الإنسان والحيوان والنبات فيها ، جعل فيها رواسى وجعل فيها أنهاراً ، وأغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ، وجعل فيها من كل الثمرات ﴿ مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ [هود : ٤٠] ، حدثنا عن جانب مهم من هذه الأرض التى نعيش عليها وهو ما يتعلق بالزرع والغرس ، أراد القرآن أن ينبه العقول الغافلة ، أن يزيح عنها حجاب الغفلة ، فكثيراً ما تكون الآيات بينة واضحة كالشمس فى رابعة النهار ، ولكن الناس لا ينظرون إليها ولا يعتبرون بها ، ومن شدة الظهور الخفاءُ ، فإلف النعم يقلل الإحساس بها ، بل قد يعـدم الشعور بها ، والنعم ظاهرة ، والآيات واضحة لائحة ، ومع هذا فإن الناس لا يفكرون ولا يعقلون ولا يعتبرون ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٥] .

ومن ذلك آيات الله فى الزرع والغرس ، وهنا يلفت القرآن الأنظار إلى هذه الآية البينة ، ومن اللمحات الطيبة للشيخ طنطاوى جوهرى – رحمه الله – صاحب تفسير(الجواهر) المعروف ، والذى عنى بما يتعلق بالكائنات والطبيعة والموجودات والأفلاك والحيوانات والنباتات وبالغ فى ذلك إلى حد كاد ينسى معه التفسير ، وينسى معه القرآن حتى قيل فيه ما قيل فى بعض التفاسير قبله : فيه

كل شيء إلا التفسير ! يقول : عندما كنت أستمع إلى الدروس الدينية فى أول حياتى ، وكانت كلها تتعلق بالفقه : الوضوء والطهارة والعبادات وغيرها ، وبعضها يتعلق بحفظ أشياء تتصل بالعقائد ، كنت أقول فى نفسى – وأنا أنظر إلى الحقول فى بلدى وإلى الأشجار وإلى الأنهار – كيف لم يهتم الدين بهذا الأمر ؟ حتى التفتّ إلى القرآن ، فوجدته يعنى كل العناية بهذا الأمر ، لا فى آية ولا فى عشر آيات ، ولا فى عشرين ولا فى خمسين ، بل فى مئات الآيات ، يتعرض القرآن الكريم لهـــذه الزروع ، وهذه الثمار ، وهذه الجنَّات ، وهذه الأعناب ، وهذا النخـيل ، ليلفت أحياناً إلى ما وراءها من المنفعة ، ففيها بقاء الإنسان وحياته ، والإنسان خلق جسداً يأكل الطعام ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨] ليس كالملائكة وليس كالجمادات ، بل يحتاج إلى أن يأكل ويشرب ، فأهمية النباتات أن فيها مأكل الإنسان ومشربه ، والقرآن يقول : ﴿ مَتَاعًا لَكُمْ ولأنعَامكُمْ ﴾ [النازعات : ٣٣] ، ﴿ كُلُوا وارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ﴾ [طه : ٥٤] ﴿ تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ ﴾[السجدة:٢٧] ﴿ وَآيَةٌ لَّهُمُ الأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾[يس : ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥] ، وهو مليء بما يلفت الأنظار إلى هذه الزروع وهذه البساتين التى يأكل منها الإنسان ولولاها ما عاش .

وأحياناً يلفت القرآن إلى الجانب الجمالى فيها يقول : ﴿ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾[الأنعام : ٩٩] انظروا إلى هذه اليناعة وتمتعوا ﴿ فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾[النمل : ٦٠] ذات حسن وجمال تنبهر بها الأنفس وتتمتع بها الأعين ، ﴿ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا ﴾[النمل:٦٠] ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾[سورة ق : ٧] يلفت الأنظار إلى جانب البهجة : ﴿ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴾[سورة ق : ١٠] التنضيد والتنظيم والتنسيق ، والقرآن يلفت الأنظار إلى هذا كله .

ومن ذلك نجده يقول : ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ ﴾ قطع مختلفة من الأرض متجاورات متلاصقات ومتقاربات ،ومع تقاربها وتلاصقها فهى متباينة مختلفة ، فهذه أرض طيبة ، وهذه أرض سبخة ، هذه أرض تنبت الماء والكلأ ، وهذه لا تنبت ماء ولا كلأً ، وهذه تمسك الماء ولا تنبت الكلأ ، طبائع مختلفة فى الأرض ، هناك الأرض ذات التربة السوداء ، والأرض ذات التربة الحمراء ، وهكذا قطع متجاورات .

﴿ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ ﴾ أنواع مما يخرج من هذه الأرض منها النوع المتسلق ﴿ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ ﴾[الانعام : ١٤١] على عرائش مثل العنب ، وخص العنب بالذكر ؛ لأن له طبيعة خاصة ، هذا الكرم المتسلق والذى تصنع له العرائش ليتسلق عليها ،وهناك الزرع الذى ينتج الحبوب التى هى مصدر الأقوات من القمح والذرة والشعير والأرز ونحو ذلك كالخضروات التى تنبت على سطح الأرض ،وهناك النخيل هذا النوع السامق المرتفع العالى لطويل ذو الجذوع العالية ومثله من الأشجار المختلفة ،ولكن النخيل له أهمية خاصة ولا سيما عند العرب ، وهو صنوان وغير صنوان ، فالصنوان هى الفروع ذات الأصل الواحد ، وغير الصنوان .

هذه الأنواع المختلفة كلها يسقى بماء واحد ، ومن القراء السبعة من قرأ بالتاء تسقى وكلها قراءات صحيحة صحت عن رسول الله ﷺ[1] ، ويسقى – يعنى ما ذكر – كله بماء واحد ، أو تسقى – أى هذه الأشياء أيضًا – بماء واحد

---

(١) علم القراءات هو علم يعرف منه اتفاق ناقلى كتاب الله تعالى واختلافهم فى أحوال النطق به من حيث السماع ، وثمرته العصمة من الخطأ فى نقل القرآن ومعرفة وجوه القراءة ، وهو مستمد من النقول الصحيحة المتواترة عن أئمة القراءة عن النبى ﷺ ، وهو علم كفائى ، وقد وضع العلماء شروطًا ثلاثة للقراءة الصحيحة هى أن تكون متواترة عن رسول الله ﷺ وأن توافق وجهًا من وجوه اللغة العربية وأن يحتملها الرسم العثمانى للمصحف ، وأشهر القرّاء هم السبعة : نافع بن عبد الرحمن المدنى ، وعبد الله بن كثير المكى ، وأبو عمرو بن العلاء ، وعبد الله بن عامر ، وعاصم بن أبى النّجود ،وحمزة بن حبيب الزيات ، وعلى بن حمزة الكسائى ، ولكل واحد =

وإن اختلف مصدر هذا الماء ، هل هو من ماء الأمطار أو من مياه الأنهار ، أو من مياه الآبار ، أو من مياه العيون المتفجرة ، أو فى عصرنا مما حلّى من البحر أى ماء البحر المحلى ؟ وإن اختلف طريقة رى هذا الزرع أو هذا النخل أو هذا الكرم ، كطريقة الغمر ، أو طريقة الرشّ، أو طريقة التنقيط ، المهم أنه ماء واحد ، طبيعته واحدة ، وجوهره واحد ، مكون من الأكسجين والهيدروجين ، ومع أن هذا الماء واحد ، فإن هذه الأنواع يفضّل الله بعضها على بعض فى الأُكُل ، وفى الثمر والحب ، وفى الطعم هى مختلفة ، كما أنها مختلفة الأحجام والأشكال والألوان والطعوم والروائح وفى المذاق ، مع أن الأرض واحدة ، والتربة واحدة ، والماء واحد ، والشمس التى تتسلط عليها أضواؤها هى واحدة . فما الذى جعلها تختلف إذن ؟! طالما أن هناك وحدة فى التربة التى تغرس فيها إن كانت غرسا أو تبذر فيها إن كانت بذراً ، والماء الذى تسقى به واحد ، وكل ما يؤثر فى الزرع والغرس واحد كالهواء والضياء والحرارة . إن الله تعالى هو الذى يفضل بعضها على بعض فى الأكل ، سواء كانت القراءة « وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ » بالنون وبصيغة المتكلم أو كانت « وَيُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ ». عطفًا على قوله : ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ ﴾ وهو من العطف البعيد ولكن القراءة المشهورة هى بالنون : ﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ ﴾ ، فهذا دليل على أن هـناك صانعاً مختاراً ، على أن هناك فاعلاً حكيماً ، ليست الطبيعة الصماء هى التى تدبر هذه الأشياء ، فلا يمكن لها أن تصنع هذا ، وتخالف بين الأشياء ذات الطبيعة الواحدة والجوهر الواحد .

من الذى علّم البذرة المعينة للنبات المعيّن أن تمتص من الأملاح مقداراً

= من هؤلاء راويان ، أما قوله عز وجل : ﴿ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ﴾ فقد قرأه ابن عامر وعاصم بالتذكير (بالياء) والباقون بالتأنيث (بالتاء) انظر الضباع (تقريب النفع فى القراءات السبع) ص ٣ ، ٤ ، ١٣٨ مع بعض التصرف والزيادة .

محدداً ، أو تأخذ من الماء مقداراً محدداً ، أو تأخذ من الحديد ولا تأخذ من الفسفور مثلاً ؟ .

كل نبتة وكل بذرة وكل (شتلة) تأخذ من الأرض ما يناسبها ، فمن الذى علمها هذا ؟ وكيف عرفت هذه النسب وهذه القوانين المحكمة ؟ قال تعالى : ﴿ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُون ﴾ [الحجر : ١٩] وهو موزون فعلاً محدد النسب ، فمن علّم الفسيلة المغروسة أن تأخذ من الأرض ما يناسبها بمقدار معلوم ونسبة محددة لا تزيد ولا تنقص ؟ هو الله الذى يفضل بعضها على بعض فى الأكُل .

﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ إن فى ذلك - فى هذا الذى ذكر - لآيات - علامات - دالة على قدرة الله تعالى وعلى حكمته ، وعلى أنه لم يخلق شيئًا عبثًا ، ولم يترك شيئًا سدًى ، وإنما ينظم كل شىء بحكمته : ﴿ صُنْعَ اللهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [النمل : ٨٨] وهذا دليل على ما ذكره من قبل : ﴿ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ ودليل على أنه لابد من حياة بعد هذه الحياة ، ولابد من بعث ، ولابد من حساب ، ولابد من جزاء ، والذى صنع هذا كله قادر على أن يعيد الناس كما خلقهم أول مرة : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] هذا من ناحية القدرة ، ومن ناحية الحكمة : الذى فعل هذا كله لا يمكن أن يترك هذا الكون ينهدم ، ثم يدع كل شىء دون أن يأخذ المظلوم حقه ، ودون أن يأخذ الظالم عقوبته ! نهب الناهب ، وقتل القاتل ، وطغى الطاغى ، وظلم الظالم ، وأفلت هؤلاء من يد العقوبة الأرضية ، فهل يفلتون من العقوبة السماوية ؟ هل يفلتون من العدالة الإلَهية ؟ والذين عاشوا أعمارهم مضطّهدين ، يفعلون الخير ويُجْزَوْن السوء من الناس ، الذين نُكِّل بهم وشردوا وعذبوا لا لشىء إلا أن يقولوا : ربنا الله ، الذين سقطوا شهداء فى معركة الحق ومعركة الإيمان ، كيف ينالون جزاءهم إن لم تكن هناك حياة آخرة ؟ فهذا كله يدل على أن هذا الكون لا يمكن أن ينتهى بغير حياة يجزى الناس فيها بما عملوا ، إن هذا مما يجب أن يعقله الناس : ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

قال العلماء : إن الله تعالى ذكر فى ختام هذه الآية : ﴿ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ وفى الآية السابقة : ﴿ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ لأن أدنى نظر دون تفكر – يحتاج إلى إعمال الذهن وترتيب المقدمات للوصول إلى النتائج – يوصل إلى إدراك المراد ، كأن الأمر هنا أوضح من أن يحتاج إلى إعمال فكر ، فالعقل الفطرى البسيط بنظرة منه يعرف هذا ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

والقرآن – كما ذكرنا من قبل – يهتم بهذا الجانب العقلى ، أن يعمل الإنسان عقله ، وقد نزل القرآن لقوم يعقلون ، ولم ينزل لأولئك الذين أغلقوا عقولهم ، أو عطلوا مداركهم ، أو جمّدوا ما وهب الله لهم من أدوات المعرفة والفهم ، فخرّبوا الأجهزة التى منحهم الله إياها ، وإنما نزل القرآن لقوم يعقلون فيستفيدون من الآيات الكونية ، ومن الآيات التنزيلية ، من الآيات المشهودة ، ومن الآيات المقروءة ، وقد جاءت كلمة (تعقلون) فى أربع وعشرين آية من القرآن الكريم بالخطاب هكذا ، وجاءت (يعقلون) فى اثنتين وعشرين آية ، وهذا كله نداء للعقل أن يتحرك .

فإذا نظرنا إلى هذه الآيات الأربع ، وجدنا أنها اهتمت بأربعة أشياء تعتبر أسسًا للحياة الإسلامية :

أولها : الإيمان بالله تبارك وتعالى .

وثانيها : اليقين بلقاء الله تبارك وتعالى .

وثالثها : التفكر فى مخلوقات الله فى كونه .

ورابعها : التعقل لآيات الله سبحانه وتعالى .

فالآية الأولى ختمت بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى بهذا الحق الذى أنزله الله ، فدلنا على أن الإيمان أساس لابد منه ، وختمت الآية الثانية بقوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴾ فاليقين بالآخرة وبالجزاء وبلقاء الله تعالى أساس آخر ، ثم ختمت الآية الثالثة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ ، وختمت الآية الرابعة بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ، ونلاحظ أن

الآيتين الأوليين تتحدثان عن الإيمان واليقين ،وأن الآيتين الأخريين تتحدثان عن التفكر والعقل ، وبهذا تقوم الحياة الإسلامية على الإيمان بالله ، واليقين بلقائه ، وعلى التفكر والتعقل لآيات الله والنظر فى كونه ، وليس هناك انفصال بين الجانبين ، ولا صراع بين المجالين .

عرفت أديان أخرى الصراع بين الدين والعلم ، أو بين اليقين والفكر ، أو بين العقيدة والمعرفة ، أو كما عبَّر بعضهم بين الشريعة والحكمة ، ولكن الإسلام لم يعرف هذا النزاع ولا هذا الصراع ؛ لأن الإسلام – كما قلنا دائمًا – يحترم العقل ويعتبره دليلاً على وجود الله تبارك وتعالى ، وعلى وحدانيته وعلى كمال صفاته ، كما يعتبره دليلاً على الآخرة ، وهو دليل أيضًا على ثبوت النبوة ، لهذا فليس عندنا نحن المسلمين ما عند غيرنا من هذه المعركة التاريخية بين النقل والعقل ، أو بين الوحى والعقل ، أو بين الدين والعلم .

وهذا ما تدل عليه هذه الآيات الكريمة ، والآية الأخيرة آية الزرع والنخيل والأعناب آية واضحة ، ولكن الناس غفلوا عنها مع أن بعض الشعراء مثل أبى نواس على ما اشتهر عنه من مجون له أبيات لطيفة يقول فيها :

تأمل فى نبات الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليكُ
عيون من لجين شاخصاتٌ ... بأبصارٍ هى الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهداتٌ ... بأن الله ليس له شريك

وبعض الراجزين له كلمة فى المعنى الذى ذكرته الآية يقول :

والأرض فيها عبرة للمعتبرْ ... تخبر عن صنع مليك مقتدر
تسقى بماء واحد أشجارها ... وبقعة واحدة قرارها
والشمس والهواء ليس يختلف ... وأكلها مختلف لا يأتلف
لو أن ذا من عمل الطبائع ... أو أنه صنعة غير صانع
لم يختلف وكان شيئًا واحدا ... هل يشبه الأولاد إلا الوالدا ؟

الشمس والهواء يا معاند والماء والتراب شيء واحد
فما الذى أوجد ذا التفاضلا إلا حكيم لم يرده باطلا

هذا هو الله سحانه وتعالى ولذلك بعد أن ذكر القرآن هذه الآيات عجّب الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ – وهو تعجيب لغيره أيضًا من باب أولى – من هؤلاء الذين يجحدون البعث والمعاد مع وضوح هذه الآيات البينات قال تعالى : ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ .

ذكر القرآن هنا – مع وضوح الآيات التى تدل على وحدانية الله وعلى وجوده وبالغ حكمته وعظيم قدرته ، وعلى أنه لا يمكن أن يترك هذا الكون عبثًا-ثلاثة مواقف ما كان ينبغى أن يقفها هؤلاء الكافرون بعد وضوح هذه الآيات .

الموقف الأول : إنكار البعث والمعاد ، **الموقف الثانى** : الاستعجال بالسيئة قبل الحسنة ، **الموقف الثالث** : اقتراح آيات غير القرآن : ﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ .

فأما الأول : إنكار البعث : فهو استبعاد أن ينشىء الله الناس مرة أخرى بعد أن هلكوا ، بعد أن رمّت العظام وبليت كما قال أحدهم لرسول الله ﷺ – وجاء له بعظم قد رمّ وبلى – أيحيى هذا الله بعد أن رمّ وبلى ؟ قال ﷺ نعم ويحييك ويبعثك ويدخلك النار [1] ، وجاء فى هذا قول الله تعالى : ﴿ وَضَرَبَ

---

(١) أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر والبيهقى عن أبى مالك قال : جاء أبى بن خلف بعظم نخرة فجعل يفته بين يدى النبى ﷺ قال : من يحيى العظام وهى رميم ؟ فأنزل الله : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ وأخرج مثله عبد الرزاق ، وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة رضى الله عنه ، وأخرج ابن أبى حاتم مثله عن السدى رضى الله عنه وكذلك أخرج عن عكرمة مثله ، وأخرج أيضًا ابن مردويه مثله عن ابن عباس رضى الله عنهما وفيه أن النبى ﷺ قال يبعث الله هذا ويميتك ثم يدخلك جهنم ، قال ابن عطية فى المحرر الوجيز جـ ١٢ ص ٣٢٨ « واسم أبىّ هو الذى خلط على الرواة لأن الصحيح هو ما رواه ابن وهب عن مالك وقاله ابن إسحاق وغيره : إن أبى بن خلف أخا أمية بن خلف هو الذى جاء بالعظم الرميم بمكة ففته فى وجه النبى ﷺ » أ . هـ .

لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ [يس : ٧٨ ، ٧٩] ، والقرآن يحكى عن هؤلاء هذا الإنكار وهذا الاستبعاد ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا ﴾ أبعد أن نموت ونبلى وتصبح أجسامنا ترابا ﴿ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ؟! وهذا الاستفهام إنكارى ، ينكرون فيه هذا الأمر ، أمعقول أن نخلق خلقًا جديدًا ؟ نبعث ونكون فى خلق جديد يخلقنا الله ويعيدنا بعد أن أصبحنا ترابًا ؟ ، وقد ذكر القرآن هذا الإنكـــار فى غير ما موضع ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ [سورة ق : ٣] ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [سبأ : ٧] ﴿ أَئِذَا مِتْنَا وكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ [الصافات : ١٦] وغير ذلك مما حكاه القرآن عن استبعادهم أن يعيدهم الله بعد أن بلوا وأصبحوا ترابًا .

وقد خاض القرآن الكريم معارك ممتدة حامية الوطيس ، خلال العهد المكى كله حفلت بها سور القرآن المكّى ، ولم تخل منها السور المدنية ، ومعركة التوحيد هى أُمّ المعارك الفكرية والعقدية الكبرى التى خاضها القرآن الكريم ، ومنها معركة الآخرة والجزاء ، ومعركة النبوة والرسالة ، حفل القرآن الكريم بتلك المعارك ليخرج أولئك الذين عاشوا فى ظلمات الجهالة والتقليد والعبودية للوثنية والجاهلية ، ليخرجهم : ﴿ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم : ١] .

معركة البعث والجزاء فى القرآن :

كانت معركة البعث والجزاء والخلود فى الآخرة إحدى هذه المعارك الأساسية ومن هنا ذكر القرآن الكريم – يخاطب النبى ﷺ – ﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تَرابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾[الرعد : ٥] هل هذا الخطاب للنبى ﷺ ؟ أو لكل من يصلح له الخطاب ، فهو خطاب عام ، الأصل أنه للنبى ﷺ لأن السورة من أولها﴿ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ وبعد ذلك :﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾[الرعد : ٥] وبعده : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ

وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد : ٧] فالخطاب مع النبى ﷺ مستمر ، ولكنه يصلح أيضًا لكل من يتأتى له الخطاب كما يقال : « إياك أعنى واسمعى يا جارة » ، إن تعجب يا محمد ، إن يكن منك عجب من شىء فالعجب كل العجب ، عجب أى عجب ، وعجب غريب حقًا هو قول هؤلاء الناس المطموسين المقلدين ﴿ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ وقد تكرر هذا الاستفهام الإنكارى مرتين فى هذه الفقرة دلالة على تأكيد الاستنكار من هؤلاء .

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ القرآن هنا لم يرد عليهم ؛ لأنه اكتفى بما ذكر من الآيات ، ففيها غنية عن الرد ، ولذلك اكتفى بأن دمغهم بالكفر والجحود ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ والكفر فى لغة العرب معناه الستر والتغطية ، فكأن هؤلاء غطوا الحقائق وغلفوها بغلاف ، بحيث لا ينظرون إليها ولا يلتفتون إليها : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ﴾ فأعماهم الكفر عن أن يروا قدرة الله تبارك وتعالى ، وقد رأوا من آياته ما رأوا ، ومن أجل ذلك يسمى الزارع كافرًا حيث يكفر البذرة ويغطيها فى التراب ، ولهذا قال بعض المفسرين فى قوله تعالى : ﴿ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ [الحديد : ٢٠] أى أعجب الزراع ، ويسمى الليل كافرًا لأنه يستر ما فيه بالظلمة ، وفى بعض اللغات الأجنبية (كفر) بمعنى غطى أو هو نوع من التغطية ، ولعلها أخذت من العربية ، فالكافر هو الذى يستر الحقيقة بجهله أو بعناده أو بتقليده الأعمى أو بكبريائه وحسده ، إن الحقيقة واضحة ولكنه يسترها ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل : ١٤] ﴿ حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة : ١٠٩] .

ويبرز هنا سؤال ، فقد كفر هؤلاء بالآخرة والبعث وإعادة الأموات ، فلماذا اعتبر القرآن هذا كفرًا بالله تبارك وتعالى ؟ ذلك ، لأن من كفر بالبعث بعد الموت فهو فى الحقيقة قد كفر بالله تبارك وتعالى ، فالقضية مبنية على استبعاد أن يحدث هذا فكأن هذا إنكار لقدرة الله تعالى على الإعادة والإحياء ، والقرآن يقول : ﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [سورة ق : ١٥] إن الله لم يعى بالخلق الأول ولم يعى بما هو أكبر من خلقكم ، فقد خلق

السموات والأرض : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر : ٥٧] ﴿ أَوَ لَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَى ، وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴾ [يس : ٨١] ، ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحيِىَ الْمَوْتَى ، بَلَى ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأحقاف : ٣٣] .

لذلك كان الكفر بالبعث وبالمعاد وبالساعة كفرًا بالله تبارك وتعالى ، وقد ذكر القرآن لنا فى سورة الكهف فى قصة صاحب الجنتين : ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَى رَبِّى لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ثُمَ سَوَّاكَ رَجُلاً ﴾ [الكهف : ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧] لماذا دمغه بالكفر بالله تبارك وتعالى مع أنه كفر بالساعة فقط حين قال : ﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ لأن من كفر بالساعة وكفر بالمعاد وكفر بالبعث ، فقد كفر بالله تبارك وتعالى ، كفر بقدرة لله على الإعادة والبعث والإحياء ، وكفر من ناحية أخرى بعدل الله تبارك وتعالى وحكمته ، لأنه نسب إلى الله تعالى أنه خلق هذا الكون عبثا ، خلق السموات والأرض وما بينهما باطلاً ، فمعنى أن لا معاد ولا بعث ولا جزاء : أن ينهدم هذا السرادق الكبير الذى أقامه الله تبارك وتعالى ، وقد ظُلم فيه من ظلم ، واضُطهد فيه من اضطهد ، وقُتل من قتل ، واستُشهد من استشهد ، وفعل الطغاة والمستكبرون الأفاعيل ، وارتكبوا الموبقات ، وعبّوا من الشهوات عبًّا ، وسفكوا دماء الناس سفكًا ، بنوا قصورهم من جماجم البشر ، وزخرفوها بدماء الخلق ، دون أن يُجزَى هؤلاء ، أفلتوا من عدالة الأرض ، وأفلتوا من عدالة السماء ، لم يعاقبوا فى الدنيا ، لأن من السهل فى الدنيا أن يفلت الإنسان من العقوبات الأرضية ومن العقوبات القانونية . وقد يكون هذا الإنسان نفسه هو واضع القانون وهو ظالم ، أو حارس القانون ، ولكن « حاميها حراميها » كما يقولون :

وراعى الشاة يحمى الذئب عنها   فكيف إذا الرعاة لها ذئاب ؟!

هؤلاء الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد ، وارتكبوا الشرور، وقبائح الأمور ، وانتهت الدنيا ولم يأخذوا عقابهم ، وأولئك الذين عاشوا فى الدنيا للخير ولكنهم لم يكافأوا،تنكر لهم الناس أو اضطهدوهم أو قتلوا ظلماً . كالمؤمنين الذين ذكرهم الله فى سورة البروج ، ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج : ٨] وغيرهم من الأنبياء والشهداء والصديقين والصالحين ، الذين حفل بهم تاريخ الدعوة إلى الله عز وجل ، إذا انهدم هذا الكون ولم يجز المحسن بإحسانه ، ولا المسيء بإساءته ، فمعنى ذلك أنه ليس هناك عدالة وليس هناك حكمة ، كأنما اتهمنا صانع هذا الكون ومدبره بأنه لم يقمه على الحق والحكمة، وهذا ما نفاه الله تبارك وتعالى ونزّه ذاته المقدسة عنه ، يقول الله عز وجل : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ * فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ [المؤمنون :١١٥ ، ١١٦] ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الدخان : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠]، ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢١ ، ٢٢] ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [سورة ص : ٢٧ ، ٢٨] لا يستويان فى عدل الله عز وجل ، ساء ما يحكمون ، هذا هو الباطل الذى يتنزه الله تبارك وتعالى عنه ، ولذلك كان الذين ينكرون البعث والجزاء فى دار غير هذه الدار ، توفىَّ فيها كل نفس ما كسبت ، وتخلد فيما عملت ، إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] كان إنكار هذا بمثابة اتهام للعدالة الإلَهية وللحكمة الإلَهية ، ومن هنا كان هذا كفراً بالله تبارك وتعالى ، كفراً بالقدرة الإلهية ، وكفراً بالحكمة الإلَهية ،

وبالعدالة الاجتماعية،ولا عجب أن يقول القرآن: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم ﴾ جحدوا قدرته ، أو عدله وحكمته عز وجل ، ولم يقوموا بحقه .

والكفر أحيانا يقابل الشكر ، وأحيانا يقابل الإيمان ، فإذا كان كفراً بالمنعم نفسه قابله الإيمان كما فى قوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] ، وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ﴾ [النساء : ١٣٧] ، وإذا كان كفراً بالنعمة قابله الشكر كما فى قوله تعالى : ﴿ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ، وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ، وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل : ٤٠] وقوله : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ، وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] فالذين كفروا بربهم ، كفروا بالنعمة وكفروا بالمنعم .

﴿ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِم ﴾ هؤلاء الذين أنكروا البعث وعجبوا مما لا يجوز التعجب منه — إذ أصل التعجب أنه حالة تعرض للإنسان إذا رأى ما لا يعهد مثله ولا يعلم سببه ، أما الشيء الذى يعهد مثله أو يعرف سببه ، فلا ينبغى أن يتعجب منه ، ولذلك يقول الناس : إذا عرف السبب بطل العجب .

فإحياء الله تعالى الموتى أمر يعهد مثله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [يس : ٧٩] وهناك إحياء الأرض بعد موتها : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ، إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى ، إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [فصلت : ٣٩] فهذا أمر يعهد مثله ، ويعرف سببه ، فالله سبحانه وتعالى هو فاعل هذا ، هو صاحب هذا الكون ومنشئه ، هو الذى لا يعجز قدرته شيء ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] فما كان ينبغى العجب إطلاقاً .

معنى الأغلال فى أعناق الكفار :

﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ الأَغْلاَلُ فِي أَعْنَاقِهِم ﴾ هذه الأغلال أى السلاسل فى الأعناق : أهى أغلال فى الدنيا ؟ أم هى أغلال فى الآخرة ؟ أم

هى الأمران معًا؟ وهذا معقـول فأغلال الدنيا أغلال معنـوية كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلاَلاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴾ [يس : ٨ ، ٩] هذه القيود والأغلال الفكرية ، أغلال التقليد الأعمى التى تجعل بعض الناس لا ينظرون إلى الحقائق وهى واضحة ، ولا إلى الآيات وهى بينة ، ولا إلى الدلائل وهى أظهر ما تكون ، إنما يقولون : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٢٣] ، ويقولـون : ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ [البقرة : ١٧٠] وكما يقول الشاعر :

أين الرشاد وقد خُلّفتُ فى نفر   لهم عن الرشد أغلال وأقياد ؟

هذه هى الأغلال التى تجعلهم يعيشون فى داخل الضلال مغلولين مقيدين لاخلاص لهم ، وهذه الأغلال الدنيوية تؤدى فى الآخرة إلى أغلال أخرى حيث تغل أعناقهم ويسحبون إلى النار ، والعياذ بالله ﴿ إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ * فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر : ٧١ ، ٧٢] ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلاً وَأَغْلالاً وَسَعِيرًا ﴾ [الإنسان : ٤] فأغلال الدنيا هى التى تؤدى بهم إلى أغلال الآخرة .

الخلود فى النار :

﴿ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ هم أصحاب النار الملازمون لها ، وقد أصبحت صحبة بينهم وبينها ، وهم الذين ألقوا بأنفسهم فى هذه النار ، فما الذى أرداهم فى النار ، وما الذى سلكهم فى سقر ؟ إنه الكفر بربهم ، بآيات ربهم برغم ما وضع الله لهم من دلائل ، وما وضح لهم من آيات ، وأصحاب النار تعبير قرآنى تكرر كثيرًا ، وفى مقابلها أصحاب الجنة [١] ، وإنما

(١) تعبير « أصحاب النار » ورد عشرين مرة فى القرآن كله ، وورد تعبير « أصحاب الجحيم » ست مرات وتعبير « أصحاب السعير » ثلاث مرات ، كما ورد تعبير « أصحاب الجنة » أربع عشرة مرة ، وورد تعبير « أصحاب الشمال » و « أصحاب اليمين » و « أصحاب الميمنة » و « أصحاب المشأمة » غير مرة وورد غير ذلك ، انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة ص ٦٥٨ ، ٦٥٩ جـ ١ .

سَمُّوا أصحاب النار ؛ لأنهم مصاحبون لها ، طالت ملازمتهم ومعاشرتهم لها ، وهم المعذبون فيها الذين يلازمونها وتلازمهم ، وقد جاء التعبير بأصحاب النار مرة واحدة عن الذين يتولون خزانتها ، ويقومون على التعذيب فيها ، وذلك قول الله تعالى فى سورة المدثر : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلاَئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [المدثر : ٣١] ، أما فى باقى المواضع فأصحاب النار هم الذين دخلوها واستحقوا العذاب فيها ، فهم أصحابها وهى صاحبتهم ، وبئست الصحبة ! .

﴿ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ الخلود فى اللغة هو المكث الطويل ، وخلود كل شىء بحسبه ، فخلود الكفار فى النار خلود بلا موت كما صحّ فى الحديث « يا أهل النار خلود فلا موت ، ويا أهل الجنة خلود فلا موت » [١] إلى ماشاء الله ، ولو كان الخلود مائة سنة أو مليون سنة أو تريليون سنة ، ولكنه خلود الأبد ﴿ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ حكم الله على هؤلاء الذين انكروا البعث واستبعدوا أن يحيى الله الناس بعد موتهم فكفروا بربهم ، كفروا بقدرته وبشمول قدرته ، وكفروا ببالغ حكمته ، وكفروا بكمال عدله وملكه وحمده .

* * *

(١) أخرجه البخارى فى كتاب التفسير من حديث أبى سعيد الخدرى باب قوله وأنذرهم يوم الحسرة سورة مريم ، وهو حديث طويل جاء فى لفظه « يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فلا موت .. » كما أخرج قريباً من لفظه عن ابن عمر فى كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار ، وأخرجه مسلم فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، والترمذى فى الجنة ، وابن ماجه فى الزهد ، والدارمى فى الرقاق ، وأحمد فى مسنده .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ من قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ للنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ * وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ، إِنَّمَا أنتَ مُنذِرٌ ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد : ٦ ، ٧] .

المراد بالسيئة والحسنة :

تكلمنا فيما مضى عن موقف الكافرين الأول الذى سجله القرآن الكريم من إنكارهم للبعث والمعاد ، وبين أيدينا الآن موقفهم الثانى الذى سجله القرآن الكريم من الاستعجال بالسيئة قبل الحسنة ، تلك المقولة من مقولاتهم ، من نتائج الكفر الذى ينضح بهذه الرذائل والجرائم ، رذيلة تلو رذيلة ، وجريمة بعد جريمة ، أنهم يستعجلون رسول الله ﷺ بالسيئة قبل الحسنة ، والمراد بالسيئة هنا العقوبة تنزل عليهم من السماء ، فكلمة السيئة والحسنة تردان فى القرآن بمعنيين : السيئة بمعنى المعصية ، والحسنة بمعنى الطاعة كما فى قوله تعالى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ، وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا ﴾ [الانعام : ١٦٠] وكما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود : ١١٤] ، وتردان بمعنيين آخرين ، الحسنة : النعمة تنزل بالإنسان تسره والسيئة النقمة والمصيبة والعقوبة تنزل بالإنسان فتسوءه مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هذه مِنْ عند الله ، وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذه مِنْ عندكَ ﴾ [النساء : ٧٨] فالحسنة هنا بمعنى النعمة من عند الله والسيئة من شؤم محمد ، ويقول الله تعالى : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله وَمَا أَصَابَكَ من سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء : ٧٩] وهذا كثير فى القرآن : ﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الاعراف : ١٦٨] أى بالنعم والمصائب ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا .. ﴾ [الاعراف : ٩٥] .

فالمراد هنا : ﴿ بالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الحَسَنَةِ ﴾ المصيبة والنعمة ، وحينما يستعجلون رسول الله ﷺ يستعجلونه العقوبة تنزل بهم ، وهذا للأسف من جناية الجاهلية على عقل الإنسان ، من جناية الوثنية أن يستعجل الإنسان ما يضره : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ

وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٥٣ ، ٥٤] ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللهِ ذِى الْمَعَارِجِ ﴾ [المعارج : ١ ، ٢ ، ٣] وهذا السؤال وهذا الاستعجال استعجال للعقاب وهو من غبائهم وجهلهم كما حكى عنهم القرآن ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال : ٣٢] أرأيتم خبلاً أشد من هذا الخبل ؟! كان المعقول أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له ووفقنا إليه ، أما أن يقولوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم فمعناه أنهم لا يريدون هذا الحق الذى جاء به محمد بن عبد الله حتى وإن كان حقًّا واضحًا صراحا ، فهذا هو الغباء ، وهذا هو الجهل الذى تجنيه الجاهلية الوثنية على الإنسان : أن يستعجل بعذاب الله عز وجل : ﴿ خُلِقَ الإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِى فَلا تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٧] ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الحجر : ٦ ، ٧] بالملائكة وليس بالعذاب ، ولكن الملائكة تنزل فى وقت معين ، والله لا يعجل بعجلة الإنسان ، فالعقاب ينزل ولكنه ينزل فى أجل مسمى فى وقت معلوم قدره الله تعالى بمشيئته المرتبطة بحكمته ، وهو لا يعاجل الناس بالعقوبة وإن طلبوا هم هذه العقوبة وإن سألوها بغفلتهم وجهلهم وضلالهم ، بل يقيم عليهم الحجة بعد الحجة ويقطع عنهم التعلّة والأعذار ويرخى لهم العنان ، ثم بعد ذلك يكون عقابه الشديد الأليم .

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ بالشر قبل الخير ، وكان المعقول أن يستعجلوا بالخيرات قبل الشرور ، بالنعم بدل المصائب ، ولكنهم فعلوا غير ذلك .

﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ ﴾ قد مضت العقوبات الإلهية الواضحة التى نزلت بمن قبلهم من الأقوام الذين كذبوا بآيات الله وعصوا رسله ﴿ وَاتَّبَعُوا

أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ [هود : ٥٩] فنزلت بهم العقوبات الإلٰهية التى أصبحت أمثالاً سائرة ، وهذا معنى المثلات ٠

﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ ﴾ ما نزل بقوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب ، بالأقوام المشركة الكافرة ، نزل بهم عذاب الله : ﴿ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [هود : ١٠١] جاء أمر الله ليلاً أو نهاراً فجعل الله تلك القرى : ﴿ حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ ﴾ [يونس : ٢٤] قد خلت من قبلهم المثـــلات : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات : ١٣٧ ، ١٣٨] ألم تروا مدائن صالح وغيرها فى طريقكم إلى الشام وغيرها تمرون عليهم مصبحين وبالليل ، ألم تسيروا في الأرض فتنظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم أثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمرتموها وكانوا أكثر أموالاً وأولاداً وأشد قوة وأعز نفراً وكان هذا مصيرهم ، فكان يجب أن تعتبروا بمصاير هؤلاء : أن تنتفعوا بالتاريخ بدل أن تغمضوا أعينكم عن هذه الصفحات البينة من مصاير الأقوام المكذبين من قبلكم ، وكان ينبغى أن تأخذوا منها دروساً بليغة ، فالتاريخ واعظ ومعلم ولكن لمن ؟ لأولى الألباب ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِى الأَلْبَابِ ﴾ [يوسف : ١١١] ٠

ولكن هؤلاء ليسوا من أولى الألباب ، أفقدهم لبهم وأفقدهم عقلهم هذا الشرك الذى هو وكر للضلالات والخرافات يقول الله تعالى : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ ﴾ مصاير الأقوام الذين كانوا قبلهم : ﴿ فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ، فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ، وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ، وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ ، وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ، وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[العنكبوت:٤٠] وكل واحد من هؤلاء الأقوام كانوا أشد من هؤلاء،ليست قريش وليس عرب مكة ولا عرب الحجاز أشد مما كانت عليه عـاد الذين استـكبروا فى الأرض﴿ وَقَالُوا مَنْ أَشَــدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت:١٥] وليسوا مثل ﴿ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلاَدِ ﴾

[الفجر: ٧ ، ٨] وليسوا كمثل ثمود: ﴿ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴾ [الفجر : ٩] وليسوا كفرعون ذى الأوتاد وصاحب الأهرام . لن يكونوا مثل هؤلاء الأقوام ، لقد أوتوا أكثر مما أوتوا من وسائل القوة ، وأسباب الحضارة والعمران والمنعة والعزة ، ولكن هذا كله لم يغن عنهم من الله شيئًا ، حينما جاء أمر الله لم يغن عنهم العدد ولا العُدد ﴿ إِنّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر : ١٤] .

المغفرة والبطش من صفات الله :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الرعد : ٦] هذا هو شأن الألوهية مغفرة من ناحية وعقاب شديد من ناحية أخرى ، ومن أجل هذه المغفرة أمهلهم وتركهم ، كان يقدر أن يعجلهم بعقوبته ، ولكنه أمهلهم وأعطاهم فرصة بعد فرصة ، عسى أن يهتدى الظال ، وعسى أن يرشد الغاوى ، وعسى أن يستقيم المعوج .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ﴾ مع ظلمهم ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ فى الوقت نفسه ، وهذا هو شأن الألوهية فى القرآن الكريم . ومن قرأ الإنجيل وجد فيه جانب المغفرة والرحمة غالبًا ، ومن قرأ التوراة وجد جانب العقوبة والسطوة والانتقام هوالغالب ،ولكن القرآن يصف لنا الله سبحانه وتعالى بمجامع الحمد والكمال ، المغفرة من ناحية والعقاب من ناحية ﴿ نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ [الحجر : ٤٩ ، ٥٠] ، ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٧] ، ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ ، لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [غافر : ٣] ، ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٩٨]، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [فصلت : ٤٣] هذا هو شأن الألوهية ، الله تعالى يتصف بالجلال والجمال ، ولذلك فبعض الصفات تجلى فيها الجلال والرهبة وأخرى تجلى فيها الجمال ، البسط والقبض ، أو كما جاء فى القرآن الجلال والإكرام :

﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٧] وإن كانت صفة الرحمة أغلب ، ولهذا نجد فى القرآن أن المغفرة والرحمة من أسمائه وأوصافه ، وأن العقاب من أفعاله ، ولذلك يقول: ﴿ نَبِّىءْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾[الحجر : ٤٩ ، ٥٠] ولم يقل : وأنى أنا المعذِّب ، فليس من أسمائه الحسنى المعذب ، وإنما من أسمائه الغفور الرحيم ، فالرحمة أغلب ﴿ قَالَ عَذَابِى أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾[الأعراف : ١٥٦] ولكنــه يذكر لنا الأمرين معًا لأن هــذا هو الواقع ، هذه هى صفات الله عز وجل .

ومن ناحية أخرى هكذا تكون التربية ، التربية ترغيب وترهيب ، ترجية وتخويف ، ينبغى أن يكون الإنسان دائمًا بين الرجاء والخوف ، لا يغلب عليه الرجاء حتى يبلغ درجة الأمن من مكر الله ﴿ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُون ﴾ [الأعراف : ٩٩] ولا يغلب عليه الخوف حتى يبلغ درجة اليأس من روح الله: ﴿ وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [يوسف : ٨٧] إنما يكون دائمًا راجيًا خائفًا ﴿ يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ [الزمر : ٩] الرجاء يقوده ، والخوف يسوقه ، كما ذكر الإمام الغزالى أن النفس الإنسانية أشبه بالدابة الحرون ، تحرن الدابة على الإنسان أحيانًا فتحتاج إلى شىء من الشعير أو غيره يلوح لها به ، وأحيانا تحتاج إلى سوط فيضربها ، وهكذا الإنسان يحتاج أيضا إلى هذا الرجاء وإلى ذلك الخوف ومن هنا جاء الأمران معًا فى القرآن الكريم ، وجاءت صفات الله تعالى تمثل الأمرين ، وجاء ذكر الوعد والوعيد ، والجنة والنار ﴿ وَفِى الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ [الحديد : ٢٠] وهكذا ينبغى أن يفهم القرآن الكريم .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِم ﴾ مع ظلمهم إن ربك لذو مغفرة لهم ولهذا لا يعاجلهم بعقوباته ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[النحل : ٦١] لا يؤاخذ الله الناس بظلمهم بكل سيئاتهم ، قد يؤاخذهم ببعض ذنوبهم ، ببعض ما عملوا : ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ واسم الرب من التربية ، وهذا من تربيته عز وجل ، يربى الناس بإظهار المغفرة الواسعة ، وبإظهار العقاب الشديد ، وقد جاء وصف الله تعالى بشدة العقاب فى القرآن فى أربعة عشر موضعاً ، وذلك أن العقاب الهين لا يؤثر فى المجرمين ، وخصوصاً إذا أصرُّوا على إجرامهم ، ولجوا فى طغيانهم فلابد حينئذ أن تكون العقوبة شديدة ، أما العقوبة الشكلية أو السطحية فهى لا تنفع مع هؤلاء الناس .

سنة الله فى الدنيا والآخرة هى إثابة المحسن وعقوبة المسىء ، الثواب والعقاب . على هذا قامت هذه الحياة الدنيا ، وعلى هذا تقوم الحياة الأخرى ، لا تستقيم الحياة بغير هذا كما قال ذو القرنين من قديم : ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ [الكهف : ٨٧ ، ٨٨] أما أن يحسن المحسن ولا يكافأ على إحسانه ويسىء المسىء ولا يعاقب على إساءته فهذا مصدر من مصادر الشرور والآثام ، ولهذا إذا فعل الإنسان الخير وأحسن ، ولم يقل له أحد كلمة شكر ، لم يثب ماديًّا ولا أدبيًّا ، مع أن المثوبة الأدبية تكون مجزية أحيانًا ، أن تقول له أحسنت ، أن تعترف له بالفضل ، إذا لم يحدث هذا وقوبل بالتنكُّر والإساءة فقد يؤدى هذا إلى أن يتنكّب الإنسان عن فعل الخيرات ، وعن أداء الحسنات ، كذلك إذا ظل المسىء يسىء ويبالغ فى الإساءة ، ويستمر فيها وينتقل من سيىء إلى أسوأ ، ومن الأسوأ إلى الأشد سوءاً ، ولا يعاقب على ذلك فمعنى هذا أننا نفتح الطريق للشر ليتمادى ويتفاقم ولهذا يقول الناس : « من أمن العقوبة أساء الأدب » .

سنة الله أن يثيب المحسنين ويعاقب المسيئين ، وخصوصًا إذا كانت الإساءة بالغة وكانت بعد إبلاغ الحجة وقطع العذر ، فلا تنزل العقوبة إلا بعد أن يتضح الأمر تمامًا﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾[الأنفال : ٤٢] حتى وإن طلبوا العقوبة لكنهم لا يعاقبون ، ولكن عندما تنزل العقوبة الإلهية فما أشدها وما أوجعها ! وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٢]

وكما قال عز وجل : ﴿ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[القمر : ٤٢] وفى هذه السورة يقول : ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ إنه العقاب الشديد الأليم الذى من شدته لا يقاوم ولا يفلت أحد منه ، حتى إذا ظن قوم أنهم يستطيعون بوسيلة من الوسائل أن ينجوا من عقاب الله ، فهيهات هيهات ، كما قال الله تعالى فى يهود بنى النضير : ﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ﴾[الحشر : ٢] وكما ظن ابن نـوح ، الابن الكافر لنــوح ﴿ قَالَ سَآوِى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ الْمَاءِ ، قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ ، وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾[هود : ٤٣] عقاب الله شديد لا يقاوم ، وهذا عقــاب الدنيا ، وهناك عقــاب فى الآخرة : ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنصَرُونَ ﴾[فصلت : ١٦] عــذاب الآخــرة أشد وأخزى وأنكى ، وعذاب الدنيا بالنسبة لعذاب الآخرة لا يكاد يساوى شيئًا ؛ لأنه عذاب ينتهى فى لحظات .

اقتراح الآيات الكونية :

ثم يأتى الموقف الثالث للكافرين الذى سجله القرآن الكريم فى الآية التالية فيقول الله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ، إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[الرعد : ٧] وقد تكررت عبارة ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ هذه فى تلك السورة ثلاث مرات ، فى هذا الموضع وفى قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ، قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾[الرعد : ٢٧] والآية الثالثة :﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً ، قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ، وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾[الرعد : ٤٣] .

وصفهم الله تعالى بهذا الوصف : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ وهذا يؤذن بأن الذى أدى إلى هذه المقولة إنما هو كفرهم ، فالكفر شجرة خبيثة لا ينبت منها إلا خبيث ولا تثمر إلا خبيثًا ، فالكلمات الخبيثة من نتاج هذا الكفر ، فهو ينعى عليهم هذا الكفر الذى أدى إلى هذه المقولات السخيفة .

يقول الذين كفروا من مشركي مكة ومن مشركي العرب : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ ﴾ ولولا هذه تحضيضية كما يقول علماء النحو ، هلاّ أنزل عليه آية من ربه ؟ يقصدون آية من آيات الخوارق الكونية الحسية ، كما أنزل على موسى وقد جعل الله من آياته العصا تنقلب حية ، واليد يخرجها من جيبه فتصبح بيضاء من غير سوء ، وكان موسى أسمر اللون ، والآيات التسع التي ذكرها الله تعالى في القرآن [1] ، وكما أنزل على عيسى وقد جعل الله من آياته إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، ويخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله ، فهم يريدون أن تكون آية محمد صلى الله عليه وعلى الرسل من قبله وسلم من هذا النوع من الآيات ، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أن تكون آية محمد الأولى والعظمى آية من نوع آخر : آية عقلية ، آية أدبية ، تلائم ما انتهى إليه هذا الطور من أطوار البشرية .

البشرية نضجت وبلغت أشدها ورشدها ، ولم يعد يناسبها في هذه الرسالة العامة الخالدة التي ختمت بها الرسالات آيات من تلك الآيات المادية الحسية التي تنتهي بمجرد وقوعها ، ونحن الآن لا نعايش آية موسى ولا عيسى ، ولولا أن القرآن حدثنا عن العصا وعن اليد ما عرفنا عنهما شيئًا ، وكذلك آيات عيسى التي ذكرها القرآن ، وفي القرآن بعض آيات لعيسى ليست في الإنجيل حتى أناجيل النصارى ليست فيها هذه الآيات ، مثل آية المائدة وغيرها ، فهذه الآيات انتهت بمجرد أن وقعت ورآها الذين شاهدوها أما من بعدهم فلم يروا شيئًا .

أما القرآن الكريم الذي أنزله الله على محمد ﷺ فهو آية عقلية معنوية أدبية تبقى ما بقي الإنسان وما بقي الزمان وما بقي المكان ، لذلك فهي موجودة إلى

---

(١) قال ابن كثير المفسر « وهي الدلائل القاطعة على صحة نبوته وصدقه فيما أخبر به عمن أرسله إلى فرعون وهي العصا واليد والسنين والبحر والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم » عن ابن عباس ، ولكنه رجح ما روى عن ابن عباس وغيره « وقال ابن عباس أيضًا ومجاهد وعكرمة والشعبي وقتادة هي يده وعصاه والسنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم » .

وقال : « وهذا القول ظاهر جلي حسن قوي » انظر ابن كثير التفسير ج ٣ ص ٦٦ .

الآن ، والتحـدى بها مستـمر ، لأن الأمة أمة خالدة ، والرسالة رسالة خالدة دائمة ، فلا يناسبها الآيات التى تنتهى بانتهاء وقتها ، ثم هى تخاطب العقل فهى من جنس نفس الرسالة .

ويضرب ابن رشد لنا المثل وغيره من المفكرين المسلمين قال : لو أن إنساناً جاء فقال : أنا طبيب فسألته : مادليلك على أنك طبيب ؟ فقال لك:دليلى على أنى طبيب أنى أطير فى الهواء ، فهذا شيء مدهش فعلاً ، لا تستطيع أن تفعل شيئًا أمامه ، ولكن لو قال لك دليلى على أنى طبيب : أنى أداوى المرضى فيشفون بإذن الله ، فأيهما أدل على الدعوى ؟ ، لا شك أن مداواة المرضى أدل على صدق الدعوى ، وهذا هو ما جاء به محمد ﷺ ، ما دليلك على أنك رسول ؟ هذا القرآن الذى تضمن هداية الله تبارك وتعالى للبشر ، يهدى للتى هى أقوم ، وتضمن من أنواع الإعجاز ما أعجز العرب أن يأتوا بمثله أو بعشر سـور من مثله أو بسورة من مثله ، ولا زال يحمل الإعجاز إلى اليوم ، فدليله هو هذه الهداية ، أنه يهدى بالفعل .

القرآن آية وهـداية معًا : ﴿ فَقَدْ جَاءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ﴾ [الأنعام : ١٥٧] فمن أجل هذا لم يستجب القرآن لمقترحات هؤلاء الناس المتعنتين الذين يطلبون آية كونية خارقة ، فلو كانوا يعقلون لكفاهم الآيات الكونية التى عرضها القرآن فى أوائل هذه السورة المبثوثة فى الأنفس والآفاق ، وكانت جديرة أن تقنعهم ولكنهم لا يعقلون ، لم تكفهم هذه الآيات وطلبوا آية واحدة من الآيات الخوارق ، ألا تدلكم هذه الآيات الضخمة على عظيم صنع الله تبارك وتعالى وعلى بديع حكمته ، ثم ألم يكفكم القرآن الكريم آية ؟! ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥١] .

تركوا هذا كله وطلبوا متعنتين آيات أخرى : ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ٧] ﴿ أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ [الفرقـان : ٨] ، ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ

تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾[الإسراء: ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣]
وليس من شأن الرسول أن يفجر الأرض ينابيع أو يقلب الجبال ذهبًا ، إنما جاء الرسول ﷺ ليغير من أنفس الناس ، ليحولوا هم الأرض إلى مروج وأنهار ، وليجعلوا من الجبال ذهبًا لو أرادوا ، فهذا شأن الإنسان ، وليس من شأن النبى ، وليس من شأن القرآن كما سيأتي في هذه السورة : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى ﴾ أى : لكان هذا القرآن .

ظهور آيات كونية كثيرة على يد محمد ﷺ :

وليس معنى هذا أن الله سبحانه وتعالى لم يظهر آيات كونية خارقة على يد محمد ﷺ ، بل أظهر آيات وآيات ، ومن قرأ السنة النبوية الصحيحة ،والسيرة المحمدية الثابتة ، وجد عشرات ومئات من الآيات الكونية لرسول الله ﷺ تضمنتها كتب تسمى « دلائل النبوة » ألف فيها الإمام أبو نعيم الأصفهانى ، والإمام البيهقى ، وغيرهما من الأئمة ، وذكر منها شيخ الإسلام ابن تيمية فى كتابه « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » مجموعة ضخمة ملأت عشرات الصفحات من كتابه مما ثبت بصحيح السنة عن النبى ﷺ من الأشياء التى أعطاها الله تعالى له .

والقرآن يحوى من هذه الأشياء ،وللأسف هناك من الناس من يكذب بهذه الأشياء ، لكنهم إذا كذبوا بالحديث كله فما بالهم بالقرآن ؟! وفى القرآن الإسراء أليس آية كونية خارقة ؟ وهو ثابت بالقرآن ، وسميت باسمه سورة من كتاب الله بدأت بقول الله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الإسراء : ١] وفى القرآن أيضًا المعراج كما أشارت إليه سورة النجم : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ [النجم : ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ، ١٦] ، وإنزال الملائكة فى بدر والخندق وحنين ، وإنزال جنود غير مرئية فى رحلة الهجرة : ﴿ فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ

﴿ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة : ٤٠] إلى آخر هذه الآيات المذكورة فى القرآن الكريم .

فالآيات أعطيت للنبى ﷺ ، ولكنها لم تكن إجابة لهؤلاء ، فالله قد عرج بمحمد فى السماء ، ولكن هذا لم يكن إجابة لطلب المتعنتين : ﴿ أَوْ تَرْقَى فِى السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ﴾ [الإسراء : ٩٣] ، وكان هذا لطفًا من الله سبحانه وتعالى بهذه الأمة أيضًا ، لأن من سنن الله تبارك وتعالى أنه إذا طلب قوم آية من الآيات ، ثم أنزلها الله سبحانه وتعالى وفق ما طلبوا ، ثم قابلوها بالتكذيب والجحود ، فإن الله سبحانه وتعالى يعاجلهم بالعقوبة ، ويأخذهم أخذًا أليما شديدًا يستأصل شأفتهم ، وهذا ما فعله الله تعالى بالأقوام الذين طلبوا الآيات ثم كذبوا مثل قوم صالح قالوا : ﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء : ١٥٤] فآتاه الله الناقة آية فعقروها ، انبعث أشقاهم فعقر الناقة فأمهلهم الله قال : ﴿ تَمَتَّعُوا فِى دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾[هود: ٦٥]ثم أخذتهم الصيحة﴿ فَأَصْبَحُوا فِى دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، أَلا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴾ [هود : ٦٧ ، ٦٨] .

الرد على مقترحى الآيات :

لم يرد الله سبحانه وتعالى أن يعامل هذه الأمة بتلك المعاملة فلم يستجب لهؤلاء القوم لأن الدين الجديد والرسالة الجديدة تريد أن ترقى بالناس ، لا تريد أن تأتى لهم بالآيات الخارقة التى تجبرهم جبرًا على الإيمان : ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء : ٤] بل يريد أن يأتى لهم بآية عقلية أدبية معنوية ، يتأملون فيها ويتدبرون فيها ، ليصلوا إلى الهداية بعقولهم لا بإخضاع أعناقهم من ناحية .

ومن ناحية أخرى فإن الله تعالى لم يرد أن يعاملهم معاملة الأمم الأخرى ، فقد أنزل الله الآيات على الأمم الأخرى ومع هذا لم يصدقوا ولم يؤمنوا : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ، وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ، وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا ﴾ [الإسراء: ٥٩] بل جحدوا وظلموا .

﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أنت لا تملك إلا الإنذار والإبلاغ :

﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ ﴾ [المائدة : ٩٩] ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ ﴾ عليك الدعوة ، وأنت لا تملك أن تأتى بآية من الآيات فالكون ليس فى قبضتك بل فى قبضة صاحبه ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [غافر : ٧٨] إنما أنت منذر مبلغ ومعلم بالإنذار وهو الإعلام بما يسوء ومقابله التبشير : الإعلام بما يسر ، فيظهر أثره فى البشرة ، والرسول عليه الصلاة والسلام بشير ونذير ، والرسل كلهم مبشرون ومنذرون : ﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء : ١٦٥] ، ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ [الأحزاب : ٤٥] ، ولكن السياق يقتضى أحيانًا أن يوصف الرسول ﷺ بصفة الإنذار فقط إذا كان المقام مقام تخويف ، وإذا كنا فى مواجهة قوم مكذبين معاندين مصرين يستهزئون ويطلبون العقوبات ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ وقبل ذلك أنكروا البعث وقالوا : ﴿ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ثم هم يقولون الآن : ﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ فالمقام هنا يقتضى أن يذكر الرسول بصفة الإنذار لا بصفة التبشير ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ وفى آيات كثيرة :﴿ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف : ١٨٤ ، هود : ٢٥ ، الحج : ٤٩ ، الشعراء ١١٥ وغيرها] وكثيراً ما يوصف الرسل بأنهم نذر : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾ [سبأ : ٤٤] ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : ٢٤] وذلك أن التكذيب غلب على التصديق ، وهذا مما يؤسف له ، والجحود والإصرار عليه غلب على الاهتداء ، والمعصية لرسل الله سبحانه وتعالى واتباع الجبابرة غلب على الأقوام ، فلهذا كان الوصف المناسب أن يوصف الرسل بأنهم منذرون ، وأن يخاطب ﷺ فى آيات شتى ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ [يس : ٦] ولذلك قال هنا : ﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ فالمناسب لهؤلاء القوم أن يوصف الرسول ﷺ بصفة الإنذار ولذلك جاء فى الحديث « وإنى أنا النذير العريان » (١) .

﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ لا تملك أن تأتى بآية من آيات الله ، بحسبك أن تبلغ

---

(١) حديث طويل أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق باب الانتهاء عن المعاصى ، وكتاب الاعتصام ،كما أخرجه مسلم عن أبى موسى عن النبى ﷺ فى كتاب الفضائل وبعض لفظه « .. وإنى أنا النذير العريان فالنجاء فأطاعه طائفة من قومه .. إلى آخر الحديث » .

﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ ، كلمة « هاد » هل يفيد التنكير فيها تعظيم الشأن ؟ أى هاد عظيم الشأن ؟ وهو الله سبحانه وتعالى ، فما عليك إلا أن تبلغ وتنذر ، وأما الهداية فهى على الله عليك الدعوة وعلى الله الهداية : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] هذا احتمال وارد رجحه الشيخ القاسمى وغيره ، أم أن المعنى ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ أى نبى يهديهم بما يناسبهم ويأتى لهم من الآيات بما يلائمهم ؟ وأنت قد جئت لهؤلاء القوم بما يلائمهم ، جئت لهم بالآية الكبرى والمعجزة العظمى ، وهى القرآن الكريم . فهذا وارد أيضًا . فكل قوم لهم هاد يناسب زمانهم ، فموسى جاء بآية تلائم السحر الذى كان فاشيًا فى أهل مصر، وعيسى جاء بآية تلائم الطب الذى كان فاشيًا عند الرومان ، وأنت جئت بالآية التى تناسب العرب أهل البيان والفصاحة ، وتناسب الزمن الأخير الذى بلغته البشرية فى هذا الطور .

واحتمال آخر أن معناه : لكل قوم هاد أى كتاب يهديهم ، كما جاء فى سورة البقرة : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ [البقرة : ٢١٣] هذا الكتاب يهدى الناس وخصوصًا فيما اختلفوا فيه ، ويكون على ذلك معنى هاد أى :كتاب يقودهم ويهديهم إلى صراط مستقيم ، وأيا كان هذا الأمر ، فالمعنى : أن هؤلاء لن يجابوا إلى طلبهم واقتراحهم المتعنت بإنزال آية من الآيات الكونية الحسية ، وبحسبك أنت أن تنذرهم فهذه هى مهمتك ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ يهديهم إلى الصراط المستقيم .

* * *

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ * سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ * لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾[الرعد : ٨ - ١١]

هذه جولة من جولات السورة الكريمة فى حديثها عن رب العزة تبارك وتعالى وعن آياته فى هذا الكون التى تغنى عن كل آية يطلبها المشركون تعنتاً ، فهذا الكون ملىء بآيات الله تعالى فى الآفاق وفى الأنفس .

وهنا تتحدث السورة عن العلم الإلهى ،وحديث القرآن عن الله تبارك وتعالى - كما ذكرنا وأكدنا - عن جلاله وجماله وكماله ، عن صفات الملك ، وعن صفات الحمد ، حديث لا نظير له ، ولا يوجد فى أى كتاب من كتب السماء ، وقد عشنا مع الجولة الأولى : ﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. ﴾ إلى آخرها .

شمول العلم الإلَهى لكل شىء :

وهذه الجـولة : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ، وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ تتحدث فيها الآياتَ عن العَلم الإلَهى ، عن علمَ الله تباركَ وتعالى بكل ما فى هذا الكون ومن فى هذا الكون،من الذرة إلى المجرة، فإن علم الله تعالى محيط بكل شىء فى هذا الكون :﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾[يونس : ٦١] ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام:٥٩] .

وعلم الله تبارك وتعالى يمتاز عن علم البشر بعدة خصائص :

بالسعة والشمول : فهو يشمل الظاهر والمستور ، والمشهود والغائب ، ويشمل العالم العلوى والعالم السفلى ، ويشمل خفايا الضمائر ، وطوايا

السرائر ، وحركات الخواطر ، ومكنونات الصدور ، ويشمل ما يمكن أن نعرفه نحن وما لا يمكن أن نعرفه بحال من الأحــوال ، ما نسـتطيع بأداة من الأدوات أو وسيلة من الوسائل أن نصل إليه وما لا يمكن أن نصل إليه قط ، فهو علم شامل واسع : ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الأعراف : ٨٩] ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر : ٧] وسع علمه – من حيث السعة – كل شيء ورحمته وسعت كل حي .

ويمتاز علم الله أيضًا **بالدقة** فهو علم التفاصيل والجزئيات الذى لا يغيب معه شيء عن الله تبارك وتعالى .

ويمتاز كذلك **بالثبات** فعلمنا قد يتغير ، وقد ينقلب علمنا جهلاً ، فما كنا نظنه صوابا يتبين أنه خطأ ، وما كنا نعتقده مادة يتبين أنه طاقة ، وقديمًا اعتبر الفلاسفة الأرض مركز الكون ثم تبين أن الأرض هباءة صغيرة فى هذا الكــون ، أو هى جزء صغير من المجموعة الشمسية ،والمجموعة الشمسية جزء صغير من مجرة ضخمة ، والمجرة واحدة من ملايين المجرات . وكانوا يعتقدون أن العناصر التى يقوم عليها الكون أربعة : الماء والهواء والتراب والنار ، ثم تبين أن هذه ليست عناصر وإنما هى مركبات ، وأن العناصر زادت عن المائة ، وهكذا تبين أن علم هؤلاء الفلاسفة الكبار أصبح جهلاً ، ولكن علم الله لا يتغير ، فهو يعلم الأشياء بعلم أزلى ثابت لا يطرأ عليه ما يغــيره فالأشياء تنكشف له على حقيقتها ؛ لأنه هو خالقها ، وهو الذى يريدها قبل أن تخلق على نمط معين ومقدار معين ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤] .

ومن هنا يحدثنا القرآن عن هذا العلم الإلهى الشامل الدقيق العميق الثابت الذى لا يتغير ، يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ فى الحضــر أو فى البادية أو فى القرى أو فى أى مكان ، يعلم الله ما تحمل كل أنثى : أهو ذكر ؟ أم أنثى ؟ تام أم خديج ؟ يبقى إلى أن يولد أم ينزل سقطًا ؟ وإذا ولد أيكــون صحيحًا أم سقيمًا ؟ ضعيفًا أم قويًا ؟ ذكيًا أم غبيًا ؟ سعيدًا أم شقيًا ؟ يعلم حاضره ومستقبله ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ وتغيض الأرحام أى تنقــص ، و « ما » كما يقول علماء النحو مصدرية أو موصولة أى يعلم حمل كل أنثى

وغيض الأرحام وازديادها أو يعلم الشىء الذى تحمله كل أنثى ، ولو أخذنا عبارة « كل أنثى » على عمومها لشملت الإنسان والحيوان والطيور والحشرات .

يعلم الله سبحانه وتعالى نوع الحمل والمرحلة التى هو فيها إن كان نطفة أو علقة أو مضغة ، مخلقة أو غير مخلقة ، أو استوى عظماً ، أو كسى العظم لحماً ، ويعلم أيكون طويلاً أو قصيراً ، سميناً أو هزيلاً و ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ هى المدة فيعلم كم يبقى فى بطن أمه ومتى ينزل ، أينزل بعد سبعة أشهر أم يبقى إلى التسعة ؟ أو يزيد عن ذلك أياماً أو أكثر ، وبعض المفسرين والفقهاء يقولون : إن الحمل قد يبقى سنتين فى بطن أمه ، وهو مذهب أبى حنيفة، وبعضهم قال : يبقى ثلاث سنوات أو أربع سنوات أو خمس سنوات كما فى مذهب الشافعية والحنابلة والمالكية حتى قيل إلى سبع سنوات ! وهذا أمر يمكن أن يناقش ، ويرد عليه .

والازدياد قد يعنى أن البطن فيها واحد أو اثنان أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة والله يعلم ذلك كله ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ .

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ له مقدار معين فى كميته وكيفيته قال تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر : ٤٩] ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان : ٢] فهذا الكون لا يسير جزافاً ولا يمضى اعتباطاً ،وإنما يجرى بمقادير قدرها الله عز وجل ، فكل شىء مصمم بعناية ، لهدف وغاية ، بمقدار لا يزيد ولا ينقص ﴿ وَإِن مِّنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر : ٢١] كل شىء فى هذا الكون محدد منظم مقدر مصمم .

وبقيت حاشية :

فقد أثار بعض العلمانيين تعقيباً على بعض المفسرين الذين قالوا : إن الله هو الذى يعلم ما فى الأرحام إن كان ذكراً أو أنثى ، وأن هذا من مفاتح الغيب التى لا يعلمها إلا الله أن العلم بوسائط وأدوات وأجهزة استطاع الآن أن يعرف ذكورة الجنين من أنوثته فى وقت مبكر ، ونقول : إن معرفة الذكورة والأنوثة هى

جزء من مضمون العلم الإلٰهى ، لما فى الأرحام هذا العلم الذى يعلم أيحيا الجنين أم يموت ؟ أيبقى إلى أن يكتمل أم يولد قبل اكتماله ؟ أيكون ضعيفًا أم قويًّا ؟ أيكون ذكيًّا أو غبيًّا ؟ أيكون سعيدًا أم شقيًّا ؟ أيؤمن أم يكفر ؟ بماذا يختم له أيكون من أهل الجنة أم من أهل النار ؟ فى أى أرض سيعيش ، وفى أى أرض سيموت ؟ فكل هذا يدخل فى العلم الإلٰهى ، أما الطبيب بأجهزته ومجساته وكاميرات تصويره ، فلا يعلم إلا مجرد الذكورة والأنوثة ، ولذلك يظل أن الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ، ويعلم ما فى الأرحام ، وأن هذا من مفاتح الغيب التى ينفرد الله تعالى بعلمها ، وتظل هذه الحقيقة سليمة وصحيحة .

وحاشية أخرى :

حيث تكلم بعض الفقهاء عن مدة الحمل فذكروا فى : ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ أن الحمل قد يزداد فى بطن أمه إلى سنتين أو ثلاث أو أربع أو خمس أو ست أو حتى سبع سنوات فى بعض روايات المالكية ، وهذا الكلام وإن كان موجودًا فى بعض كتب التفسير وكتب الفقه فليس عليه دليل صحيح صريح من الشرع ، ولا يوجد نص صحيح الثبوت صريح الدلالة يدل على هذا ، وإنما كل ما فى الأمر أن هناك أقوالاً نسبت إلى بعض النساء الصالحات من زوجات بعض السلف أنها حملت وبقى الحمل فى بطنها مدة كذا وكذا ، وقال الإمام مالك:إن امرأة ثابت بن عجلان وهو رجل صدق وامرأته امرأة صدق كان الحمل يبقى فى بطنها ثلاث سنين أو أربع سنين ، وورد عن السيدة عائشة أن الحمل لا يبقى فى بطن أمه أكثر من سنتين ولو بفركة مغزل ، وكل هذا ليس فيه دليل مرفوع صحيح ، ولذا ردّها الإمام ابن حزم وقال : إن هذه أقوال نساء عجائز لا يؤخذ بقولهن ، كيف يصير الحمل إلى هذه المدد الطوال والله تعالى يقول : ﴿ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا ﴾ [الأحقاف : ١٥] وأكد — ابن حزم — أن الحمل تسعة أشهر ، وذهب ابن عبد الحكم من المالكية إلى أن مدة الحمل سنة قمرية ، وأخذت بعض أحكام الأحوال الشخصية فى بعض البلاد الإسلامية بهذا

القول وإن كانت قد اعتبرته سنة شمسية واعتبرت السنة أقصى مدة للحمل ، أما الأقوال التى تذهب إلى إطالة المدة فهذه مردودة ؛ لأن المرأة ممكن أن تأتى بعد موت زوجها بعدة سنوات وتقول : إنها كانت حاملاً طوال تلك المدة ، ولكن حسب الاستقصاء والاستقراء لم يوجد حمل يطول إلى هذه المدة ، وكل ما فى الأمر : أن العلم الحديث اكتشف أن هناك ما يسمى الحمل الكاذب ، وفيه ترغب المرأة فى الحمل وتحرص عليه وتتمناه وتعيش فى ذلك من الناحية النفسية حتى يخيل إليها أنها حامل وتشعر بأعراض الحمل وتنتفخ بطنها ، ويصيبها الوحم والغثيان ،ويرى أهلها وجيرانها ذلك منها وهى صادقة ، ولكن حملها هو الكاذب وإن كانت أعراضه هى أعراض الحمل الصادق ولكن لا حقيقة له ، فإذا حدث هذا فى الزمن الماضى ثم وقع قدر الله وحملت المرأة حملاً صادقًا ووضعت بعد تسعة أشهر ، ظن الناس أن حملها استمر سنين طويلة بإضافة مدة الحمل الكاذب إلى مدة الحمل الصادق ، فالمرأة فى هذه الحالة صادقة وزوجها الذى رآها صادق ، وجيرانها الذين رأوها صادقون ، ولكنهم لم يكونوا يعلمون بالحمل الكاذب ، وهذا ما يجعلنا نؤكد تلك القاعدة الذهبية العظيمة التى تقول : « إن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والحال والعرف » ، فقد عرفنا فى عصرنا ما لم يكن يعرفه الإمام مالك ولا الأئمة السابقون من الحمل الكاذب وأعراضه .

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ الغيب : ما غاب عن الحس ، والشهادة : ما يشهده الحس ، فهو مشهود لنا ومنظور . هناك عالم منظور وعالم غير منظور ، عالم مشهور وعالم غير مشهود ، فغير المشهود هو الغائب عنا ، وقد يكون غائبًا عنا وهو موجود الآن مثل العرش والكرسى واللوح والملائكة والجن ، وقد يكون غائبًا عنا ؛ لأنه لم يحدث بعد كالذى يأتى من الحياة البرزخية فى القبر وما يأتى فى يوم القيامة ، فكل هذا من الغيب ، والله سبحانه وتعالى يعلم هذا الغيب ويعلم الشهادة والغيب بمعنى الغائب مصدر بمعنى اسم الفاعل ، والشهادة بمعنى المشهود وهى بمعنى اسم المفعول ، فالغائب والمشهود يعلمه الله تبارك وتعالى .

ونحن لا نعلم الغيب لأن حواسنا محدودة وقوانا محدودة ، بل إننا لا نعلم كثيرًا من عالمنا المادى ،والعلم الحديث يقول : إننا لا نعلم من أجزاء الكون المادى الذى نعيش فيه إلا ثلاثة فى المائة ٣ ٪ فقط وسبعة وتسعون ٩٧٪ تغيب عنا يسمونها الأعماق السوداء فى هذا الكون ، ولذا فلا نطمع أن نعلم الأشياء الغائبة عنا من العالم والكون غير المنظور وغير المحسّ وغير المشهود ، إنما الذى يعلم ذلك هو ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ .

﴿ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴾ العظيم الشأن ، المتعالى على خلقه والمنزه عن كل نقص ، المستعلى على جميع خلقه بكمال ذاته وصفاته ، والكبير بإطلاق هو الله عز وجل ، قد يوجد فى الكون من نقول عنه : إنه كبير ، لكن كبره هذا نسبى ، إنما الكبير الذى ليس هناك أكبر منه هو الله تبارك وتعالى ، فهو الكبير بإطلاق ، وهو المتعالى بإطلاق ، ومن أسمائه (المتعال) وليس من أسمائه (العال) الذى يتسمى به بعض الناس « عبد العال » والصواب أن يسمى « عبد المتعال » أو يسمى « عبد العلى » فالله سبحانه وتعالى موصوف بالعلو ، ولكن من أسمائه العلى والمتعال (١) .

﴿ سَوَاءٌ مِّنكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ يستوى فى علم الله تبارك وتعالى : من أسر القول مع صاحبه وصديقه لا يريد أن يسمعه أحد – فإن للحيطان آذانًا كما يقولون – ومن جهر به ، فالأمران سواء ﴿ مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ ﴾ اجهَرْ بالقول أو اهمسْ به ، تكلم فى أذن صاحبك بصوت خافت ، أو أضمره فى نفسك ، فالله يسمع ويعلم هذا كله .

---

(١) ورد اسم « الكبير » كاسم من أسماء الله تعالى فى القرآن كله ثمانى مرات وورد اسم « المتكبر » مرة واحدة فى القرآن كله ، وورد اسم « العلى » معرفًا بالألف واللام ست مرات وورد اسم « المتعال » فى القرآن كله مرة واحدة هى هذه التى في الرعد ، انظر معجم ألفاظ القرآن الكريم إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة جـ ٢ ص ٩٤٦ ، ٩٤٧ ، ٧٨٩ .

كان بعض المشركين يقول لبعض حينما ينزل القرآن ، فيكشف عن مؤامراتهم ، ويفضح أسرارهم ، ويهتك أستارهم : لا تتحدثوا بصوت جهير حتى لا يسمعكم إله محمد ، ولكن تحدثوا بصوت خافت هامس ، فنزل القرآن الكريم يقول : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الملك : ١٣] إذا كان يعلم ما بداخل الصدر ، وما هو مكنون بالسرائر ، أفلا يعلم إذا خرج ما بالداخل هذا بالصوت حتى وإن كان مهموساً أو خافتاً ؟!! لا شك أنه سبحانه يعلم ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤] .

﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ المستخفى بالليل الذى يريد أن يخفى نفسه ويطلب الخفاء من الناس أو من الشرطة أو من طلاب الديون ، وقد يفلح فى هذا فيختفى عن أعين العباد ، ولكنه أبداً لن يستخفى عن عين الله عز وجل ، فإنه بالمرصاد لكل أحد حيث كان ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد : ٤] .

﴿ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ ﴾ من يستتر بظلمة الليل ويستتر بستر البيت الذى يكون فيه وجدرانه ، ومن هو سارب بالنهار أى ظاهر بالنهار ، سائر فى سربه وفى طريقته ، يستويان فى علم الله فعلمه سبحانه وتعالى مستوعب شامل يلاحق الإنسان فى كل مكان ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه : ٧] لا تخفى عنه خافية ، ولا يغيب عنه سر ولا علانية كما قال سيدنا إبراهيم عليه السلام فى دعائه : ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [إبراهيم : ٣٨] هذا ما يقرره القرآن الكريم ولا يوجد تقرير للعلم الإلهى بهذه الصيغة وبهذه الصورة الواضحة الدقيقة العميقة إلا فى القرآن الكريم .

ومن أسف أن هناك من الفلاسفة المؤلهين الذين اعترفوا بأن هناك ألوهية : من لم يستطيعوا أن يصلوا إلى إدراك هذه العظمة الإلهية ، وأشهر الفلسفات فى ذلك هي فلسفة اليونان القديمة التى ترجمها المسلمون فى أوائل العصر العباسى ، تلك الفلسفة لم تستطع أن تدرك المجد الإلهى ، وأشهر الفلاسفة اليونانيين على الإطلاق الفيلسوف المعروف (أرسطو) الذى قال عنه العرب

الذين ترجموا كتب الفلسفة إلى العربية : إنه المعلم الأول ! والحق أن المعلم الأول هو محمد ﷺ .

يقول هذا الفيلسوف عن الله – الذى يسميه العلّة الأولى أو المحرك الأول – إنه لا يعلم عن الكون شيئًا ، ويرى أن مما يعيب هذا الإلٰه أن يعلم ما فى هذا الكون ، وما فى هذا العالم : عالم الكون والفساد ، ولذا فهو لا يعلم عنه شيئًا ، ولا يعلم إلا ذاته الكاملة ، أما هذا الكون الناقص فهو لا يدبر فيه أمرًا ، ولا يحرك فيه ساكنًا ، وهذا هو شأن الإله عند هذا الفيلسوف الكبير أرسطو .

ولذلك فإن بعض مؤرخى الفلسفة فى العصر الحديث – وهو الأمريكى ول ديورانت – يقول فى كتابه : « مباهج الفلسفة » « يا لإله أرسطو من إله مسكين ! إنه أشبه بملك الإنجليز يملك ولا يحكم !! » ، فأين هذا من الإله فى القرآن الكريم ؟ [١] .

وللأسف أن هذه الفكرة عن العلم الإلٰهى تسربت أيضًا إلى الفلاسفة الإسلاميين – كما يسمونهم – الذين تأثروا بفلسفة أرسطو مثل الكندى والفارابى وابن سيناء . فقالوا : إن الله لا يعلم الجزئيات فى هذا العالم ، وبذلك لم يأخذوا بكلام أرسطو كله ، ولم يرفضوه كله : حيث أثبتوا العلم لله عز وجل بما فى الكون ، ولكنهم نفوا عنه علم الجزئيات التى تحدث فى هذا الكون ، وهذا مناقض لما صرح به القرآن فى عشرات الآيات أن كل ما فى الكون يعلمه الله عز وجل حتى ما تحمله كل أنثى ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ﴾ ، ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِنّ وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] ولأن قولهم هذا مناقض لما فى القرآن اعتبر فقهاء المسلمين هذا القول كفرًا .

والأعجب من ذلك ما زاده بعض الفلاسفة عن أرسطو ، فقد قال أفلوطين – الذى تنسب إليه المدرسة الفلسفية المسماه الأفلاطونية الحديثة : إن الله لا يعلم

---

(١) انظر فى ذلك كتاب فضيلة الشيخ القرضاوى « الإيمان والحياة » إصدار مكتبة وهبة من ص ٢٠ : ٢٧ .

حتى ذاته !!٦ كما نقل ذلك الأستاذ العقاد رحمه الله فى كتابه « الله » فيا عجبا أن تكون هذه هى منزلة الإله عندهم ! أما فى الإسلام وفى القرآن ، فالله هو المحيط بكل ما فى هذا الكون ، وهو المدبر لكل ما فيه ،ولهذا يسأله الناس ويدعونه ، فإذا لم يكن يعلم شيئًا فلماذا تلجأ إليه الفطر البشرية من قديم إذا نزلت بهم شدة ، وهو الذى – تبعًا لهذا الرأى – لا يعلم عن البشر إن كانوا فى سرّاء أو فى ضرّاء؟ وما معنى أن يدعو الإنسان من لا يعلم عنه – أى عن الإنسان – شيئًا – ؟ لا معنى لذلك إلا أن يكون جهلاً بالعلم الإلهى .

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾ والضمير فى « له » يعود على الإنسان المذكور فى قوله : ﴿ سَوَاءٌ مِّنْكُمْ مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ هذا المسر أو الجاهر ، المستخفى أو السارب الظاهر ، له معقبات ، أى ملائكة تتعاقب وتتوارد وتتناوب عليه ، وكلّها الله به ، فهى من جنود الله : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ﴾[المدثر : ٣١] ، والملائكة مخلوقات نورانية من جملة عالم الغيب بثّها الله فى هذا الكون ، وجعل لها وظائف منها : الحفـظ لهذا الإنـسان ، وكتابة أعماله خيرها وشرّها، حسنها وقبيحها ، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴾[الانفطار: ١٠ ، ١١ ، ١٢] وكما قال أيضًا : ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ، بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف : ٨٠] هؤلاء الحفظة الذين يسجلون على الإنسان أعماله كلّها حسناته وسيئاته .

وللتسجيل الإلهى قلم يسجل بوساطة هؤلاء الحفظة الكاتبين كل شىء فى صحائف لا تبلى: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٧ ، ١٨] ، وهؤلاء الحفظـة يتعاقبون : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ ﴾ عقّب الشىء أى أتى عقبه بلا مهلة ولا فاصل ، وأصل العقب مؤخر الرّجل ، فعقبه أى جاء فى عقبه كأنه يكاد يلمس عقبه ويطؤه ، وفى علم النحو يقولون : الفاء للتعقيب والترتيب بلا مهلة:﴿الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى ﴾[الأعلى: ٢، ٣] ويقال : جاء فلان ففلان ، أما إذا كان هناك مهلة فالمستعمل « ثم » فيقال : فلان ثم فلان .

فهؤلاء الحفظة يتعاقبون بحيث لا توجد فترة بلا حراس ولا حفظة . وقد جاء فى الحديث الصحيح « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون فى صلاة الفجر وصلاة العصر ، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون » [1] أى أن مناوباتهم تتغير عند صلاتى الفجر والعصر ، فيشهدون بذلك للأمة « تركناهم وهم يصلون ، وأتيناهم وهم يصلون » .

الله تعالى جعل هؤلاء الحفظة - من ملائكته الكرام المقربين - على الإنسان ،تكريمًا للإنسان من ناحية ، حيث جعلهم وهم الذين فطرهم الله تعالى على طاعته ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٠] ﴿ لاَ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] جعلهم فى خدمة الإنسان وفى حفظه وحراسته ، فأى تكريم للإنسان أعظم من هذا ؟! ومن ناحية أخرى إشعار الإنسان أنه ليس سائبًا يفعل ما يشاء ويترك ما يشاء ،وأن أعماله لا تنتهى بمجرد عملها ،ولكنها محفوظة مسجلة له أو عليه ، فليحذر أن يرى فى صحيفته غداً ما يسوؤه .

حينما يكون الإنسان فى مكان يعلم أن فيه أجهزة تنصّت عليه ، فإنه يحترس من الكلمة يقولها ، أو إن كان هناك (كاميرا) خفية تصور حركاته ، فماذا يصنع ؟ لا شك أنه يتحرى أن يكون حريصًا . وكفى بهذا رادعًا للإنسان : أن يقترف المنكرات أو يعب من الشهوات ، أو يسير فى ركاب الشيطان ، بل لابد أن يحاسب نفسه وأن يقف مع نفسه يراقبها ويؤدبها ، ويقول لها : كيف تفعلين كذا ، وكيف تتركين كذا ؟ ولماذا ؟ وهذا شأن صاحب (النفس اللوامة) أو ما يسمونه فى عصرنا (الضمير الحى) فهؤلاء الحفظة

---

(١) رواه البخارى واللفظ له من حديث أبى هريرة ... فى كتاب مواقيت الصلاة باب فضل صلاة العصر ، ورواه أيضًا فى كتاب التوحيد ، كما رواه مسلم فى كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، والنسائى فى الصلاة ومالك فى الموطأ كتاب السفر ، وأحمد فى مسنده .

وكلّهم الله لمثل هذه المعانى . ولهذا نرى سيدنا عمر بن الخطاب حينما بعث سعد بن أبي وقاص قائدة على جند المسلمين فى معركة القادسية وأوصاه بتقوى الله عز وجل وقال له : إن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب . وأوصاه بوصية بليغة عظيمة . وكان مما قال : « واعلموا أن عليكم حفظة فى سيركم يكتبون كل مالكم أو عليكم فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله » .

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾ و « مِنْ » فى قوله ﴿ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾ يقولون عنها فى علم النحو : لابتداء الغاية أى معقبات من أمر الله ومن قدر الله ، والله هو الذى قدر هذا ، فليست خارجة عن أمر الله ولا عن قدره إنما هى حسب النظام الذى أودعه الله تعالى فى هذا الكون : ﴿ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ هذه إشارة إلى أنها تحيط بهم من كل الجوانب . ويقول بعضهم : إن « مِنْ » هنا للتعليل ؛ لأن « من » تأتى أحيانًا فى القرآن وفى اللغة العربية للتعليل كما فى قوله تـعالى : ﴿ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا ﴾ [نوح : ٢٥] أى بسبب خطيئاتهم فـ ﴿ مِنْ أَمْرِ اللهِ ﴾ — على هذا التفسير — أى بسـبب أمر الله عز وجل . وليس المعنى : يحفظونه من قدر الله ، فلا يستطيع أحد أن يحفظ أحداً من قدر الله ؛ لأن قدر الله جار على الناس مهما كان حالهم ، ولا رادَّ لقدره عز وجل .

والتأنيث فى المعقبات ليس لفظيًّا ، وإنما هو يعنى : جماعات معقبات ، فالملائكة لا توصف بأنوثة ولا بذكورة ، ولكن من ناحية الضمائر وغيرها تجرى مجرى الذكور ، فيقال : فعلوا كذا وكذا ،ولكنهم ليسوا إناثًا كما قال المشركون الذين جعلوا ﴿ الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا ﴾ [الزخرف : ١٩] .

بماذا يغير الله ما بالأقوام والأمم ؟ :

﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] هذه المعقبات وهؤلاء الحفّاظ والحرّاس ، لا يغنون عن الإنسان من أمر الله شيئًا إذا صنع ما يقتضى عقوبته ، بل تنزل به العقوبة الإلّهية ؛ لأن هؤلاء لا يردّون سنن الله ،

بل هم يمضون مع سنن الله ويعملون في دائرتها ، فإذا غيّر قوم ما بأنفسهم من الطاعة إلى المعصية ، ومن الاستقامة إلى الانحراف ،ومن الهدى إلي الضلال ، ومن الرشد إلى الغيّ ، ومن العدل إلى الظلم ، ومن الإيمان إلي الكفر ، ومن التوحيد إلى الشرك ، فإن الله يغير ما بهم. وهذه سنة من سنن الله تبارك وتعالى ، فإذا غيَّر الناس ما بأنفسهم غيَّر الله تعالى ما بهم ، كما ذكر الله هنا ، وفى سورة الأنفال أيضاً : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ، وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ ، وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ، كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ ، وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ [الأنفال: ٥٣ ، ٥٤] فبالذنوب وبالظلم وبالانحراف وتغيير ما بالأنفس ينزل الله نقَمه ، ويبدل النعمة إلى نقمة ، ويبدل العافية إلى بلاء، ويحول السرَّاء إلى ضرَّاء والنعماء إلى بأساء ، والغنى إلى فقر ، واليسر إلى عسر ، والوحدة إلى تفرق ، والنصر إلى هزيمة . وهكذا .

هل تشمل الآية التغير من الشر إلى الخير ؟ :

ويبرز هنا سؤال : هل التغيير فى الآية متصور على التغيير من الحسن إلى السيىء،ومن الطاعة إلى المعصية ،ومن الخير إلى الشر ؟ أم أنه يشمل العكس؟.

نقول : إن السياق الذى وردت فيه الآية يدل على أنهم تحوَّلوا من الخير إلى الشر ، ومن الحسن إلى القبيح ، وهذا صريح آية الأنفال التى سبقت ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الأنفال : ٥٣] إذا غيروا حال الخير إلى شر ، أو الحسن إلي قبيح ، أو الهدى إلي ضلال ، غيَّر الله ما بهم وأنزل بهم عقوبته ، كما قال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢] وكما ذكر لنا القرآن أحوال أمم كثيرة من الأمم السابقة، أخذهم الله بذنوبهم وبتكذيبهم وبعصيانهم ، جزاء ما صنعوا مثل سبأ ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ، وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الْكَفُورَ ﴾ [سبإ : ١٧] .

وبعض العلماء يقول : إن الآية لا تفيد إلا هذا ، وقالوا : إن الأصل فيما هو بالأنفس (الخير) فالله قد فطر الأنفس على الخير ، وذلك قول رسـول الله ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة . . » [1] فإذا غيَّر الناس ما بأنفسهم أى غيَّروا الفطرة ومسخوها ، فتحولوا من الخير إلى الشر ومن الهداية إلى الضلال ، غيَّر الله ما بهم ، وهذا واضح فى آية سورة الأنفال .

أما هذه الآية فالواقع أنها تشمل هذا وهو ما يدل عليه السياق ،ولكن لفظ الآية عام : يشمل التحول من الخير إلى الشر ، أو من الشر إلى الخير ، ومن الحسن إلى القبيح ، أو من القبيح إلى الحسن ، ومن الاستقامة إلى الاعوجاج ، أو من الاعوجاج إلى الاستقامة . فالله يقول : ﴿ مَا بِقَوْمٍ ﴾ وكلمة « ما » لفظ من ألفاظ العموم كما يقول علماء الأصول ، فهو يشمل ما بأنفسهم سواء كان من الخير أم من الشر ، و « ما بقوم » سواء كانوا فى حالة النعمة أم فى حالة المصيبة . ومعنى هذا : أن الآية تشمل أيضاً أنه إذا كان هناك قوم فى حالة من الانحراف والتظالم والوقوع فى المنكرات ، ونزلت بهم المصائب ، وأحاطت بهم الكروب والخطوب ، وسلط عليهم أعداؤهم ،وجرى عليهم ما جرى من الهزائم والنكسات والوكسات ، ثم غير هؤلاء القوم ما بأنفسهم ، فتحولوا من المعصية إلى الطاعة ، ومن الظلم إلى العدل ، ومن الانحراف إلى الاستقامة ومن الغى إلى الرشد ، ومن الشر إلى الخير ، فإن الله يغير ما بهم ويصلح حالهم ، ويحوِّل حالهم إلى أحسن حال ، فالآية إذن تشمل الجانبين معًا : التحول إلى الحسن ، والتحول إلى السيىء ، وهذا ما يفيده العموم فى هذه الآية من هذه السورة .

وأما ما جاء فى الحـــديث من أن كل مولود يولد على (الفطرة) وهو يؤيد ما جاء فى القرآن ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّين حَنِيفًا ، فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ

---

(١) إشارة إلى الأحاديث التى رواها البخارى فى كتاب الجنائز . باب إذا أسلم الصبى فمات هل يصلى عليه وغيره من الأبواب وفى كتاب التفسير وكتاب القدر ، ورواها مسلم فى كتاب القدر من صحيحه عن أبى هريرة رضى الله عنه وفى لفظه « ما من مولود إلا يولد على الفطرة . . . » وروى مثله أبو داود والترمذى ومالك وأحمد بن حنبل فى المسند والطيالسى والواقدى .

عَلَيْهَا ﴾ [الروم : ٣٠] فالذى يبدو لنا : أن هذا فى التوحيد والاعتقاد والإيمان بالله تعالى ، ففطرة الله فى الأنفس : التوجه إلى الإيمان والتوحيد ، لا إلى الإلحاد والشرك ٠

أما ما يتعلق بالسلوك، فالذى يظهر لنا من القرآن : أن الله سبحانه فطر الأنفس على الاستعداد للخير وللشر ، أو للتقوى والفجور ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : ٧ - ١٠] ٠ وربما كان استعداد النفس للفجور أسبق من استعدادها للتقوى ، بدليل تقديم (فجورها) على (تقواها) ٠ وقد يؤيد هذا مثل قوله تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ ، إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾ [الأحزاب : ٧٢] ، ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات : ٦] ، ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ، ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴾ [الإسراء : ١١] الخ هذه الآيات التى تشير إلى ما جبل عليه الإنسان - إذا ترك لنفسه - من ظلم وجهل وكنود وكفران بنعمة ربه ، وعجلة فى أمره ٠ لهذا كان عليه أن يبذل جهده حتى يزكى نفسه ويرتقى بها ، ولا يعمل على تدسيتها وتدنيسها ٠ فهو الذى حُمّل مسؤولية نفسه ٠ فإما أن يعلو بها إلى أفق الملائكة ،وإما أن يهبط بها إلى حضيض الأنعام ٠

وهذه مسؤولية الأفراد ، كل فرد على حدة ، وهى مسئولية الأقوام ، والجماعات كذلك ، مسؤولية تضامنية ٠ فلا تظن جماعة ما أن الله ينزل عليها التغيير لحالها من السماء ، كما أنزل المن والسلوى ، بل إن التغيير الإلٰهى لحال البشر ، لابد أن يسبقه تغيير داخلى من جانب البشر أنفسهم ، أى أن التغييرالإلهى مرتب على التغيير البشرى ، ترتب المسببات على أسبابها التى وضعها الله ،والتى شرعها الله تعالى ٠

وهذا تكريم من الله تعالى للإنسان : أن جعل أمره بيده ،وأن قدره الأعلى يعمل من خلال حركة الإنسان وحركة المجتمعات ، فإذا تحركت المجتمعات من داخلها ، وغيرَّت ما بأنفسها ، فإن القدر الإلٰهى يغير ما بها ، ويحوّلها من حال إلى حال ٠

ولهذا نرى محاولات التغيير من السطح ومن الظاهر ، مثل مجرد تغيير القوانين واللوائح والأشكال ، لا تجدى كثيرا ، إذا لم يتغير ما بأنفس الناس .

قاعدة اجتماعية مهمة :

وهنا نجد أن القرآن الكريم وضع قاعدة من القواعد الاجتماعية المهمة ،وسنة من سنن التغيير الاجتماعى ، وقانونًا من القـوانين التى وضعـها الله فى هذا الكون ؛ لأن القرآن جاء يغرس فى عقول المسلمين وفى أنفسهم : أن هذا الكون يسير على سنن ثابتة ، سنن كونية ، وسنن اجتماعية لا تتبدل ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً ﴾ [فاطر : ٤٣] . فلابد أن تراعَى هذه السنن ، فهى سنن لا تحابى أحدًا ،ولا تتحيز إلى أحد ، أو ضد أحد ، تعمل مع المسلمين كما تعمل مع الكافرين ، مع أهل التوحيد ومع أهل الشرك ، من جدّ وجد ، ومن زرع حصد، من أى ملة كان ، فالكافر الذى يزرع يحصد ، والمسلم الذى يتكاسل ولا يزرع لا يحصد ،والذى يتزوج امرأة ولودًا ويأخذ بأسباب الإنجاب يولد له ، والذى لا يتزوج ولا يأخذ بأسباب الولادة ويدعو الله أن يرزقه الذرية ، فأنى يستجاب لهذا ؟! .

الماركسيون والتغيير :

ومن هذه السنن : تلك السنة الاجتماعية التى تنص على أن تغيير المجتمعات والأقوام لا يكون إلا بعد هذا التغيير النفسى العميق ، الذى يسبق أى ثورة اجتماعية ، ويسبق أى تغيير سياسى أو اقتصادى ، على خلاف ما قاله الماركسيون الشيوعيون الذين كانوا يقولون : إن التغيّر الاجتماعى هو وليد التغيّر الاقتصادى ، يقولون : غيّر الاقتصاد وعلاقات الإنتاج يتغيّر التاريخ .

ونحن المسلمين — حسب النظرية القرآنية أو الفكرة القرآنية أو السنة القرآنية هذه — نخالف هؤلاء ونقول : غيّر نفسك يتغير التاريخ ، وبالتعبير القرآنى : غيّر ما بنفسك أو غيّر ما بأنفس الناس يتغير التاريخ .

ولهذا نرى كيف فعل النبى ﷺ حينما بعثه الله تعالى فى الأميين رسولاً ، وكانوا فى ضلال مبين ، وكانوا على شفا حفرة من النار ، فسدت عقائدهم ،

وفسدت أخلاقهم ، وفسدت أنظمتهم ، وفسدت تقاليدهم ، وهنا بدأ ﷺ بتغيير الأنفس ؛ ليصبّ غي عروق القوم دمًا جديدًا ، تتغير به أنفسهم وعقولهم من الوثنية إلى التوحيد ، وتتغير نظرتهم إلى الله تعالى ، وإلى الكون ، وإلى الحياة ، وإلي الإنسان ، وإلى الدين ، وإلى الدنيا ، فصنعهم صناعة جديدة ، وأنشأهم خلقًا آخر حتى رأينا عمر بن الخطاب الجاهلى يختلف تمامًا عن عمر بن الخطاب الإسلامى ، ورأينا خنساء الجاهلية غير خنساء الإسلام ، ولذلك فأصعب التغييرات هو تغيير الإنسان ، فانت تستطيع أن تغير البيئة المادية كأن تنشىء بحيرة صناعية ، وتحول الصحراء إلى أرض خضراء ، وتعلى البنيان حتى يناطح السحاب ، لكنك مع هذا لا تستطيع أن تغير الإنسان ؛ لأن الإنسان لا يقاد من أذنه كما تقاد البهيمة العجماء ولكنه يقاد من داخله ، ويقاد من نفسه التى بين جنبيه ، وأى تغيير اجتماعى لابد أن يبدأ بتغيير ما بالأنفس ، تغيير العقائد والأفكار والمفاهيم والإخلاق والقيم فهذا هو الذى يغير المجتمعات والأمم وهـذا ما صنعه الرسول الكريم ﷺ بالعرب : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ .

وقد ذكر بعض المفسرين بعض الاعتراضات فقالوا : إن العقوبة تنزل أحيانًا بالناس ومنهم من لم يصنع شيئًا ولم يرتكب ذنبًا ، والقرآن يقول : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال : ٢٥] والحديث يقول : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه » (١) وهذا الاعتراض ليس فى محله ؛لأن العبرة بمجموع القوم ، هل يغلب عليهم الخير أو يغلب عليهم الشر ؟ هل يغلب عليهم المعروف أو يغلب عليهم المنكر ؟ فإذا كان المعروف هو الغالب والمنكر يوجد ، ولكنه ضعيف لا

---

(١) رواه أبو داود فى الملاحم والترمذى فى الفتن من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه وآخره : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه .. » وأوله « يا أيها الناس إنكم تقرأون هـذه الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ، لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة : ١٠٥] وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول .. إلى آخر الحديث » كما رواه النسائي وأحمد فى المسند ، قال الإمام النووى (رحمه الله) : أسانيده صحيحة .

يستطيع أن يستعلن ، ولا يستطيع أن يتمطى برقبته ، ولا يستطيع أن يرفع رأسه ، فلا يوجد إشكال ،ولكن المشكل حينما يوجد المنكر ويستعلى ويستعلن ويتبجح ولا يوجد من يوقفه عند حده ، فهنا تنزل العقوبة ؛ لأن الناس رأوا المنكر فلم يغيّروه ، ورأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ، ولم يقولوا للظالم : يا ظالم ، بل إنهم فى بعض الأحيان يقولون للظالم : ما أعظمك فأنت المنقذ العظيم ، وأنت البطل العظيم ، وأنت المحرر !! وهذه هى المصيبة ، والحديث يقول : « إذا رأيت أمتى تهاب أن تقول للظالم : يا ظالم ، فقد تودّع منها » [1] فحينما تنزل العقوبة ، فإنها لم تنزل جزافًا ولا ظلمًا ، إنما نزلت ؛ لأن المجتمع يستحق هذا فى مجموعه ، وإن كان فيه الخيّرون ، ولكنهم هنا يؤخذون فيمن يؤخذ ، ثم يبعثون على نياتهم يوم القيامة ، ولذلك نرى الرسول ﷺ حينما سئل : أتهلك القرية وفيها الصالحون ؟ قال : نعم ، قالوا : لِمَ ؟ قال : بتهاونهم وسكوتهم على معاصى الله ، وفى بعض الروايات : إذا كثر الخَبَثَ أو كثر الخُبُث [2] فعندما يكثر الخبث على الطيب تنزل النقمة .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ كتب أحد العلماء وهو الأستاذ جودت سعيد من علماء الشام ـ كتب كتابًا تحت هذا العنوان « حتى يغَيروا ما بأنفسهم » تكلم فيه عن هذه السنة وهو كتاب جيد ينبغى أن يقرأ ، وقد نقلت عنه فى كتابى « الصحوة بين الجحود والتطرف ». علاَّمة الجزائر ، والمصلح الإسلامى المعروف : الشيخ عبد الحميد بن باديس جعل شعار جمعية العلماء فى الجزائر ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده ج ٣ ص ١٦٣ ، ١٩٠ .

(٢) الحديث عن أم المؤمنين أمِّ الحكم زينب بنت جحش رضى الله عنها أن النبى ﷺ دخل عليها فزعًا يقول : « لا إلّه إلا الله ! ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه » وحلّق بإصبعه الإبهام والتى تليها قالت زينب بنت جحش : فقلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كثر الخبث » أخرجه البخارى فى كتاب الأنبياء والفتن والمناقب ، ومسلم فى الفتن والترمذى فى الفتن وابن ماجه ومالك ، وأحمد فى المسند .

بأَنفُسِهِمْ ﴾ ولا زالت ملتقيات الفكر الإسلامى فى الجزائر تلتقى تحت هذا الشعار ، فهو شعار فى غاية الأهمية ٠

والنقم حينما تنزل تنزل على (القوم) لا على أفراد ، والفرد يمكن أن يبتلى فينزل به العقاب ، وإن لم يفعل شيئًا ، كما ذكر الله تعالى فى سورة البروج ، أولئك المؤمنين الذين خُدّت لهم الأخاديد ، وشقت لهم الشقوق ، ووضعت فيها النار ، وألقوا فيها ولا ذنب لهم : ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ العَزِيزِ الحَمِيدِ ﴾[البروج : ٨] فالفرد قد يبتلى ويمرض دون ذنب منه ، ولكن الجماعة والقوم والأمة والمجتمع هؤلاء لا تنزل بهم العقوبة إلا بمعصية وذنوب ، وهذا ما قرره الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فأحسن التقرير ٠

سنة الله فى المجتمعات أنها تنمو وتزدهر وتتقدم وتقوى وتنتصر بالمعانى الإيمانية والأخلاقية ، وبالعلم وبالعمل حسب السنن الإلهية ، وتذبل المجتمعات وتذوى وتمرض ، وقد تموت نهائيًا ، وتسقط وتزول ، كما زالت أمم كثيرة وانتهت من خريطة العالم ، بذنوبهم وعصيانهم وكفرهم بأنعم الله عزّ وجلّ ٠ ومن هذه الذنوب : غفلتهم عن سنن الله تعالى ، وإطراحهم لشبكة الأسباب والمسببات ٠

﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ ﴾ لا يغنى عنهم الحفظة الذين يحرسونهم فى هذه الحالة ، ولا يغنى عنهم أحد ﴿ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ يلى أمورهم ويدفع عنهم وينصرهم ، كما قال الله تعالى حينما أخذ قارون وخسف به وبداره الأرض :﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾[القصص:٨١]وهكذا حينما يأخذ الله الظلمة أخذه الأليم الشديد كما قال الرسول ﷺ« إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » [١]٠ ثم تلا

---

(١) رواه البخارى ومسلم فى صحيحيهما من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه وتمامه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله يملى للظالم فإذا أخذه لم يفلته ثم قرأ ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ القُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ بخ تفسير سورة ١١ ، ٥ ، م فى كتاب البر ٦٣ ، كما رواه ابن ماجه فى الفتن ٣٣ ٠

الآية الكريمة من سورة هود ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[هود : ١٠٢] .

﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا ﴾ إذا أراد بهم ما يسوءهم أو يحزنهم من فقر أو مرض أو مجاعة أو بلاء ، أو تسليط عدو ، أو إنزال كوارث دنيوية كالزلازل والبراكين المتفجرة ، والفيضانات المغرقة ، والجدب والقحط ، فلا يردّه أحد ، وهؤلاء هم الذين جنوا على أنفسهم : ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[الكهف :٤٩] فالله لا يعاقب الناس بشيء لم يفعلوه : إذ أن سنة الله تعالى أن ينزل بهم العقاب بما كسبت أيديهم : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا ﴾[الروم : ٤١] ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾[الشورى : ٣٠] وهذا ما قدّره الله في الكون أن يرسم الإنسان مصيره بيديه وبأعماله ، فيُجرى عليه أقداره من خلال أعماله وتصرفاته التي يستحق بها النعمة أو العقوبة : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾[إبراهيم : ٧] فالإنسان يستطيع أن يجلب على نفسه النعمة ويستطيع أن يجلب على نفسه النقمة .

* * *

﴿ هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ، وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِى اللهِ ، وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ * لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِى ضَلاَلٍ * وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلاَلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، قُلِ اللَّهُ ، قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ، أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ، أَمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ، قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَىْءٍ ، وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ .

[الرعد : ١٢ – ١٦]

ظاهرة البرق آية من آيات الله :

هذه الآيات تتمة للشوط الذى يعرض لنا آيات الله فى الآفاق وفى الأنفس ، وإن كان الذين كفروا قد طلبوا آية واحدة من النبى ﷺ وقالوا : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مَنْ رَبِّهِ ﴾ فإنهم بذلك قد دللوا على عماهم ، فأين هم من آيات الله تعالى المبثوثة من فوقهم ومن تحتهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ومن بين أيديهم ومن خلفهم ؟ وهم فى هذا العراء المكشوف – خصوصاً فى بلاد مثل بلاد العرب – يتعايشون مع الطبيعة لا يعيشون فى علب مغلقة ، كما نعيش نحن فى بيوت مغلقة ، إنهم يتعاملون مع الطبيعة العارية ، يرون الظواهر الكونية بأعينهم ،ويسمعونها بآذانهم ، ويتجاوبون معها بفطرهم وقلوبهم،ولذلك يعرض الله تعالى عليهم هذه الظواهر الطبيعية : ﴿ هُوَ الَّذِى يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِىءُ السَّحَابَ الثِّقَالَ * وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ، وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِى اللهِ ، وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ هو الذى يريكم هذه الظواهر ترونها بأعينكم مثل ظاهرة البرق ، وتسمعونها بآذانكم مثل ظاهرة الرعد ، فالبرق يريكموه ؛ ليخيفكم ويطمعكم ، هذا الضوء اللامع الساطع الخاطف ، الذى يبلغ من شدته أحياناً أن يكاد يذهب الأبصار

كما قال الله تعالى :﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِه يَذْهَبُ بالأَبْصَارِ ﴾[النور : ٤٣] وكما قال : ﴿ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُم ﴾[البقرة : ٢٠].

هذه الظواهر يريكموها الله تعالى خوفًا وطمعًا ؛ لتخافوا وتطمعوا ، لتنقادوا إليه بالرغب والرهب ، إذا رأيتم البرق خفتم من سطوته ونقمته ، وطمعتم فى فضله ورحمته ، خفتم من الصواعق تنزل عليكم ، وطمعتم فى المطر يغيثكم الله به ، أو خفتم أن ينزل الماء مدرارًا فياضًا أكثر مما تبتغون فيهلككم ويغرقكم ، كما فى السيول المدمرة والفيضانات الهائلة ، فالشىء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده ،ولذا كان من أدعية الصحابة رضوان الله عليهم فى الاستسقاء « اللهم حوالينا ولا علينا » .

﴿ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾خوفًا أن يزداد الأمر فيكون من ورائه الهلاك ، وطمعًا أن ينزل بالقدر الذى يصلح ولا يفسد ، وينفع ولا يضر ، ويحيى ولا يميت ، والإنسان يقابل بين هاتين النزعتين:الخوف والطمع، أو الرغب والرهب ، حتى يظل متعاملاً مع الله تعالى راغبًا راهبًا ، خائفًا طامعًا : ﴿ وَلاَ تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[الأعراف:٥٦] ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[السجدة : ١٦] خوفًا من عذابه وطمعًا فى ثوابه ، خوفًا من عقابه وعدله ، وطمعًا فى رحمته وفضله ، وهنا فى هذه السورة كما فى سورة الروم حينما سرد الله علينا مجموعة من آياته فى الكون : ﴿ وَمِنْ آيَاتِه أَنْ خَلَقَكُم مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾ [الروم : ٢٠] ، ﴿ وَمِنْ آيَاتِه أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ [الروم : ٢١] ، ﴿ وَمِنْ آيَاتِه خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ﴾[الروم : ٢٢] إلى أن قال : ﴿ وَمِنْ آيَاتِه يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾[الروم : ٢٤] فآية البرق إنما هى للخوف والطمع .

السحاب ومم يتكون ؟ :

﴿ وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴾ أى المحملة بالماء تنزل منها الأمطار تحيى الأرض بعد موتها وتروى الظمأى ،وتؤدى للناس حاجاتهم من الحياة﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾[الأنبياء : ٣٠] والله سبحانه يقول : ﴿ حَتَّى إِذَا

أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ [الأعراف : ٥٧] فالله هو الذى ينشىء هذه السحاب الثقال التى تحملت بأبخرة الماء وتصاعدت ، ثم تنزل مطرًا إذا أذن الله لها .

ذكر بعض المفسرين أن السحاب عبارة عن أبخرة صعدت من الأرض وتكونت فى الجو ، حتى إذا وصلت إلى درجة برودة معينة نزلت ، وأنكر هذا عليهم مفسرون آخرون وقالوا : إن هذا من كلام الفلاسفة ، والله سبحانه وتعالى هو الذى ينشىء السحاب الثقال ! ونقول : ليس كل كلام الفلاسفة باطلاً ، بل فيه الحق والباطل ، فيؤخذ منه الحق ويترك الباطل ، وما قاله هؤلاء المفسرون قد اثبته العلم الحديث ، ويدرسه التلاميذ فى المدارس ، وقد أصبحنا نركب الطائرات وتعلو بنا حتى نرى السحاب من تحتنا ، وفوقه الشمس ساطعة .

وليس معنى أن الله ينشىء السحاب أنه لا ينشئه بأسباب ، فالله ينشىء الأشياء ويخلقها وفق سنن معينة ، وبأسباب ربط بها هذا الكون كله ، فهذا الكون مرتبط بشبكة من الأسباب والمسببات ،وليس هناك أى نزاع بين ما يقرره العلم وما جاء به الدين فى هذه الناحية ، والعرب قديمًا أشاروا إلى أن السحاب أصله من الماء :

كالبحر يمطره السحاب وماله ... فضل علـــيه لأنه من مائه

تسبيح الرعد بحمد الله وكيف يكون ؟ :

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ﴾ الرعد مسبّح بحمد الله ينزّه الله تعالى عن كل نقص ، وعن كل مالا يليق بذاته ، كما أنه يحمده سبحانه وتعالى ويصفه بالكمال ، فكيف يسبّح الرعد ؟ هل له عقل حتى يسبِّح ؟ قال بعض المفسرين : المراد سامعو الرعد فهناك مضاف محذوف ، وهذا تأول وتكلّف ، فالقرآن يؤكد أن الكون كله يسبح بحمد الله تبارك وتعالى ﴿ سَبَّحَ لله مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[الحشر :١، الصف:١] ، ﴿ يُسَبِّحُ لله مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ لَهُ الملكُ وَلَهُ الحَمْدُ ﴾[التغابن : ١] ، ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء : ٤٤] ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ

مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ﴾ [النور : ٤١] فما في السموات وما في الأرض يسبح بحمد الله ، « وما » لغير العقلاء ، كما أن من في السموات والأرض يسبح بحمد الله ، و « من » للعقلاء ، أي أن الكون كله ، عقلاءه وغير عقلائه ، يسبح بحمد الله تبارك وتعالى ، فهي ظاهرة عامة ولذا فالله تعالى يقول : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ، وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٤٤] فالتسبيح عام ولا يصح أن يقال : « تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ» أي من في السماوات السبع والأرض، وإلا فلم يجز أن يأتي بعدها «ومن فيهن » ، وهذا يعني أن السموات ذاتها تسبح ، والأرض تسبح بحمد الله ، ومن فيهن من العقلاء ، الملائكة في السموات ، والإنس والجن في الأرض يسبحون ، وكل ما في الكون مسبح بحمد الله .

والتسبيح الذي تسبحه هذه المخلوقات غير العاقلة غير معروف لنا ، ولا ندري أي نوع من التسبيح هو ؟ فالبعض يقول : لعل التسبيح بلسان الحال ، والعرب تقول : لسان الحال أفصح من لسان المقال ، فهناك كلام بلسان الحال وهناك كلام بلسان المقال ، فهذه المخلوقات تسبح ، أي تدل على الله عزّ وجلّ ، وهذه الظواهر دالة على خالقها ومنشئها ومبدعها ، وهذا هو تسبيحها وإن لم تتكلم بلسان ذلق ، والبعض الآخر يقول : إنها تسبّح ولكن نحن لا نعرف والله تعالى يقول : ﴿ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ أي لا ندري كنه هذا التسبيح ، والحقيقة التي نؤمن بها أن هذا الكون كلّه مسبّح بحمد ربه سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ، كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاَتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [النور : ٤١] .

وهذا الرعد يسبح بحمد الله ، وهناك بعض الروايات تقول:إن الرعد ملك من الملائكة (١) ، ولكن ليس في الصحيحين شيء من هذا ،والسياق القرآني يدل على غير هذا ، وفي هذه السورة : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره ج ٢ ص ٥٠٥ .

خيفَته ﴾ والأصل فى العطف أن يقتضى المغايرة ، فالملائكة إذن شىء غير الرعد وليس الرعد ملكًا كما يقال ،والقرآن يدلنا على أن الظواهر والقوى غير العاقلة فى هذا الكون تسبح بحمد الله ، والقوى العاقلة الملائكة والجن والإنس تسبح ، فالجميع يسبح ، وهذا دليل علي أن الرعد هو هذه الظاهرة التى نسمع صوتها عند احتكاك السحب بعضها ببعض على حسب ما يفسر الفيزيائيون والطبيعيون هذه الظاهرة .

﴿ وَالْمَلائكَةُ منْ خيفَته ﴾ والملائكة تسبحه أيضًا سبحانه وتعالى خشية له وإجلالاً له فهم كما قال الله تعــالى : ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٠] : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٦] فهم يسبحون دائمًا .

معنى إرسال الصواعق :

﴿ وَيُرْسِلُ الصَوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ ﴾ هذه النيران النازلة من السماء ، لتحرق وتدمر وتهلك، يرسلها الله سبحانه وتعالى على من يشاء ويصيب بها من يشاء ، كما أصاب بها قوم عاد وثمود أخذتهم الصاعقة : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَــةِ عَادٍ وَثَمُــودَ ﴾ [فصلت : ١٣] ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [فصلت : ١٧] وكما حدث لقوم موسى ﴿ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ [النساء : ١٥٣] . فهذه الصواعق يرسلها الله عز وجل على من يشاء من عباده ؛ عقابًا لهم وانتقامًا منهم ، وهو صاحب هذا الكون يسيره كما يشاء ، قد يخرق الأسباب التى يسير عليها هذا الكون ويخرق السنن ؛ لأنه هو المسيطر على ذلك كله ، وقديسيّر الأشياء فى وقت معين ، وفى زمان معين ، لحكمة معينة ، هو الذى يزلزل الأرض زلزالها ، وهو الذى يوقد الزلازل الخامدة ، وينشطها بعد خمول ، ويحركها بعد سكون ، فهذا أمره وهذه إرادته فى وقت معين ، وفى مكان معين ،ولقوم معينين ، فهذه الظواهر الكونية فى قبضة الله تعالى يستخدمها كما يشاء لما يشاء مع من يشاء ولذلك قال هنا : ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ ﴾ .

﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ ومع هذا فهؤلاء الناس يجادلون فى الله ، يجادلون فى وحدانية الله ، يجادلون فى قدرة الله ، يقولون كما حكت عنهم السورة : ﴿ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ويماحكون فى طلب الآيات ويقولون : ﴿ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ والآيات من حولهم تسدّ عين الشمس ، وكم رأوا من الآيات فأعرضوا، فهؤلاء رغم هذه الظواهر الناطقة من حولهم يجادلون في الله ، كالذين حكى الله عنهم ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ * ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ [الحج : ٨ ، ٩] من المتكبرين والمختالين والفخورين بأنفسهم .

وقد وردت روايات « أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً مرة إلى رجل من فراعنة العرب فقال : اذهب فادعه لى فقال : يا رسول الله إنه أعتى من ذلك . قال : اذهب فادعه لى قال : فذهب إليه فقال : يدعوك رسول الله قال : وما الله أمن ذهب هو أو من فضة أو من نحاس ؟ قال : فرجع إلى رسول الله فأخبره وقال : وقد أخبرتك أنه أعتى من ذلك فقال لى كذا وكذا فقال : ارجع إليه الثانية فادعه فرجع إليه فعاد عليه مثل الكلام الأول فرجع إلى النبى ﷺ فأخبره فقال : ارجع إليه فرجع الثالثة فأعاد عليه ذلك الكلام فبينا هو يكلمنى إذ بُعثت إليه سحابة حيال رأسه فرعدت فوقعت منها صاعقة فذهبت بقحف رأسه فأنزل الله تعالى : ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ .. ﴾ (١) ، ولكن العبرة بعموم الآية ، فالآية تعجّب من شأن هؤلاء الناس يجادلون فى الله برغم ما رأوا من الآيات الناصعة الساطعة القاطعة .

﴿ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴾ الله أشد مكرًا وأسرع مكرًا من هؤلاء ،يمكر بهم من حيث لا يشعرون فهو شـديد العقـوبة والمحال ، والتدبير الذى يوصل إليهم

---

(١) تروى فى أسباب النزول وقد ذكرها الواحدى فى أسـباب النزول عن أنس بن مالك ص ٢٠٤ وذكرها ابن كثير فى تفسيره ج ٢ ص ٥٠٥ عن أبى يعلى الموصلى من حديث أنس بن مالك ، ورواه ابن جرير من حديث على بن أبى يسار ، وروى نحوه البزار وأبو بكر بن عياش ، وروى أيضًا فى أسباب نزول ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ ﴾ قصة عامر بن الطفيل وإربد بن قيس انظر الواحدى أسباب النزول ص ٢٠٥ .

ما يكرهون من حيث لا يشعرون ، وقد ورد على لسان عبد المطلب حينما جاء أبرهة الأشرم إلى مكة وأراد أن يهدم البيت الحرام قال :

لاهُمّ إن العبد يمنع رحلــه فامنع رحالك

وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك

لا يغلبن محالهم وعديدهـــم يومًا محالك

أى لا يغلبن مكرهم مكرك ولا كيدهم كيدك ولا قوتهم قوتك .

الله وحده له دعوة الحق :

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾ الله سبحانه وتعالى صاحب هذه الآيات الذى يرى الناس البرق خوفًا وطمعًا ، وينشىء السحاب الثقال ،والذى يسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته ، والذى يرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ، تبارك وتعالى الشديد المحال له دعوة الحق ، له وحده لا لغيره ، وهذا التقديم فى « له » أفاد انفراده سبحانه بدعوة الحق ، فليست لغيره ، هو وحده الذى يُدعَى بحق ، وهذا من باب إضافة الموصوف إلى الصفة ، فهو الذى يدعى بحق فيجيب من دعاه ؛ لأنه وحده القادر على إجابة الداعى ، يستطيع أن يعطى كل من دعا سؤاله ويحقق طلبه ؛ لأن الخزائن كلها بيده .

﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ﴾أما غيره فدعوته باطلة ، إذا دُعى إنما يدعى بباطل ، والذين يدعون من دون الله يدعون من لا يملك شيئًا ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ، فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[الأعراف : ١٩٤] يدعون من لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا .

وكلمة الدعاء فى القرآن الكريم تحمل معنى العبادة ، فكثيرًا ما يعبّر عن العبادة بالدعاء ، وقد يقصد منها السؤال والطلب ، إنما عبّر عن العبادة بالدعاء ؛ لأن الدعاء مخّ العبادة ،وروح العبادة هى التضرع والابتهال والشعور بالحاجة إلى المدعو والتعبير عن ذلك ،وبسط أكف الضراعة والذل إليه ، وليست روح العبادة هى هذه الرسوم والأشكال ، فالعبادة الحقيقية يحياها الإنسان حينما يدعو دعاء المضطر ، ومن هنا يجيب الله تعالى المشركين إذا دَعَوْا فى ساعة

العسرة والشدة حينما تحيط براكبى السفينة الأمواج من كل مكان ، ويظنون أنهم قد أحيط بهم ، وتضطرب بهم السفينة ، وتتأرجح ويصبح الموت حولهم ، هنالك يخلصون الدعاء كما حكى القرآن: ﴿ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ ﴾[يونس: ٢٢ ، العنكبوت : ٦٥ ، لقمان : ٣٢] ففى هذه الحالة رجعوا إلى الفطرة وذاب الطلاء الكاذب الذى غَشَّى فطرهم، ولم يذكروا هبل ولا اللات والعزى ، بل قالوا : يا رب ! وهنا يستجيب الله لهم ، فحقيقة العبادة وروحها ومخها كما ورد فى حديث ضعيف هو الدعاء ،وجاء فى الحديث الذى صححه الترمذى « الدعاء هو العبادة »[١]. ثم تلا قول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[غافر: ٦٠] ومعنى (عن عبادتى)هنا: أى عن دعائى ، فالسياق يقتضى هذا ، فالدعاء هو العبادة .

الذين يدعون غير الله :

ومن هنا فالذين يَدْعون من دون الله ، أى يَعبُدون من دون الله ، أو يدعُون آلهتهم المزعومة – بالفعل – أن تجلب لهم النفع ، أو تدفع عنهم السوء والضرّ ، أو تحقق لهم الخيرات ، وتدرأ عنهم الشرور ، أو تنصرهم على عدوهم ، أو تشفيهم من أمراضهم .

هؤلاء ﴿ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَىْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾ لا تستجيب هذه الآلهة وهذه الأصنام وهذه الأوثان المعبودة لمن يدعوها ويعبدها بشىء ، إلا كاستجابة من يبسط كفيه ليصل إلى الماء ، ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، إما لأن الماء بعيد كأن يكون فى بئر ، وهو يبسط كفيه إلى الماء ، ولكن القاع بعيد ، فلا يستطيع أن يصل إلى الماء ، ولا يستطيع أن يصل إلى فيه ، وإما لأنه يدعو الماء فيبسط كفيه ويقول : أيها الماء تعال إلى فىّ ، فكأنه ينادى الماء ويخاطبه ليبلغ فاه ، والماء جماد لا يعقل ولا يسمع ، فلن يتحرك إليه

(١) الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده ج ٤ ص ٢٦٧ ، ٢٧١ ، ٢٧٦ عن النعمان ابن بشير رضى الله عنه ولفظه : « إن الدعاء هو العبادة » ورواه الترمذى فى كتاب التفسير وقال : حسن صحيح ، كما رواه النسائى وابن ماجه وابن أبى حاتم وابن جرير وأبو داود وغيرهم .

ولن يصل إلى فمه ، وهذا هو شأن الذين يدعون آلهتهم من دون الله ، سواء كانت هذه الآلهة أوثانًا أم أحجارًا أم أشجارًا أم أبقارًا أم أنهارًا أم جبالاً ٠

﴿ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾ فادعوا ما شئتم هذه الآلهة المزعومة ، فلن تلبى طلبكم ؛ لأنها عاجزة كما قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ، وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ، وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر:١٣ ، ١٤] فهذا هو شأن تلك الآلهة المزعومة وشأن من يدعونها ٠

﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾ فى ضياع ،وفى ذهاب ؛ لأنه دعاء باطل ، يدعو من لا يستجيب له إلى يوم القيامة : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴾ [الأحقاف : ٥] من أضلّ من هذا ؟! إنه دعاء ضائع هباء : أن يدعو الإنسان من لا يستجيب له فى الدنيا والآخرة،وقد ذكر لنا القرآن من أحوال أهل النار : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ * قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ ، قَالُوا بَلَى ، قَالُوا فَادْعُوا ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾[غافر : ٤٩ ، ٥٠] وهذه حقيقة فدعاء الكافرين ضائع ضال ذاهب لا جدوى منه ؛ لأنه دعاء من لا يستجيب له ٠

سجود الكون لله :

ثم قرر القرآن حقيقة أخرى مكملة لحقيقة التسبيح ، تظهر لنا أيضًا صفحة من صفحات هذا الكون ، وتصور الإسلام لهذا الكون ، فهذا الكون فى التصور الإسلامى كون مسبح بحمد الله ، ساجد لله سبحانه وتعالى ولذا قال : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلاَلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ ٠ فكل من فى السماوات والأرض يسجد لله طائعًا كأهل الإيمان ، أو كارهًا كغير المؤمنين ، وهناك من يسجد سجود اختيار شأن المؤمنين من بنى آدم ومن الجن ومن الملائكة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾[الأعراف : ٢٠٦] فالملائكة يسجدون ، والمؤمنون من

بنى آدم يسجدون ، والمؤمنون من الجن يســجدون ، وهناك المخلوقات الأخرى الساجدة لله سجود تسخير ، فالله هو الذى يسخّرها،فهى منقادة مذعنة لله عز وجل ماضية فى رحاب سننه لا تتمرد عليه ؛ ولهذا فالكون كله ساجد لله ، من فى السموات ومن في الأرض وما فى السـماوات وما فى الأرض:﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[النحل : ٤٩] فهذه علاقة الكون بالله : علاقة التسبيح والتنزيه،وعلاقة السجود والانقياد ، ليس هناك فى هذا الكون ذرة خارجة عن قبضة الله عزّ وجلّ أو متمردة عليه ، يوجد التمرد فقط بالنسبة لها النوع المكلف المختار ، ولذلك نرى القرآن الكريم قد ذكر فى سورة الحج : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ [الحج : ١٨] فحينما ذكر المخلوقات غير العاقلة وغير المختارة ذكرها بالعموم والإطلاق : من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب ، وحينما جاء إلى هذا النوع الذى أعطاه الله حرية الإرادة وحرية الاختيار قال : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ﴾ ؛ لأن أناسًا آخرين لا يسجدون لله عز وجل ، قد يسجدون لأصنام ، وقد يسجدون للشمس كما حكى الهدهد لسليمان فقال : ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ [النمل : ٢٤] وقد يسجدون لبشر من دون الله كما قال فرعون وملؤه : ﴿ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴾ [المؤمنون : ٤٧] إلى آخر هذا السجود لغير الله من البشر،أما المخلوقات الأخرى فهى لا تسجد إلا لله .

فهذه الآية الكريمة تقررهذه الحقيقة ، حقيقة الكون الساجد لربه ، كما قُررت حقيقة الكون المسبح بحمد ربه ، فالكون طوع أمر الله عز وجل ، وبتعبير آخر : مُسْلم لله كما قال الله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران : ٨٣] فيسجد هؤلاء المخلوقون ، بل وتسجد ظلالهم الملتصقة بهـم ﴿ وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴾ من ذوى الأجسام الكثيفة من الإنسان وغيره ، فهؤلاء ظلالهم أيضًا تسجد لله كما تسجد شخوصهم ، وذلك – على وجه الخصوص – إنما يكون

بالغدو والآصال أى فى البُكَر أوائل النهار ، وفى الآصال : أواخر النهار ، ولعل ذكر هذين الوقتين بالذات ؛ لأن الظلال أى الخيالات التى تظهر فى الضوء تكون ممتدة فيهما أكثر من غيرهما ، وقد يكون المقصود بالغدو والآصال الأوقات كلها كما نقول : هو يفعل كذا صباح مساء ، أى فى كل الأوقات ، أى أن هذا السجود مستمر بكرة وعشيًّا ، غدواً وأصيلاً ، فهو سجود دائم ومستمر ، على خلاف سجود الإنسان الذى قد يحدث فى بعض الأحيان دون بعضها الآخر .

ضرورة تجاوب الإنسان مع الكون فى السجود والتسبيح :

هذه بعض آيات الله تبارك وتعالى فى هذا الكون الذى تتحكم فيه إرادة الله عز وجل ، ذكرها الله للناس ؛ ليتعايشوا مع الكون بقلوب مفتوحة ، ويعلموا أن هذا الكون ساجد مسبّح ، فليكونوا ساجدين مسبحين ، وقد ورد فى الحديث : « أن المؤذن حين يؤذن يتجاوب معه الشجر والمدر وكل شىء » ، وكذلك الملبى فى الحج حينما يلبى ، يلبى معه الشجر والمدر والحجر [1] ، فكل ما حول الإنسان يتجاوب معه فى التسبيح بحمد الله ، والتلبية لله عز وجل كما ذكر القــرآن عن ســيدنا داود ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُــورَةً ، كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [سورة ص : ١٨ ، ١٩] ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ [سبأ : ١٠] الكــون متجاوب مع الله عز وجل تسبيحًا وتحميداً وسجوداً ، فينبغى أن نكون كذلك ، وينبغى ألا نتعامل مع هــذه الظواهر بقلوب جامدة ، وقد روى أن الرسول ﷺ كان إذا رأى البرق أو ســمع الرعد يقول : « اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك » [2] ويقول : « سبحان

---

(١) رواه الترمذى فى كتاب الحج باب ما جاء فى فضل التلبية والنحر عن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مسلم يلبى إلا لبى مــن عن يميــنه أو عن شماله مــن حجر أو شجر أو مدر حتى تنقطع الأرض من ها هنا وها هنا » ورواه ابن ماجة فى كتاب المناسك باب التلبية ، وروى ابن ماجه أيضاً مثل ذلك عن المؤذن إذا أذن ، فى كتاب الأذان .

(٢) حديث « اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك » رواه الإمام أحمد فى مسنده ج ٢ ص ١٠٠ عن سالم عن أبيه ، ورواه الترمذى فى الدعــوات ٤٩ ، وذكره ابن كثير فى تفسيره ج ٢ ص ٥٠٥ ، والنووى فى الأذكار ص ١٦٤ عن الترمذى بإسناد ضعيف عن ابن عمر رضي الله عنهما .

من يسبح الرعد بحمده » (١) ، وكان الإمام على - كرم الله وجهه - إذا سمع الرعد ينظر إلى السماء ويقول : « سبحان من سبّحتَ له » (٢) وكذلك كان عبد الله بن الزبير - رضى الله عنهما - يقول : « سبحان من يسبح الرعد بحمده ، والملائكة من خيفته ! هذا وعيد للناس » (٣) ، وهكذا ينبغى أن يكون تجاوب الناس مع هذه الظواهر ومع هذا الكون الساجد المنقاد المؤمن المسبّح بحمد الله تبارك وتعالى .

كلمة (قُلْ) فى القرآن :

﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ﴾ يخاطب الله رسوله محمداً ﷺ بقوله : ﴿ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ﴾ ، ومما يلفت العقل والقلب فى القرآن الكريم قول الله تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ وهى كلمة تتكرر كثيراً في القرآن الكريم (٤) ﴿ قُل هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾[الإخلاص:١] ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ ﴾ [الفلق : ١] ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾[الناس : ١] ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ * لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴾[الكافرون : ١ ، ٢] ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[الأنعام : ١٦٤] ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [الأنعام : ١٤] فهى أمر إلٰهى من الله تعالى لرسوله ، وهذا الأمر يدل على أن

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره ج ٢ ص ٥٠٥ عن ابن جرير الطبرى ، عن أبى هريرة رفعه أنه كان إذا سمع الرعد قال : « سبحان من يسبح الرعد بحمده » . .

(٢) انظر ابن كثير فى تفسيره ج ٢ ص ٥٠٥ ، والنووى فى الأذكار ص ١٦٤ قال الإمام النووى : « وروى الإمام الشافعى رحمه الله فى الأم بإسناده الصحيح عن طاووس الإمام التابعى الجليل رضى الله عنه أنه كان يقول إذا سمع الرعد : سبحان من سبحت له . قال الشافعى : كأنه يذهب إلى قوله تعالى : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِه ﴾ .

(٣) انظر ابن كثير فى تفسير القرآن العظيم ج ٢ ص ٥٠٥ ، وانظر كذلك الأذكار للنووى ص ١٦٤ قال الإمام النووى : « وروينا بالإسناد الصحيح فى الموطأ عن عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال : سبحان الذى يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته » .

(٤) ورد فعل الأمر « قُلْ » المخاطب به الرسول ﷺ فى القرآن الكريم ثلاثمائة واثنين وثلاثين مرة (٣٣٢) . انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (محمد فؤاد عبد الباقى) ص ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ .

محمداً ﷺ في هذا القرآن يتلقي ويتعلم فهو مُعَلَّمٌ ، ليس القرآن من صنعه ولا من عمل يده ، ولكن هناك سلطة أعلى منه تأمره وتنهاه وتقول له : قل كذا وقل كذا ، هذه السلطة هي صاحبة القرآن وصدق الله العظيم الذى يقول : ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : ١] ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾ [النمل : ٦] ، ولذلك فمحمد يتلقى من ربه ، حين يقول الله له ﴿ قُلْ ﴾ ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ﴾ يريد أن يقرر حقيقة التوحيد ، توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية ، وتوحيد الربوبية لا إشكال فيه ، فقد كان العرب يقرُّون بتوحيد الربوبية ، ومن هنا قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ من الذى خلق هذه الأجرام فى العالم العلوى والعالم السفلى ، السموات التى ترونها سقفًا محفوظًا فوقكم ، ولا تعرفون عنها شيئًا يذكر ، والأرض التى تقلكم وتعيشون فوقها وجعلها الله لكم ذلولاً ، من خالقها ؟ من مسيّر أمرها ؟ اسأل هؤلاء المشركين من رب السموات والأرض؟ الذين جعلوا مع الله آلهة أخرى يدعونها من دون الله ، دعوى لا جدوى من ورائها.ولا تنتظر الجواب منهم ، فالجواب معروف ومقرر ، نطقوا به من قبل ، نطقت به ألسنتهم ونطقت به آيات الله فى الكون من فوقهم ومن حولهم « قل الله » أجب أنت يا محمد فهذا هو الجواب المتعين ولا جواب غيره ، وطالما أجابوا به ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ ، فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ ﴾ [يونس : ٣١] ﴿ قُلْ لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ، قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ * قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٨٤ : ٨٩] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [لقمان : ٢٥ ، الزمر : ٣٨] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف : ٩] فتوحيد الربوبية إذن معترف به ﴿ قُلْ مَنْ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ﴾ لا رب إلا الله ، وادعاء الربوبية لغير الله تزوير للحقيقة ، لا يقبله عقل.

ولا يقبله دين ، ولا يقبله منطق ، ومن هنا فقد أبطل الإسلام كل الربوبيات المدعاة من دون الله أيا كانت عناوينها فلا رب من الحجر ولا رب من البشر ، ولا رب من رجال الدنيا ،ولا رب من رجال الدين ، ودمغ القرآن بالشرك أهل الكتاب ؛ لأنهم ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة : ٣١] وكانت دعوة محمد ﷺ إلى قيصر وإلى النجاشى ، وإلى المقوقس وإلى أمراء أهل الكتاب ، دعوة إلى التحرر من هؤلاء الأرباب المزعومين ، ولهذا كان يختم دعوته إليهم بالآية الكريمة من سورة آل عمران : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ ﴾[آل عمران:٦٤] .

ماذا عبدوا من دون الله ؟:

﴿ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا ﴾ إذا كان رب السماوات والأرض هو الله كما أقررتم بذلك فى مواطن شتى ، وكما تدل على ذلك دلائل الكون ، ودلائل الفطرة ، ودلائل العقل ، فلماذا تتخذون مع الله أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ؟ وهذه الآلهة التى اتخذوها أولياء من دون الله لتواليهم وتنصرهم ، لا تملك هذه الموالاة ، ولا تقدر على هذا النصر ، فهذا سفه منهم . إذ المفروض أن الإنسان إذا اتخذ وليًا يتخذه قادراً على أن ينصره ، وأن يدفع عنه وأن يجلب له النفع ، وأن يدفع عنه الضر ، أما أن يتخذ وليًا عاجزًا ، فاتخاذه فى هذه الحالة نوع من السفه والحمق والجهل والغباء ! وهذا للأسف هو ما يصنعه المشركون فقد اتخذوا آلهة من دون الله أولياء لهم بزعم أنها تقربهم إلى الله زلفى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا من دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى ﴾ [الزمر:٣] والله سبحانه وتعالى ليس فى حاجة إلى وسائط كما يفعل الناس إلى ملوكهم وأمرائهم وسلاطينهم ، فباب الله مفتوح لعباده ليس عليه حاجب ولا بواب ، ومن ثمّ فليس فى حاجة إلى وسطاء وشفعاء .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَالا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ ﴾[يونس : ١٨] فهؤلاء الشفعاء والأولياء لا معنى لاتخاذهم ولا جدوى

من ذلك ؛ لأن الله هو الولى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ [الشورى : ٩] وهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرًّا ، وبالتالى فهم لا يملكون ذلك لغيرهم ، وهذا هو الواقع ، فهذه الآلهة أعجز ما تكون والله تعالى يقول عنهم : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج : ٧٣] فما الذى جعل الإنسان يتخذ هؤلاء الأولياء ؟ إنه العقل الوثنى والشرك الذى ينحط بالإنسان إلى الدرك الأسفل ، ولذا قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج : ٣١] فحينما يشرك الإنسان بالله يصبح عقله مباءة للخرافات والأباطيل والأساطير والضلالات ، ويصدق مالا يصدَّق ، ويقبل مالا يُقْبَلْ ، ومن أجل ذلك خاطبهم الله بهذا الاستفهام الإنكارى ﴿ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا ﴾ ؟! .

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ لا يستوى الأعمى والبصير ولا تستوى الظلمات والنور ، فكيف سويتم بين الكافر والمؤمن وبين المشرك والموحد ، وبين المبطل والمحقّ ؟ وكيف سويتم بين الشرك والتوحيد ، وبين الكفر والإيمان ، وبين الباطل والحق ؟ يستحيل أن يستوى الأضداد ولكن هؤلاء سووا بين الشيء وضده ، وبين الشيء ونقيضه ، وهما لا يستويان لا فى المجال الحسِّى ولا فى المجال المعنوى ،والمجال المعنوى أخطر وأشد كما قال الله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] وذلك لأن العمى الحسِّى مثلاً قد يوقع الإنسان فى حفرة ثم ينجو منها ، حتى لو أصابته جراحة عولج منها ، فإن مات فالموت ليس نهاية المطاف ، ولكن المشكل هو العمى المعنوى ، وكذلك الظلمات الحسية والمعنوية ، فظلمات العقول والقلوب بالكفر والشرك والباطل هى الأخطر .

الله وحده خالق كل شيء :

﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾ يُعجّب القرآن من فعلهم بهذا الاستفهام الإنكارى فهل التبس عليهم الأمر واشتبه

الطريق ؛ لأنهم وجدوا هؤلاء الأولياء وهؤلاء الآلهة خلقوا كخلق الله عز وجل ؟! فتشابه الخلق عليهم فهذه مخلوقات لله وهذه مخلوقات للشركاء ، وهذه تشبه تلك ، فالتبس الأمر واشتبه ؟ فهم معذورون في ذلك .

لا ليس هناك شىء من هذا .. فهؤلاء لم ولن يخلقوا ذبابًا ولا ذرة ولا شيئًا ، والقرآن يؤكد هذا بإقرار هؤلاء أن الذى خلق السماوات والأرض هو الله ﴿ هَذَا خَلْقُ الله فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِه ﴾ [لقمان : ١١] ، والذين من دونه ما خلقوا شيئًا ، ما خلقوا شبرًا ولا فترًا ولا سنتيمترًا ولا مليمترًا واحدًا فى هذا الكون ، بل لم يخلقوا درة ، تلك الهباءة الدقيقة ، ولم يخلقوا نواة فى الذرة ولا جزءًا منها ، فكيف جعلوهم شركاء وليس لهم خلق ؟ إن الإله الذى يستحق العبادة هو الخالق الذى خلق هؤلاء وخلق الشركاء أيضًا فهم مخلوقون ، ولهذا قال الله تعالي : ﴿ وَاتَّخَذُوا من دُونه آلهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَلاَ يَمْلكُونَ مَوْتًا وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُورًا ﴾ [الفرقان : ٣] ففضلاً عن أنهم لا يخلقون شيئًا هم مخلوقون : ﴿ وَالَّذينَ يَدْعُونَ من دُون الله لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل : ٢٠] ﴿ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ ، أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ١٧] .

﴿ قُلْ اللهُ خَالقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ هذا التلقين من الله للرسول ﷺ ﴿ قُلْ ﴾ ﴿ قُلْ ﴾ ﴿ قُلْ اللهُ خَالقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحدُ الْقَهَّارُ ﴾ الله وحده هو خالق كل شىء فى هذا الكون من فوق أو من تحت ، عن يمين وعن شمال ، وهو خالق الإنسان وخالق الحيوان وخالق النبات وخالق الجماد ، وخالق الأفلاك وخالق الأشياء من الذرة إلى المجرة ، الصغير والكبير من خلق الله ، وتلك الخالقية معنى يؤكده القرآن : أن الله هو الخالق وهو خالق كل شىء ، وهى من أول ما نزل القرآن ، والفوج الأول من الآيات التى أنزلها الله على رسوله ﷺ يؤكد هذا المعنى معنى الخالقية ﴿ اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذى خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذى عَلَّمَ بالْقَلَمِ ﴾ [العلق : ١ - ٤] ﴿ قُلْ اللهُ خَالقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ وهذا ما أقرّته الفطرة وأقرته الدلائل ، ولم نجد أحدًا ممن ادّعوا الألوهية يومًا مثل النمروذ فى عهد إبراهيم ، أو فرعون فى عهد موسى ، أو ممن قبلهم

أو بعدهم ادعى لنفسه أنه الخالق أو أنه خلق شيئًا فى هذا الكون ، فلم يقل نمروذ أنا خلقت بل قال : ﴿ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] ، وفرعون لم يقل إنه خلق شيئًا.وكيف يقولون : خلقنا السماء والأرض ، وهما مخلوقتان قبلهم ؟ إن أحدًا لا يستطيع أن يدعى هذا ؛ لأن الله خالق كل شىء ٠

الواحد القهار :

﴿ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ الواحد المنفرد بالخلق والإيجاد ، الواحد فى ذاته وصفاته وأسمائه ، القهار الغالب الذى لا يغلبه أحد ولا يعجزه شىء ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام : ١٨ ، ٦١] يقهر ولا يُقهر ، يغلب ولا يُغلب ، ولذلك جاءت هذه الصيغة ﴿ الْقَهَّار ﴾ صيغة المبالغة ، فقد يوجد من الناس من يقهر غيره ، يستضعف إنسانًا فيقهره أو يستضعف يتيمًا فيقهره : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ ﴾ [الضحى : ٩] ولكن لا يوجد إلا الله ﴿ الْقَهَّارُ ﴾ ، والواحدية والقهّارية صفتان من صفات الله عز وجل لا يشاركه أحد فيهما ، ولذلك نراهما فى القرآن متلازمتين [١] فهذا يوسف عليه السلام يقول : ﴿ يَا صَاحِبَىِ السِّجْنِ أَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [يوسف : ٣٩] ومن لم يعرف هذا فى الدنيا يعرفه يوم القيامة ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ، وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم : ٤٨] ﴿ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ ، لاَ يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ، لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦] ٠

توحيد الربوبية دليل على توحيد الإلٰهية :

والقرآن استدل بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية ، فالمشركون يقرون بتوحيد الربوبية كما تقدم ، ومع إقرارهم هذا اتخذوا أولياء من دون الله ، اتخذوا آلهة مع الله عز وجل !! ، ولذا كان الاحتجاج عليهم بتوحيد الربوبية

(١) وردت هاتان الصفتان متلازمتين هكذا « الواحد القهار » فى القرآن الكريم ست مرات فى يوسف (٣٩) ، وفى الرعد (١٦) وفى إبراهيم (٤٨) ، وفى « ص » (٦٥) ، وفى الزمر (٤) وفى غافر (١٦) ٠ انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (محمد فؤاد عبد الباقى) ص ٥٥٤ ٠

حتى يوحّدوا الله توحيد الألوهية،توحيد العبادة ، فهم لا يعبدون إلا الله،ولا يرجون إلا الله ، ولا يخافون إلا الله ، ولا يركعون ولا يسجدون إلا لله ، ولا يجعلون ولايتهم إلا لله ، فالتوحيد الحق ألا تتخذ غير الله وليًّا ، وألا تبغى غير الله ربًّا ، وألا تبتغى غير الله حكمًا ، وهى عناصر التوحيد التى دلَّت عليها سورة التوحيد سورة الأنعام:﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ﴾[الأنعام:١٦٤]﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾[الأنعام : ١٤] ﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً ﴾ [الأنعام : ١١٤] ، وهذه الآية التى معنا أرادت أن تجرّ هؤلاء إلى عقيدة التوحيد ، توحيد الإلَهية ، وأن تلزمهم إلزامًا – ما داموا يعترفون بتوحيد الربوبية – ألا يتخذوا أولياء مع الله ولا شفعاء مع الله ، فهؤلاء الأولياء والشفعاء لا يخلقون شيئًا وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم – فضلاً عن غيرهم ضرًّا ولا نفعًا ، والله وحده خالق كل شىء وهو الواحد القهار .

* * *

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد : ١٧] .

مثل الحق والباطل :

فى هذه الآية ضرب الله سبحانه وتعالى مثلاً للحق وللباطل ، للحق وأهله ، وللباطل وحزبه ، مما يراه الناس ويشهدونه من حولهم ﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ وهو المطر الذى ينزل من السماء ، سواء كانت السماء بمعنى السحاب ؛ لأن السماء فى اللغة هى كل ما علاك ، والسحاب يعلونا فيمكن أن يطلق عليه سماء ، والسقف كذلك يمكن أن يطلق عليه سماء ، أو كانت السماء بمعنى الجهة جهة السماء ، لأن المطر ينزل من فوق ، وهذا الماء النازل من السماء تسيل به الأودية وتجرى ، والأودية هى المنخفضات بين الجبال التى يجرى فيها الماء ، وقوله تعالى [**بقدرها**] أى على قدر سعة تلك الأودية وعلى قدر عمقها ، فهناك واد يتسع للقليل وهناك واد يتسع للكثير .

﴿ فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ﴾ هذا الماء النازل من السماء تجرى به الوديان وتسيل به يمينا وشمالاً فيحتمل سيله زبداً رابيًا ،والزبد الرابى : هو تلك الرغاوى المنتفخة ، وهذه الرغاوى أو الزبد الذى يحمله السيّل ذكر له القرآن نوعًا آخر فى قوله تعالى : ﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ﴾ فهناك زبد يحمله السيّل ، وهناك زبد آخر ينتج من المعادن إذا صُهرت فى النار ، فيبقى المعدن المنصهر فى القاع ، ويطفو على سطحه الخبث ، والأشياء التى خلطت بهذا المعدن وليست منه ، وهو ما سمّاه القرآن زبداً ، وقد جاء فى الحديث « مثل المؤمن كمثل الحديدة تدخل النّار فيظهر خبثها ويبقى طيّبها » ، والصائغ يوقد النار على الذهب والفضة ابتغاء حلية يتزين الناس بها وخاصة النساء ، أو أن ما يوقد عليه في النار يكون للمتاع يتمتعون به وينتفعون به كما فى الحديد والنحاس وغير ذلك من المعادن .

وكلا الزّبدين ، زبد السيل وزبد المعادن المختلفة ، لا قيمة له ولا نفع فيه ولا جدوى ؛ لأنه شيء لا بقاء له ، فهو غير متماسك وسرعان ما يتطاير ، وهو فقاعة ورغوة طافية عالية منتفخة كبيرة الحجم ، تذوب فى لحظة ولا تبقى ، هذه الفقاقيع أو الرغاوى التى نراها فوق السيول لها صفات ثلاث : الخفة ، فهى خفيفة تطفو وتعلو لخفتها ، وليست لها قيمة ، وسرعة التطاير ، والذوبان والزوال ، لذالك فهى تزول ويبقى الماء الحقيقى فى الأعماق ثابتًا مستقرًّا ، يشرب منه الناس فيرتوون ، وتشرب منه الأنعام فترتوى ، ويتطهر منه الناس ، وتستفيد منه الأرض ، فيحييها الله به بعد موتها ، وهذا هو شأن الماء ، وفرق بين الماء والزبد ، فالزبد ليس له بقاء ولا تماسك وإن كان ظاهرًا منتفخًا طافيًا عاليًا ، أما الماء فإنه مستقر ثابت راسخ فى الأعماق ، وهو الذى ينفع الله به الناس . ومثل ما سبق يقال أيضًا عن زبد الذهب والفضة والنحاس والحديد ، فالفائدة فى تلك المعادن ، ولا فائدة فى زبدها أو خبثها ؛ إذ المعادن هى الباقية وهى الأصيلة ، سواء منها ما كان يُتحلّى به ويُتزين أم ينتفع به ويستمتع .

وهذا مثل ضربه الله تعالى للحق والباطل ، فالحق هو الذى يستقر فى القلوب ، والله تعالى الذى أنزل من السماء ماءً هو الذى أنزل من السماء قرآنًا ، فكلاهما نازل من السماء ،والقرآن الذى أنزله الله من السماء تلقّته القلوب والعقول كلٌّ على قدره ﴿ فَسَالَت أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾ فالناس تأخذ من القرآن على قدر سعة أوديتهم فهذا يأخذ بمقدار ، وذلك يأخذ بمقدار ، وهذا ابن عباس رضى الله عنهما فقهه الله فى الدين ، وعلّمه التأويل ، واستجاب الله دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم له [1] فسال واديه بالكثير على خلاف غيره .

والقرآن الذى شبهه الله بالماء النازل من السماء فاستقر فى القلوب وثبت الحق الذى أنزل الله به هذا القرآن ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾[الإسراء:١٠٥] ، .

---

(١) إشارة إلى الحديث الذى رواه البخارى فى صحيحه فى كتاب الوضوء باب وضع الماء عند الخلاء عن ابن عباس ، وكذا رواه مسلم فى صحيحه فى كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل عبد الله بن عباس ، وكذا رواه الإمام أحمد فى مسنده فى مواطن متفرقة .

تأتى فى بعض الأحيان شبهات تدور في ذهن الإنسان وشكوك أو وقفات معينة حول القرآن ، وهذه أشبه بالزبد الذى يذهب ويبقى الحق ٠

وإذا نظرنا إلى الإسلام والجاهلية أو إلى الإيمان والكفر أو إلى الحق الذى بعث الله تعالى به محمداً ﷺ وكل ما عداه من ديانات وفلسفات ونحل ودعاوى وجدنا أن الحق الذى بعث الله به محمداً ﷺ هو أشبه شيء بالماء المستقر الذى يحيى الله به ويروى ، وأن الأشياء الأخرى هى أشبه شيء بالزبد الطافى ، وإن ارتفعت وعلت وظهرت وطفت وانتفخت وكبرت ، فشأنها ألا تبقى وأن تزول ؛ لأنها باطل ، والباطل عمره قصير ، وإن جلجل ووجد له أبواقًا فسرعان ما تنكشف عوراته ، وسرعان ما يتزلزل ويزول ، ولذلك قالوا : دولة الباطل ساعة ، ودولة الحق إلى قيام الساعة ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ [الأنبياء : ١٨] ، وعلى ذلك فلا ينبغى لأهل الإيمان وحملة رسالة الحق أن ييأسوا إذا وجدوا يومًا أن الباطل قد شمخ بأنفه أو ارتفع برأسه ، فإن الباطل لا يعمَّر ولا يستمر طويلاً ، فسنّة الله عز وجل أن الزبد يذهب جفاءً وأن ما ينفع الناس يمكث فى الأرض ٠

الحق ينفع الناس :

وقد عبَّر القرآن عن الحق بما ينفع الناس ، فالحق دائمًا هو الذى ينفع الناس وإن ضير أهله فترة من الزمن ، وإن أوذوا فى أنفسهم ، أو ابتلوا فى أهليهم وأموالهم ، أو صودرت أموالهم ، أو عطّلت مصالحهم ، أو رمى بهم في السجون والمعتقلات ، فليس معنى هذا أن الباطل انتصر ، لا بل الحق هو الذى ينتصر ويبقى ، فهو الذى ينفعهم ، والباطل أبدًا لا ينفعهم فى الدنيا ولا ينفعهم في الآخرة ، بل إن الحق ينفع كل الناس : المؤمن منهم وغير المؤمن ، فحينما نصر الله الإسلام كان ذلك خيرًا للبشرية كلّها ، وكان رحمة للعالمين ، والعدل يعم وينفع المسلم وغير المسلم ،والرحمة تشملهما ٠

وقد ألّفت كتابًا اسمه « الإيمان والحياة » انطلقت فيه من أن الإيمان بالحق ، والإيمان بالله ورسالاته والدار الآخرة حق ونافع ، ينفع الفرد وينفع المجتمع ، وهو

ضرورة للفرد ؛ ليطمئن ويسعد ، وهو ضرورة للمجتمع ؛ ليبقى وليتماسك ، فالحق نافع فى الدنيا قبل الآخرة ونفعه فى الآخرة عظيم (١) .

هكذا ضرب الله مثلاً للحق والباطل بالماء والزبد أو بالمعدن وزبده ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ﴾ أى مثل الحق ومثل الباطل : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ .

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ، أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ؛ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [الرعد : ١٨] .

عاقبة المستجيبين لله :

ثم بيَّن الله تبارك وتعالى عاقبة كل من الفريقين أهل الحق وأهل الباطل ، الذين استجابوا لدعوة الحق والذين أعرضوا عن دعوة الحق ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ﴾ الذين لبوا نداء الحق ودعوة الله عزَّ وجلَّ على ألسنة رسله ، وعلى لسان خاتمهم محمد ﷺ ، وفى كتابه الخالد الخاتم ، أولئك لهم الحسنى ، والحسـني مؤنث أحسـن ، وفى القرآن : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ [النحل : ٣٠] وفى الآخرة لهم الحسنى ، والحسنى هى الجنة أى المثوبة الحسنى ، والحياة الحسنى العليا .

الذين استجابوا لربهم لهم الحسنى ، أى الجنة بما فيها مما لا عين رأت ولا

---

(١) يقول فضيلة الشيخ يوسف القرضاوى فى مقـدمة كتابه « الإيمان والحـياة » ص ٥ :
« فإننا نوقن أن أنفع شيء للناس هو الحق ، وأن أضرَّ شيء بالناس هوالباطل ، وقد ضرب القرآن مثلاً للحق بالماء السائل والمعدن النافع ، وللباطل بالزبد الرابى على وجه الماء حين يسيل به الوادى ، أو الرغوة المنتفخة على وجه المعدن حين يوقد عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع .

ثم قال تعالى معقبًا على هذا التمثيل : ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾ .

والذى يمكث فى الأرض هو الحق وهو الذى عبَّر عنه القـرآن بـ « ما ينفع الناس » إنه ينفعهم ماديًا ومعنويًا ، ينفعهم أجسامًا وعقولاً وقلوبًا ، وينفعـهم أفرادًا وجماعات وينفعهم دنيا وآخرة » أ . هـ .

أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (١) وهذا لا ينافى أن لهم فى الدنيا حسنة ، فطبيعة الاستجابة والإيمان أن له أجرًا فى الدنيا وجزاءً معجلاً : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] .

عاقبة غير المستجيبين لربهم :

وأما الذين لم يستجيبوا لربهم ، وقابلوا هذه الدعوة بآذان صُمّ ، وأعين عُمْى ، وقلوب غُلْف ، من الذين قالوا : ﴿ قُلُوبُنَا فِى أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِى آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت : ٥] فهؤلاء - يوم القيامة - لو كانوا يملكون كل ما فى الأرض من أموال وفضة وذهب ، ومن متاع وحرث ، ومن زروع وثمار ، ومن كل ما يحرص الناس عليه ويتهافتون عليه فى كل الأرض ، مشرقها ومغربها ، وشمالها وجنوبها ، لو أنهم يملكون هذا كلّه ومثله معه لافتدوا به ، أى لفدوا به أنفسهم من عذاب الله عزّ وجلّ من سوء ما ينتظرهم كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٩١] وفى سورة المائدة : ﴿ إِن الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنْ لَهُم مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٦] وهم لا يملكون شيئًا ففى يوم القيامة يأتون كما صورهم القرآن : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ [الأنعام : ٩٤] ويأتون حُفاة عراة غرلاً كما ولدتهم أمهاتهم (٢) ولو فرض أنهم يملكون ملء الأرض ذهبًا ومثله معه لافتدى

---

(١) إشارة إلى الأحاديث التى رواها البخارى فى صحيحه فى كتاب بدء الخلق ص ٨ وفى كتاب التفسير عند سورة السجدة وفى كتاب التوحيد ، ورواها مسلم فى صحيحه فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها وفى كتاب الإيمان ، ولفظ مسلم عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : قال الله عز وجل : « أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.. » . كما رواه الترمذى فى كتاب التفسير وابن ماجة فى الزهد والإمام أحمد فى المسند .

(٢) إشارة إلى الأحاديث الكثيرة التى رواها البخارى فى صحيحه فى كتاب الأنبياء =

أحدهم به نفسه من العذاب ،ولماذا يفعلون هذا ؟ لأن عذاب الله شديد ، وما ينتظرهم شيء عظيم ، ولذا قال : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ فهناك حساب يسير ، وهناك حساب عسير ، وقد عبَّر عنه بسوء الحساب ، وهو كما عبّر عنه إبراهيم النخعي وبعض السّلف أن يحاسبوا على جميع ذنوبهم فلا يغفر لهم شيء ، ولا يتجاوز لهم عن شيء ، أما الحساب اليسير ففيه يتجاوز عن بعض الأشياء ، ويترك بعضها ويستر في بعضها،والهلاك بعينه أن يحاسب على كل شيء فهذا سوء الحساب ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ ﴾ ، وهذا إذا قبلت حسناتهم وهي لا تقبل ؛ لأن الكفر يحبط الحسنات : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُوراً ﴾ [الفرقان : ٢٣] ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ، أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ، لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ﴾ [إبراهيم : ١٨] . فتلك الأعمال حطمها الكفر والشرك والعياذ بالله :﴿ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ [النور : ٣٩] وأى حساب أسوأ وأعسر من ذلك ألا يجد حسنة له وألا يتجاوز عن سيئاته ؟! .

﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ المأوى : هو ما يأوى إليه الإنسان ، ليقيه من شدة الحرّ ومن شدة القرّ ، من البرد القارس الزمهرير ومن الحرّ اللافح الذي يشوى الوجوه ، ومن عوادى الجو والطبيعة ، فإذا كان مأوى الإنسان جهنم والعياذ بالله فأى مأوى هذا ؟ أبدل أن يأوى الإنسان إلى ظل ظليل أو مسكن مريح يأوى إلى جهنّم ؟! إنه لبئس المأوى .

﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ المهاد : هو ما يفترش ، ليجلس عليه الإنسان ويستريح مثل : مهاد الطفل الذى يفرش له لينام عليه ولا يشعر بما

= والتفسير والرقاق ، ورواها مسلم فى صحيحه أيضًا فى كتاب الجنة وفى لفظ له عن ابن عباس سمع النبى ﷺ يخطب وهو يقول : « إنكم ملاقو الله مشاة حفاة عراة غرلاً » . كما رواها أيضًا الترمذى والنسّائى والإمام أحمد والدارمى .

يقلقه ، فإذا كان هذا المهاد هو الأرض نفسها ، كما يحدث فى الأماكن المبتلاة بالحروب والمجاعات مثل : البوسنة والهرسك [١] ، والصومال [٢] وغيرها فيقال : افترشوا الأرض والتحفوا السماء ، أى صارت الأرض لهم فراشًا فهذا شديد وغير مريح ، وأشد منه أن يقال : افترشوا الحصباء ،وأشد منهما أن يقال : افترشوا الشوك فهم يتقلبون عليه ، وإذا كان الفراش هو النار والجمر – والعياذ بالله – فبئس الفراش أعاذنا الله منه ، قال الشاعر :

جسمى على الشمس ليس يقوى ولا على أهـــون الحرارة

فكـــيف يقـــوى على جحيم وقـــودها الناس والحجارة ؟

من لفتات صاحب (الظلال) :

وصاحب الظلال الشهيد سيد قطب – رحمه الله [٣] – له لفتات طيبة فى

---

(١) بعد أن سقطت الشيوعية فى أواخر ثمانينيات هذا القرن العشرين تفرقت دولها أشلاء ممزعة ودويلات صغيرة وتقطعت أوصال بعض الدول والدويلات التى جمعها القهر الشيوعى الأحمر وبدا يظهر للناس مسلمو تلك الدول فمن ذلك بعد تفكك يوغوسلافيا ظهرت إلى الوجود جمهورية البوسنة والهرسك المسلمة فى قلب أوربا ولم يمض عام على استقلالها حتى بدأت الحرب بين دولتى صربيا وكرواتيا وما لبث أن شملت الحرب البوسنة والهرسك فاجتمعت عليها صربيا وكرواتيا والجبل الأسود من جمهوريات يوغوسلافيا المفككة ومارسوا ولا يزالون – حرب إبادة عرقية يندى لها جبين العالم على مسمع ومرأى من أوربا وأمريكا ودول العالم التى تجاهر بحقوق الإنسان وتضمر العداء والبغض للمسلمين ، وحتى الدول الإسلامية تخاذلت عن نصرة المسلمين فى البوسنة والهرسك إنها طامة العصر وجريمته التي تكتب بدماء مسلمى البوسنة والهرسك على ناصية تسعينيات القرن العشرين .

(٢) والصومال كذلك من الدول التى يمكن أن يقال عنها : إنها من ضحايا الدكتاتورية وحكم الطواغيت فقد تركها محمد سياد برى (آخر رئيس قبل المجاعة والحرب) بعدما عصف بها وبأهلها وتفرعن حتى قتل العلماء وداس القرآن وشرع للناس شرائع غير فيها دينهم فكانت المجاعة والحرب الأهلية ومطامع الصليبيين تحت رايات الأمم المتحدة نسأل الله العافية .

(٣) هو الأستاذ الأديب المفكر والشهيد من بعد ذلك سيد قطب إبراهيم مفكر إسلامى مصرى ولد فى قرية « موشا » من قرى محافظة أسيوط بصعيد مصر عام ١٣٢٤هـ الموافق ١٩٠٦م ، درس وتخرج فى كلية دار العلوم ، ومن عجب أنه ولد فى نفس العام الذى ولد فيه حسن البنا =

تفسير القرآن الكريم ، وخصوصًا فى الجانب البلاغى والبيانى للقرآن الكريم ، فهو رجل ذوّاق قلّ أن يوجد له نظير فى التذوق البلاغى للعربية بصفة عامة ، وللقرآن بصفة خاصة ، وله كتابا : التصوير الفنى فى القرآن ، ومشاهد القيامة فى القرآن ، وقد طبّق – رحمه الله – قواعده فى التصوير الفنى فى القرآن ، على كتابه الشهير « فى ظلال القرآن » ، وأشار إلى ميزة من مزايا سورة الرعد وهى ميزة التقابل فى الأساليب ؛ إذ يعرض سبحانه الأشياء متقابلة ، يقول صاحب الظلال : « إنه جو المشاهد الطبيعية المتقابلة : من سماء وأرض ، وشمس وقمر ، وليل ونهار ، وشخوص وظلال ، وجبال راسية وأنهار جارية ، وزبد ذاهب وماء باقٍ ، وقطع من الأرض متجاورات مختلفات ، ونخيل صنوان وغير صنوان .. ومن ثمّ تطّرد هذه التقابلات فى كل المعانى وكل الحركات وكل المصاير فى السورة ، فيتناسق التقابل المعنوى فى السورة مع التقابلات الحسيّة ، وتتسق فى الجو العام .. ومن ثمّ يتقابل الاستعلاء فى الاستواء على العرش مع تسخير الشمس والقمر ، ويتقابل ما تغيض الأرحام مع ما تزداد ، ويتقابل من أسرّ القول مع من جهر به ، ومن هو مستخف بالليل مع من هو سارب بالنهار ، ويتقابل الخوف مع الطمع تجاه البرق ، ويتقابل تسبيح الرعد حمداً مع تسبيح الملائكة خوفًا ، وتتقابل دعوة الحق لله مع دعوة الباطل للشركاء ، ويتقابل من يعلم مع من هو أعمى ، ويتقابل الذين يفرحون من أهل الكتاب بالقرآن مع من ينكر بعضه ، ويتقابل المحو مع الإثبات فى الكتاب .. وبالإجمال تتقابل المعانى ، وتتقابل الحركات ، وتتقابل الاتجاهات .. تنسيقًا للجو العام فى الأداء » [(١)] .

= الإمام الشهيد وتخرج فى نفس الكلية ، وقد عمل بجريدة الأهرام وكتب فى مجلتى الرسالة والثقافة وعيِّن مدرسًا للغة العربية وموظفًا فى وزارة المعارف ثم مراقبًا فنيًّا للوزارة ثم أوفد إلى أمريكا وهناك سمع بموت حسن البنا وفرح الصليبيون بذلك فلما عاد تحولت فكرته إلى فكرة إسلامية وانضم إلى الإخوان المسلمين وسجن وعذب وأعدم عام ١٣٨٧ هـ (١٩٦٦) وأهم كتبه على الإطلاق كتاب « فى ظلال القرآن » ستة مجلدات ، ومنها « معالم فى الطريق » ، و « التصوير الفنى فى القرآن » وغيرها .

(١) فى ظلال القرآن – لسيد قطب ج ٤ ص ٢٠٤٠ ، ٢٠٤١ ط دار العلم للطباعة والنشر – بجدة .

ويمضي هذا التقابل فى السورة فتتحدث عن السموات والأرض ، الذى رفع السموات بغير عمد ، ومد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهارا ، وتتحدث عن مغفرة الله وشدة عقابه ، وعن الغيب والشهادة ، وعن رب السماوات ورب الأرض ، وعن الأعمى والبصير ، وعن الظلمات والنور ، وعن الذين استجابوا لربهم وعن الذين لم يستجيبوا له ، وعن الحسنى وعن سوء الحساب ٠٠ ونعلم أن الأشياء تتميز بضدها ، وهذا التقابل أسلوب سارٍ في السورة كلها يرينا إلى أى مدى جاء القرآن الكريم ليأخذ بمجامع القلوب ،ويضيء العقول ، بالمعانى من ناحية وبهذا الأسلوب الذى أعجز العرب أن يأتوا بمثله منذ نزل القرآن وقبل أن يكون هناك تشريع ، فهو البيان القرآنى العظيم ٠

* * *

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ، أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِم وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [الرعد : ١٩ - ٢٤] .

إنكار يتكرر فى القرآن :

ذكرت السورة الكريمة هنا هذا التعجيب أو الإنكار ، ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ . أيستوى من عرف الحق واستنارت بصيرته بمعرفته وإدراكه واتباعه ومن ضل عن هذا الحق وجهله ؟ وهذا الإنكار يتكرر فى القرآن الكريم فلا يستوى أهل الحق وأهل الباطل : ﴿ أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الانعام : ١٢٢] ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [محمد : ١٤] ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك : ٢٢] ، أو كما جاء فى هذه السورة : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ، أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ [الرعد :١٦] لا يستويان ﴿ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ، هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴾ [هود : ٢٤] لا يستوى من عرف الحق بما نصب الله له من الشواهد ، وما أقام عليه من البراهين فى الفطرة وفى الكون ، بالإضافة إلى ما أنزل من الوحى المبين ، ومن عمى عنه ، والمراد هنا : عمى البصيرة ، الذى لا يدرك الشىء رغم وضوحه ونصوعه ، ولكن العيب لا يكمن بالحق الواضح إنما يكمن بداخله هو ، فلم يحاول أن يتعرف على هذا الحق فعمى عنه ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ وهذا إشارة أيضاً إلى ما بدأت به السورة ، فالسورة بدأت بقول الله تعالى : ﴿ المر ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ، وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، ثم أقام الله تعالى الأدلة من الكون على صدق ذلك .

أولو الألباب :

﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ أولو الألباب : هم أصحاب العقول ، ومن الناس من يقول : إن القرآن لم يذكر العقل باعتباره شيئًا أو ملكة أو قدرة ،ولكنه ذكر مادة عقل يعقل ، وصحيح أن القرآن لم يذكر العقل بلفظه هذا ، ولكنه ذكره بلفظ الألباب والنهى ، وقد تكررت لفظة الألباب فى القرآن ست عشرة مرة [١] ، وقد عبر القرآن عن العقل باللبّ ، الألباب جمع لبّ ؛ لحكمة ولإيحاء هذا التعبير ودلالته ، فلبّ الشيء هو حقيقته وجوهره ، والأصل فيه أن بعض الثمار كالجوز واللوز لها لبّ وقشر ، فاللُّب : هو الخلاصة التى ينتفع بها من هذه الثمار ، والقشر : هو الغلاف والحماية ، وكأن القرآن يشير بهذا إلي أن جوهر الإنسان هو عقله ، هو هذا الكائن الداخلىّ الذى ميز به الإنسان وكُرّم ، ولذلك كان مناط التكليف وأساس الثواب والعقاب ، فهو لبّ الإنسان ، وجسمه ، هو القشر ، وفى ذلك يقول الإمام الراغب الأصفهانى : « إن اللب هو العقل الخالص الذى لا تشوبه الشوائب فهو أخصّ من العقل ؛ إذ أنه خالص من كل شائبة ، من مداخلة الإنف أو معارضة الوهم ، أو نحو ذلك » ، ويقول أيضًا : « كل لب عقل وليس كل عقل لبًّا » .

تنويه الإسلام بالعقل :

على ذلك فالذى يتذكر ويتنبه هم أولو الألباب ، أصحاب العقول الخالصة المصفاة ، ولا يوجد دين نوّه بالعقل وأصحابه مثل : دين الإسلام [٢] ، وبعض الأديان تخاف من العقل أو ما يتعلق به ، وفى الإسلام والقرآن اعتبر أن أولى الألباب هم الجديرون بمعرفة أسرار الله تعالى فى حكمه وشرائعه ، فهم الذين يدركون حكمة شرعية القصاص كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة : ١٧٩] وهم الذين يدركون أيضاً حكمة الله وأسراره فى خلقه وكونه : ﴿ إنَّ فى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِى الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا

---

(١) وتكررت لفظة النهى مرتين فى القرآن كله فى سورة طه .

(٢) انظر كتاب « العقل والعلم فى القرآن » للشيخ القرضاوى ، نشر مكتبة وهبة .

وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١] فهم يؤمنون أن الله لا يشرع شيئًا عبثًا ولا يخلق شيئًا باطلاً .

وأولو الألباب : هم الذين يعتبرون بالتاريخ وقصص القرآن فلا تمر على أسماعهم وحسب ، ولكنها تمر على قلوبهم ولذلك نجد فى القرآن : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ [يوسف : ١١١] ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُوْلِي الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : ٢١] .

وهم الذين ينتفعون بآيات الله الكونية والتنزيلية يقول الله تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [سورة ص : ٢٩] ﴿ هَذَا بَلاَغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [إبراهيم : ٥٢] .

وهم الذين يعرفون قيمة العلم ويتميزون عن الجهلاء : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : ٩] .

وهم الذين يستمعون المواعظ والأقوال فيتبعون أحسنها ، ويميزون بين الحسن والأحسن ، ولأنهم أصحاب عقول ، فهم يرنون دائمًا إلى ما هو أحسن : ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ ، وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الزمر : ١٨] .

وهم الذين يؤمنون بالمحكمات ويصدقون بالمتشابهات ، ولا يهلكون عندها ، بل لرسوخهم يقولون عند المتشابه : ﴿ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران : ٧] فهؤلاء هم أولو الألباب أصحاب العقول الذين وصفهم القرآن بأنهم يتذكّرون ولذلك يتكرر ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [الرعد:١٩، الزمر : ٩]﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾[البقرة : ٢٦٩، آل عمران : ٧] وفى سورة البقرة : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيراً ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [البقرة:٢٦٩] .

و هكذا تأتى بصيغة الحصر ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ بما وإلا

(إنما) فهى تفـيد الحصـر أيضًا ﴿ إِنَّمَا يَتذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ أى لا يتذكر إلا هم ٠

لماذا وصف أولو الألباب بالتذكر ؟ :

وهذا يدلنا على أن الأصل فى الحقـائق أنها معروفة ؛ ولكنها تنسى ، مع أن المذكرات بها كثيرة ، مذكرات من داخل الفطرة الإنسانية ، ومذكرات من خارج الفطرة مما بث الله فى الكون من آيات ، ومذكرات مما أنزل الله تعالى من وحى كما قال تعالى فى القرآن الكريم : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ ، فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ١٧ ، ٢٢ ، ٣٢ ، ٤٠] فالمذكرات كثيرة وما على الإنسان إلا أن يزيح غبار الغفلة والنسـيان عن فطـرته فيتذكر إذا كان من أهل العقل ﴿ إِنَّمَا يَتذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾، أما غير هـؤلاء فيدعون الغفـلة ويدعون النسيان يغطيان على عقولهم ، فلا يذكّرون شيئًا ويعيشون فى غفلتهم ونسيانهم ﴿ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة : ٦٧] و ﴿ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر:١٩] ٠

لوحة قرآنية لأولى الألباب :

وأولو الألباب أصحاب العقول وصفهم الله بأوصاف عدّة ، إيمانية وأخلاقية وإنسانية ، والقرآن يعرض لوحات لبعض النماذج البشرية ، ليتأسى بها الناس ومن هذه النماذج : أولو الألباب ولوحتهم ، ومنها : نموذج المتقين ولوحتهم فى أول سورة البقرة ، ومنها نموذج المؤمنين فى أوائل سورة الأنفال وأوائل سورة المؤمنون ، ومنها نموذج عباد الرحمن فى أواخر سورة الفرقان وغيرها ٠

الوفاء بالعهود والمواثيق :

هذه النماذج لوحات فيها باقة من السّمات والصفات الربانية والأخلاقية المتنوعة ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ فأول ما وصفهم الله تعالى به ، أنهم يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق ، وعهد الله : هو ما عهد به إليهم من الإيمان به وتوحيده عزّ وجل وطاعة رسله ، وهو عهد الله الذى غرسه فى فطر البشر حين أخـذ عليهم العهد قال : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ، قَالُوا بَلَى ﴾ [الأعراف : ١٧٢] وسواء كان هذا من باب

الحقيقة أنه أخذ فعلا من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ، وهو ظاهر النص ، أو كان هذا من باب التصوير كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] ، فهو عهد غرسه الله فى الفطرة ، ثم جاء الوحى مؤكداً له ، ولذلك يقول الله تبارك وتعالى فى سورة يس: ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِى ، هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ [يس : ٦٠ ، ٦١] فهو عهد للناس كافة ، ثم جاءت عهود الله المنزلة من النبيين ، والمفصلة بالأوامر والنواهى والأحكام والشرائع .

ويمكن أن يكون عهد الله هو ما عاهد الإنسان عليه ربه مثل أن ينذر نذراً لله سبحانه وتعالى ، ومثل : أن يعاهد الله على شيء بينه وبين نفسه وينفذ هذا العهد ولا يفعل ما فعله بعض المنافقين الذين حكى الله عنهم فى سورة التوبة : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا من فَضْله لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ منَ الصَّالحينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْله بَخلُوا به وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [التوبة : ٧٥ ، ٧٦] ، كما يمكن أن يكون عهد الله عز وجل هو كلّ ما يتعلق بالإنسان مع ربه ، وكلّ ما يتعلق بالإنسان مع الناس ، فكلّها عهود أمر الله أن توفىّ : ﴿ وَأَوْفُوا بعَهْد الله إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكيدهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفيلاً ، إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النحل : ٩١] .

فمن صفات أولى الألباب : الوفاء بعهد الله ، وهى من صفات أهل البر كما فى الآية الجامعة : ﴿ وَالْمُوفُونَ بعَهْدهمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ [البقرة : ١٧٧] على عكس صفات المنافقين الذين إذا عاهدوا غدروا ، وإذا خاصموا فجروا ، وإذا ائتمنوا خانوا ، وإذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا [١] فشتان بين الفريقين .

---

(١) إشارة إلى الأحاديث الكثيرة التى رواها البخارى في صحيحه فى كتب متفرقة فى الإيمان والشهادات والمظالم والوصايا والجزية والأدب ، ومن لفظ له فى كتاب المظالم عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « أربع من كن فيه كان منافقًا أو كانت فيه خصلة =

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ ولا ينقضون الميثاق تأكيد للوفاء بالعهد ، فلا يتركون الوفاء بالعهد لمصلحة تبدو عاجلة ، وإن كان بعض الناس لا يبالى بما عاهد عليه الله وما عاهد عليه الناس ، فالمسلم لا ينقض الميثاق وإن تبـــدت له مصلحة ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ، إِنَّ الْعَهْـــدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ [الإسراء : ٣٤] حتى ولو كان هذا العهد مع كافر ، فالقرآن قدّم رعاية المواثيق مع الذين بينهم وبين المسلمين مواثيق على نصرة الذين لا يعيشون فى دار الإسلام من المسلمين ، فقال : ﴿ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِى الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِيثَاقٌ ﴾ [الأنفال : ٧٢] .

فأولو الألباب إذن يحترمون المواثيق أيًّا كان نوع هذا الميثاق ، والمواثيق كثيرة مثل : ميثاق الزوجية فعلى الإنسان أن يحترم هذا الميثاق كما قال الله تعالى للأزواج إذا أراد الرجل أن يتزوج بامرأة أخرى أو يستبدل زوجة بزوجة : ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَاراً فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ، أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ [النساء : ٢٠ ، ٢١] فهذا هو ميثاق الزواج الذى يسمونه الرباط المقدّس ، والله سبحانه وتعالى سمّاه (ميثاقًا غليظًا) مثل الميثاق الذى أخذه الله على الأنبياء فقد سمّاه ميثاقا غليظًا ، دلالة على قوة هذا العقد .

والعقود التى بين الناس بعضهم وبعض ينبغى أن تحترم ولا تنقض ﴿ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ والألف واللام فى قوله الميثاق : إما أن تكون للاستغراق وإما أن تكون للجنس ، والمعنى لأى ميثاق ، وإما أن تكون للعهد . الميثاق القديم ميثاق ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ، وإما أن تكـــون خاصا بعد عامَ أو عامًا بعد خاص ، أو أن تكون تأكيداً وهذا كله محتمل .

والخلاصة أن القرآن يركز كل التركيز على الوفاء بالعهود والمواثيق فبهذا

= من أربع كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر » ، ورواه أيضا عن أبى هريرة ، كما رواه مسلم فى صحيحه فى كتاب الإيمان ، والترمذى فى الإيمان ، والإمام أحمد فى المسند .

الوفاء تسير الحياة سيرًا حسنًا ويتبادل النّاس الثقة فيما بينهم ما دامت العقود محترمة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [المائدة : ١] وما دامت العهود مرعية غير منقوضة ولا منكوثة ، وهذا ما يريده الإسلام ، كما فعل النبى ﷺ حينما عاهد المشركين فوفّى لهم ، وحينما جاءه بعض الناس يريد أن يساعده عليهم بعد أن عقد بينه وبينهم عقد الصلح قال : لا ، نفى لهم ونستعين الله عليهم (١) .

وصل ما أمر الله بوصله :

﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ ومن أوصاف أولى الألباب هؤلاء الذين عرفوا الحق وأدركوه وآمنوا به واتبعوه أنهم يصلون ما أمر الله به أن يوصل ، بهذا التعميم والإجمال الذى يَعنى كل العلائق والصلات المتنوعة والمختلفة فى الحياة ، من رَحِم وزوجية وجوار وصحبة وزمالة ، فهى مما أمر الله به أن يوصل ، أى أن تتصل وتلتئم وتتلاحم ولا يحصل بينهما جفوة أو قطيعة ، فالإسلام جاء ؛ ليوثق الصلة بين الله وعباده ، ويوثق الصلة بين الناس بعضهم وبعض ، بالأخوة الواشجة ، ففضلاً عن الصِّلات الخاصة كالرحم والزوجية والمصاهرة والجوار، هناك الصِّلات العامة: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] . فكل المؤمنين ينبغى أن يوصل ، أى ينبغى أن ينصر على من يظلمه كما فى الحديث« المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه » (٢) ، ويكون فى حاجته فيسلم عليه إذا لقيه،ويشمته إذا

---

(١) الحديث رواه مسلم فى صحيحه فى كتاب الجهاد باب الوفاء بالعهد عن حذيفة بن اليمان قال : « ما منعنى أن أشهد بدرًا إلا أنى خرجت أنا وأبى حُسيل ، قال : فأخذنا كفار قريش قالوا : إنكم تريدون محمدا فقلنا : ما نريده ، ما نريد إلا المدينة فأخذوا منا عهد الله وميثاقه لتنصرفن إلى المدينة ولا نقاتل معه فأتينا رسول الله ﷺ فأخبرناه الخبر فقال : انصرفا نَفِى لهم بعهدهم ونستعين الله عليهم » ، كما رواه الإمام أحمد فى مسنده .

(٢) رواه البخارى فى مواضع متفرقة من صحيحه عن ابن عمر رضى الله عنهما وفى لفظه :« المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه،ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته . . »

عطس ، ويعوده إذا مرض ، ويتبع جنازته إذا مات [١] ويحفظه ، إذا غاب ، وينصح له ، ويذّب عنه ، ويساعده عند الشدة ، بمقتضى الأخوة التى جاء بها الإســلام ، وهذا كــله داخل تحت قوله تعالى : ﴿ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ ، وقد ذكر المفسرون هنا الأرحام والجيران والأصحاب والخدم وكل من له تعلق بسبب حتى الهرة والدّجاجة كما ذكر العلامة الزمخشرى فى الكشاف عن الإمام الزاهد العابد الفقيه ، الفضيل بن عياض : « أن جماعة دخلوا عليه بمكة ، فقال لهم : من أى البلاد أنتم ؟ قالوا : من خراسان ، فقال : اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم ، واعلموا أنكم إذا أحسنتم الإحسان كلّه ، وأسأتم إلى هرة أو دجاجة لم تكونوا من المحسنين » ! وهذا مأخوذ من الحديث : أن امرأة دخلت النار فى هرّة حبستها فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض [٢] . فالإحسان مطلوب إلى كل ذى كبد رطبة ، إلى كل كائن حىّ ، وهذا داخل أيضًا فى قوله : ﴿ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ .

أثر الوازع الإيماني :

ثم ذكر القرآن دافعهم إلى هذا ، ومفــتاح هذا الوصل ؛ ﴿ وَيَخْشَوْنَ

= من كتاب الإكراه ، كما رواه مسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه باختلاف عن لفظ البخارى ، ورواه أبو داود والترمذى وابن ماجه والإمام أحمد بن حنبل .

(١) إشارة إلى الأحاديث الكثيرة التى رواها البخارى فى صحيحه من حديث البراء بن عازب ومن حديث أبى هريرة ، ومسلم فى صحيحه من حديث أبى هريرة ، وفى لفظه – فى كتاب السلام باب من حق المسلم للمسلم ردّ السلام – قال : قال رسول الله ﷺ : « حق المسلم على المسلم ست قيل : ما هن يا رسول الله ؟ قال : إذا لقيته فسلّم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمته ، وإذا مرض فعده ، وإذا مات فاتبعه » كما رواه الترمذى وابن ماجه والإمام أحمد .

(٢) حديث صاحبة الهرّة التى ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت جوعًا رواه البخارى فى صحيحه عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما فى مواضع متفرقة (بدء الخلق والأنبياء والمساقاة) ورواه مســلم فى صحيحه فى مواطن شتى (الكسوف البر ، التوبة) عن جابر بن عبد الله ، كما رواه النسائى وابن ماجه والدارمي والإمام أحمد .

رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ فخشية الله عزّ وجلّ هى هذا المفتاح ، وقد ذكر الخشية مع الله ، وذكر الخوف مع سوء الحساب ؛ لأن الخشية خوف مع نوع من التعظيم للمخوف ومع شيء من العلم بقدره ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] فهم لكونهم علماء يعرفون مقام الله عزّ وجلّ وبالتالى يخشونه .

وبعضهم يقول إن الخشية تكون إذا كان المخشيّ عظيما ، وإن كان الخاشى قويًّا بخلاف الخوف ، وللعلامة الألوسي هنا كلام طيب قال : « معظم الفروق اللغوية بين الألفاظ بعضها وبعض هى أغلبية لا كلّية .. فما من فرق لغوى إلا وقد يعكّر عليه بمثال معين » ..

والتعبيـر ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ يعطى الخشية نسجًا من الرجاء ، فإنه لم يقل : يخشون الجبّار القهّار ، ولكنه قال : يخشون ربهم كما فى بعض الآيات ﴿ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ ﴾ [سورة ق : ٣٣] فذكر الرحمن يشعر أنها خشية ممزوجة بنوع من الرجاء ، فهم يخشون الله الذى ربّاهم بنعمه ورعاهم بفضله ، وغمرهم بإحسانه من قرونهم إلى أقدامهم ، فهو ربّهم : ﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَـدَى ﴾ [الأعلى : ٢ ، ٣] ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان : ٢٠] .

﴿ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ وتتمة خشيتهم من الله عزّ وجلّ ، أنّهم يخافون سوء الحساب ، أى إنهم يستحضرون الآخرة ، وليست الآخرة غائبة عنهم ، فهى نصب أعينهم ، وهذا شأنهم ، فإنهم لا يعيشون بمعزل عن يوم القيامة ، كما هو شأن كثير من الناس الذين لا يرجون لقاء الله عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴾ [يونس : ٧] فهذا صنف من الناس ، أما هؤلاء الذين يخشون ربهم ، فإنهم يستذكرون الآخرة ويستحضرونها ، وهذا من المعانى الربانية التى جاء بها الإسلام .

وسوء الحساب : هو المناقشة فيه والاستقصاء فيه ، فهناك الحساب اليسير الذى لا مناقشة فيه والذي يمر سريعًا ، ولكن إذا أوقف الإنـسان للمساءلة

ونوقش : ماذا فعلت بكذا ؟ وكيف فعلت كذا ؟ ولم فعلته ؟ فهذا هو الحساب العسير الذى يخافه من يخشى الله عزّ وجلّ ، والذى يعنى أن يُساءلوا ويناقشوا فى كل شىء ، وهؤلاء لا يزعمـــون أن صفحتهم بيضاء ، وأنهم ليس عليهم غبار ، فإنهم ليسوا من الملائكة المطهرين ، وليسوا أنبياء معصومين ، إنهم يخافون الله دائمًا كما ذكر الله تعالى أيضًا فى وصف المتقين : ﴿ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٧] قال : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٦٠] ٠

الصبر ابتغاء وجه الله :

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ، أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ وهذه مجموعة جديدة من الصفات بدأها القرآن الكريم بالصبر ، والصبر : هو حبس النفس على ما تكره مما يقتضيه الشرع أو العقل ، والصبر ضرورة دينية ودنيوية ، فلا يستطيع الإنسان أن يفلح ولا أن يفوز بما يحب ولا أن يسلم مما يكره إلا بالصبر ٠

وأولو الألباب هؤلاء من أوصافهم الصبر بأنواعه المختلفة ، فهم يصبرون على بلاء الله عزّ وجلّ كما صبر أيوب عليه السلام ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا ، نِّعْمَ الْعَبْدُ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [سورة ص : ٤٤] ٠

ويصبرون عما نهى الله عزّ وجلّ من المعاصى مثل صبر يوسف عليه السلام إذ ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ [يوسف : ٢٣] وتهيأت له أسباب المعصية فأبى واستعصم ، وقال : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِلَيْهِ ﴾ [يوسف : ٣٣] ٠

ويصبرون على طاعة الله عزّ وجلّ مهما كان فيها ، ولو كان قطع الرقبة ، كما كان فى صبر إسماعيل الذبيح عليه السلام الذى قال له أبوه الخليل عليه السلام : ﴿ يَا بُنَيَّ إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ ، فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ، قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِى إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] ٠

ويصبرون على مشاق الدعوة إلى الله ومتاعب الطريق إلى الله مهما طال الطريق مثل صبر نوح عليه السلام الذى ظل ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت : ١٤] يدعو إلى الله ، يدعو قومه ليلاً ونهاراً ، سرًّا وجهاراً ، وهو صبر أولى العزم من الرسل الذى أمر الله سبحانه وتعالى به رسوله : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ﴾ [الأحقاف : ٣٥] ، وقد فصلت هذه الأنواع والمراتب للصبر فى كتابى « الصبر فى القرآن الكريم » (١) .

فأولو الألباب هؤلاء وصفهم الله تعالى بالصبر ، ولم يذكر القرآن هنا على أى شيء صبروا ، ولا عن أى شيء صبروا ، وإنما أطلق وصفهم بالصبر ، وغيّر صيغة الوصف من المضارع « الذين يوفون .. ، ولا ينقضون .. ، ويصلون .. ، ويخشون .. ، ويخافون .. » إلى الماضى :﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ مما يدل على تحقق الصبر ، ويدل على أهمية الصبر فى الدين ، ولذلك نجد القرآن فى آية البرّ قد ذكر الصابرين بصيغة متميزة فقال : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ﴾ [البقرة : ١٧٧] مع أن العطف على ما قبلها كان يقتضى الرفع إذ السياق فى الآية ﴿ ... وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ .. ﴾ [البقرة : ١٧٧] ولكنها نُصبت على الاختصاص أو المدح أى وأخص الصابرين وأمدحهم ، وما ذلك إلا لأهمية الصبر فى دين الله ، ولذلك قال الله عز وجل هنا : ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ ولم يقل « والذين يصبرون » وهذا يدل كما تقدم على أن الصبر لابد أن يكون متحققاً واقعاً .

وميزة هؤلاء أنهم صبروا ابتغاء وجه ربّهم ، فقد يوجد من يصبر ، مراءاة للنّاس ومراعاة للخلق ليقول الناس : ما أصبره عند النوازل ، وما أثبته عند

---

(١) انظر كتاب فضيلة الشيخ القرضاوى « الصبر فى القرآن الكريم » من ص ٤١ إلى ص ٥٨ ، حيث تحدث بالتفصيل عن ستة مجالات للصبر فى القرآن الكريم ، وتحدث فى مواضع أخرى من الكتاب عن حقيقة الصبر فى القرآن الكريم وكم ذكر الصبر فى القرآن والباعث على الصبر ، ومنزلة الصبر والصابرين وشخصيات صابرة ، وتحدث أيضًا عما يعين على الصبر فليرجع إليه .

الزلازل ، وما أحمله للمصائب ! إنه ثابت ثبات الجبال ٠٠٠ إلخ ،وقد يوجد من يصبر ، حتى لا يعاب بأنّه جزوع هلوع ، وحتى لا يشمت به الأعداء كما قال الشاعر :

وتجلدى للشـــامتين أريهم   أنى لريب الدهر لا أتضعضع

وقد يوجد من يصبر ، لأنه لا يجد غير أن يصبر ، فلا فائدة فى الجزع ، وإذا جزعت الآن فسوف أنتهى إلى الصبر ، وإذن أصبر الآن ، ثم يصبر وهو لا يخطر بباله أن يرضى الله عزّ وجلّ ٠

فمزية هؤلاء العقلاء أولى الألباب أنهم إذا صبروا فعلوا ذلك ابتغاء وجه ربهم ، وهذا تعبير قرآنى : أنهم يحتسبون هذا الأمر عند الله ابتغاء مثوبته لا يريدون شيئًا للنفس ولا للغير ، إنما يريدون وجه الله عزّ وجلّ ٠

هناك بعض دعاة الأخلاق يتحدثون عن شيء اسمه الواجب « دعاة الواجب » ومنهم (كانت) الفيلسوف الألمانى الشهير ، هؤلاء يقولون : إن الدّين لا يعرف الأخلاق القائمة على أمر الواجب ، إنما يقوم فقط على العمل من أجل الجنة والنار ، والوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، ونسوا أن القرآن يحث ويربط الإنسان أن يفعل ما يفعل لوجه الله عزّ وجلّ وإرضاء له ، ولاينافى ذلك أن يطلب مثوبته ويهرب من عقوبته ؛ لأن المعيب هو أن يطلب المصلحة المادية الآنية الشخصية العاجلة ، أما أن يرنو إلى ما هو أعلى من ذلك ، وما هو أبعد من الدنيا ، وما هو أوسع من المصلحة الشخصية ، وما هو أعمق من الناحية المادية فهذا لا يعاب ٠

فهؤلاء أولو الألباب وصفهم القرآن بأنهم : صبروا ابتغاء وجه ربهم ، كما جاء فى القرآن ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ [المدثر : ٧] ٠

الصبر لله عبادة :

ولهذا كان صبرهم عبادة لله سبحانه وتعالى ،والعبادات ليست هى الظاهرة فقط من الصلاة والزكاة والصيام والحج والتلاوة والذكر والتسبيح ، ولكن هناك عبادات باطنـــة منها الصـــبر لله ســبحانه وتعالى ، وأنا أسميها (الأخلاق

الرّبانية) ، كما أن هناك أخلاقًا إنسانية ، الصدق والأمانة والتعاون والنظام والعدل والإحسان والوفاء ، وهذه تشترك فيها الأمم دينية كانت أم غير دينية ، وثنية أم غير وثنية ، ولكن ما يميز المؤمنين عن غيرهم : أن أخلاقهم فيها هذا العنصر الربّاني ، فهم حينما يوفون بالعهد : ﴿ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ ﴾ ، وحينما يصلون الأرحام أو يحسنون إلى الناس يتذكرون أنهم ﴿ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ ، وحينما يصبرون ، يصبرون ﴿ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ﴾ .

المزج فى القرآن بين العبادة والأخلاق :

ولذلك أنا أقول دائمًا : إن هناك مزجًا فى القرآن وفى الإسلام بين العبادة والأخلاق فليس هناك انفصال ، فالعبادة ضرب من الأخلاق ، والأخلاق ضرب من العبادة ، والإنسان يتعبد لله تعالى بالأخلاق ، فالأخلاق أوامر ونواه ، والدين نفسه أخلاق ، فالله سبحانه وتعالى حين وصف المتقين قال : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ﴾ [البقرة : ١٧٧] فوصفهم بوصف أخلاقى ، وكما فى سورة الحجرات أيضًا ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ، أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات : ١٥] فهذه أيضًا أوصاف أخلاقية وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّى ﴾ [النجم : ٣٧] وقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] فهناك ارتباط وتمازج وتلازم بين العبادة والأخلاق .

الصبر لله والصبر بالله :

وهذا الصبر ابتغاء وجه الله هو الصبر لله ، وقد ذهب بعض المتصوفة إلى أنه أضعف من الصبر بالله ، هكذا ذكر الشيخ الهروى فى المنازل وردّ عليه المحقق ابن القيم فى « المدارج » قال الهروى فى « منازل السائرين » ص ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ : « وأضعف الصبر : الصبر لله ، وهو صبر العامة وفوقه : الصبر بالله ، وهو صبر المريدين وفوقه : الصبر على الله ، وهو صبر السالكين » .

تحقيق ابن القيم فى الفرق بين الصبرين :

قال ابن القيم شارحا ومعلقا :

معنى كلامه : أن صبر العامة لله ، أى رجاء ثوابه ، وخوف عقابه . وصبر

المريدين : بالله ، أى بقوة الله ومعونته . فهم لا يرون لأنفسهم صبراً ، ولا قوة لهم عليه . بل حالهم التحقق بـ « لا حول ولا قوة إلاّ بالله » علما ومعرفة وحالا .

وفوقهما : الصبر على الله ، أى على أحكامه ، إذ صاحبه يشهد المتصرف فيه . فهو يصبر على أحكامه الجارية عليه ، جالبة عليه ما جلبت من محبوب ومكروه . فهذه درجة صبر السالكين .

وهؤلاء الثلاثة عنده من العوام ؛ إذ هو فى مقام الصبر ، وقد ذكر : أنه للعامة وأنه من أضعف منازلهم ! .

هذا تقرير كلامه .

والصواب : أن الصبر لله فوق الصبر بالله ، وأعلى درجة منه وأجل ؛ فإن الصبر لله متعلق بإلٰهيته ، والصبر بالله : متعلق بربوبيته . وما تعلق بإلٰهيته أكمل وأعلى مما تعلق بربوبيته .

ولأن الصبر له : عبادة . والصبر به استعانة ، والعبادة غاية ، والاستعانة وسيلة ، والغاية مرادة لنفسها ، والوسيلة مرادة لغيرها .

ولأن الصبر به مشترك بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر . فكل من شهد الحقيقة الكونية صبر به .

وأما الصبر له : فمنزلة الرسل والأنبياء والصديقين ، وأصحاب مشهد ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

ولأن الصبر له : صبر فيما هو حق له ، محبوب له مرضى له . والصبر به : قد يكون فى ذلك وقد يكون فيما هو مسخوط له . وقد يكون فى مكروه أو مباح ، فأين هذا من هذا ؟ .

وأما تسمية « الصبر على أحكامه » صبراً عليه . فلا مشاحة فى العبارة بعد معرفة المعنى . فهذا هو الصبر على أقداره . وقد جعله الشيخ فى الدرجة الثالثة ، وقد عرفت بما تقدم : أن الصبر على طاعته ، والصبر عن معصيته :

أكمل من الصبر على أقداره – كما ذكرنا فى صبر يوسف عليه السلام – فإن الصبر فيها صبر اختيار وإيثار ومحبة ، والصبر على أحكامه الكونية : صبر ضرورة . وبينهما من البون ما قد عرفت .

وكذلك كان صبر نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، على ما نالهم فى الله باختيارهم وفعلهم ، ومقاومتهم قومهم : أكمل من صبر أيوب على ما ناله فى الله من ابتلائه وامتحانه بما ليس مسببًا عن فعله .

وكذلك كان صبر إسماعيل الذبيح ، وصبر أبيه إبراهيم عليهما السلام على تنفيذ أمر الله أكمل من صبر يعقوب على فقد يوسف .

فعلمت بهذا أن الصبر لله أكمل من الصبر بالله . والصبر على طاعته والصبر عن معصيته أكمل من الصبر على قضائه وقدره . والله المستعان . وعليه التكلان . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فإن قلت : الصبر بالله أقوى من الصبر لله . فإن ما كان بالله كان بحوله وقوته . وما كان به لم يقاومه شىء . ولم يقم له شىء . وهو صبر أرباب الأحوال والتأثير . والصبر لله : صبر أهل العبادة والزهد . ولهذا هم – مع إخلاصهم وزهدهم وصبرهم لله – أضعف من الصابرين به ، فلهذا قال : « وأضعف الصبر : الصبر لله » .

قيل : المراتب أربعة :

إحداها : مرتبة الكمال ، وهى مرتبة أولى العزائم ، وهى الصبر لله وبالله . فيكون فى صبره مبتغيًا وجه الله ، صابراً به ، متبرئًا من حوله وقوته . فهذا أقوى المراتب وأرفعها وأفضلها .

الثانية : أن لا يكون فيه لا هذا ولا هذا . فهو أخس المراتب ، وأردأ الخلق . وهو جدير بكل خذلان ، وبكل حرمان .

الثالثة : مرتبة من فيه صبر بالله . وهو مستعين متوكل على حوله وقوته . متبرىء من حوله هو وقوته . ولكن صبره ليس لله ؛ إذ ليس صبره فيما هو مراد

الله الدينى منه فهذا ينال مطلوبه ، ويظفر به . ولكن لا عاقبة له ، وربما كانت عاقبته شر العواقب .

وفى هذا المقام خفراء الكفار وأرباب الأحوال الشيطانية . فإن صبرهم بالله لا لله ولا فى الله . ولهم من الكشف والتأثير بحسب قوة أحوالهم . وهم من جنس الملـــوك الظلمـــة ، فإن الحال كالملك يُعطاه البر والفاجر ، والمؤمن ، والكافر .

الرابع : من فيه صبر لله ، لكنه ضعيف النصيب من الصبر به ، والتوكل عليه والثقة به ، والاعتماد عليه . فهذا له عاقبة حميدة ، ولكنه ضعيف عاجز ، مخذول فى كثير من مطالبه ؛ لضعف نصيبه من ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فنصيبه من الله : أقوى من نصيبه بالله . فهذا حال المؤمن الضعيف .

وصابر بالله ، لا لله : حال الفاجر القوى . وصابر لله وبالله : حال المؤمن القوى والمؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف .

فصابر لله وبالله عزيز حميد . ومن ليس لله ولا بالله مذموم مخذول . ومن هو بالله لا لله قادر مذموم ومن هو لله لا بالله عاجز محمود .

فبهذا التفصيل يزول الاشتباه فى هذا الباب . ويتبين فيه الخطأ من الصواب والله سبحانه وتعالى أعلم [1] .

﴿ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ ﴾ وهذه عبادة خالصة مع الجانب الأخلاقى وهو الصبر ، وأقاموا الصلاة أى أدّها قائمة مستوية مستوفية للأركان والشروط والآداب ، والله سبحانه وتعالى لم يقل صلّوا ، وإنما قال : ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ ﴾ وهو تعبير يفيد أنهم يؤدونها مستكملة لحقائقها .

﴿ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً ﴾ وشأن القرآن دائمًا أن يقرن بين الصلاة والإنفاق ، حق الله تعالى وحق الناس ، وخصوصًا الضعفاء من عباده ،

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ج ٢ / ١٦٨ – ١٧٠ .

الفقراء والمساكين فهؤلاء لهم حق ، وقد قرن القرآن بين الصلاة وبين الزكاة فى ثمانية وعشرين موضعا [1] ، وأحيانا يقرن بينهما بلون آخر كأن لا يذكر لفظ الزكاة مثل ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ [فاطر : ٢٩] . ومثل وصف المتقين فى أوائل سورة البقرة : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة :٣] وفى أوائل سورة الأنفال : ﴿ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الأنفال : ٣] وهنا فى سورة الرعد نجد هذا المعنى الربانى فيقول الله عزّ وجلّ : ﴿ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ فهم يلحظون أنهم حينما يخرجون من أموالهم ما ينبغى أن يخرج فإنما يُخرجون مما رزقهم الله ، فالمال ليس مالهم فى الحقيقة ، وإنما هو مال الله عندهم ، وهم لا يخرجون هذا المال كله ، ولكنهم يخرجون بعضه ، فالله يطلب البعض لا الكلّ ﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ [محمد : ٣٧] وهو لا يسألكم أموالكم كلّها ، بل يسألكم بعضها : ﴿ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴾ فلو سألكموها كلها وأحفاكم أى لم يبق لكم شيئًا ، هنالك تبخلوا ، ولكنه يريد البعض .

﴿ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً ﴾ بحسب الأحوال فأحيانًا ينفقون سرًّا إذا كان السرّ أولى ، كأن يكون أبعد عن الرياء ، وخصوصًا فى صدقة النَّفل فهم يخرجونها سرًّا بعيدًا عن التظاهر ، وأحيانًا ينفقون علانية إذا كان الإنفاق فريضة ؛ حتى لا يتهمهم الناس بالتفريط فى الواجب ، وحيث يُتوقع أن يقلدهم

---

(١) فى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (محمد فؤاد عبد الباقى) عدّها – أى الزكاة – فى اثنين وثلاثين موضعًا منها ستة وعشرون قرنت فيها الزكاة بالصلاة ، انظر ص ٣٣١ ، ٣٣٢ من المعجم كما قرنت بالمعنى – ومما رزقناهم ينفقون – فى سبعة مواضع هى ٣ بقرة ، ٣ أنفال ، ٢٢ رعد ، ٣١ إبراهيم ، ٣٥ حج ، ٢٩ فاطر ، ٣٨ شورى ، ولعل شيخنا عدّ مما عدّ المواضع التى تحدثت عن الصلاة والزكاة فى سياق واحد كما فى أوائل سورة المؤمنون : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِى صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴾ [المؤمنون : ١ – ٣] .

ويقتدى بهم غيرهم ، ويأمنون على أنفسهم الرياء ، فهنا تكون العلانية أفضل ، وهم أصحاب عقول وأولو ألباب يقدّرون أىّ المواقع تكون أولى بالسرّ وأيّها أولى بالعلانية ، وقد وصف الله المؤمنين فقال : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٤] . ووصف الإسرار والإعلان فى الصدقات فقال : ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾[البقرة:٢٧١] .

﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ يدفعون بالحسنة السيئة ، ولا يقابلون الإساءة بالإساءة ، بل يقابلون الإساءة بالإحسان ، إنهم أصحاب قلوب كبيرة ، فلا يريدون أن يقضوا حياتهم فى المخاصمة مع الناس ، والشجار مع الخلق ، فالعمر أقصر والحياة أثمن من أن يقضوها فى المشادة والملاحة مع الآخرين ، إنما تتسع صدورهم ؛ ليقابلوا المسىء بالإحسان إليه ، فهم يصلون من قطع ، ويبذلون لمن منع ، ويُعطون من حرم ، ويعفون عمن ظلم ، ويحسنون إلى من أساء إليهم ، فهذا هو شأنهم كما وصف الله تعالى عباد الرحمن بقوله : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص : ٥٥] وإنه لشأن عظيم :

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ... ومن إساءة أهل السوء إحسانًا

وكما قال تعالى : ﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٤ ، ٣٥] . لا يستطيع أن يقف هذا الموقف ويقابل السيئة بالحسنة أو يدفعها بالتى هى أحسن إلا الذين صبروا ، وهذا يدل على أهمية الصبر فى هذه الأمور كلّها .

وهناك من يقول إن : ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ تعنى أنهم يتبعون السيئة بالحسنة كما جاء فى حديث أبى ذر الشهير : « وأتبع السيئة الحسنة

تمحها »[1] ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود : ١١٤] وإن كان الذى ينقدح فى النفس أن المعنى الأول هو المراد ؛ لأنه يبين علائقهم بالخلق جميعًا ، فهم أناس كبار ليسوا صغار النفوس ، ولا يعيشون فى الأمور التّافهة التى تستهلك الحياة بالقيل والقال ، والمعاداة مع الناس .

معنى عقبى الدار :

﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ الدَّار ، هى الدنيا ، وعقبى هذه الدّار هى الجنّة ، وكما يقول العلامة الزمخشرى :كأن الجنّة هى الأصل ، وكأن العقاب جاء تبعًا والثواب هو المراد أصلاً : ﴿ مَّا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ﴾ [النساء : ١٤٧] وكما جاء فى سورة يونس : ﴿ إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : ٤] فكأن جزاء المؤمنين بالقسط وإثابتهم بالجنة هو الأصل ؛ لأن هذه هى العاقبة ، والله سبحانه وتعالى يريد للناس المثوبة ويريد لهم الحسنى : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ فعقبى الدّار ، جنّات عدن يدخلونها ، وهى جنّات وليست جنّة واحدة ، وقد جاءت أمّ صحابى استشهد فى بدر تسأل النبى ﷺ عن ابنها إن كان فى الجنّة صبرت واحتسبت ، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه فى البكاء ، فقال لها : هبلت يا أم حارثة ، إنها ليست جنة واحدة ، وإنما هى جنان ثمان ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى[2] . فهى جنّات ، وجنّات عدن معناها : جنات

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده عن أبى ذر ولفظه « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن » كما رواه عن معاذ بن جبل أيضًا ، ورواه الترمذى فى سننه فى كتاب البر والدارمى فى الرقاق .

(٢) الحديث رواه البخارى فى الرقاق والجهاد والمغازى من صحيحه وتمامه : « عن أنس ابن مالك أن أمّ الربيع بنت البراء ، وهى أمّ حارثة بن سراقة أتت النبى ﷺ فقالت : يا نبى الله ألا تحدثنى عن حارثة – وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غرب – فإن كان فى الجنة صبرت ، وإن=

للاستقرار والإقامة والخلود ، فعدن تعنى إقامة ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ والله يكرمهم بان يدخل معهم من يحبّون من الآباء وكلمة الآباء تعنى الأبوين من باب التغليب فيقال عن الأب والأم : أبوان ، وكلمة أزواج تشمل الذكور والإناث فالرجل تدخل معه زوجته الجنة كرامة له ، والمرأة الصالحة يدخل معها زوجها كرامة لها ، وأحيانًا تكون الزوجة شفيعة لزوجها ، وذرّياتهم حتى تكمل بهجتهم ويتم سرورهم حينما يلتئم الشمل بالجنّة ، فالإنسان حينما يكون فى سفر ويأتى بعد غيبة يتمنى أن يلتقى بأولاده وذريته ويعتبر ذلك يومًا من أيام السرور والسعادة ، فما باله بالجنة يلقى فيها الأحبة والذرية ؟ إنها نعمة عظيمة ، ولكن هذا لا يكون إلا بشرط أن يكونوا من الصالحين «ومن صلح » وهذا يدل على أن غير الصالحين لا يدخلون الجنة معهم ، فلو كانوا من أهل الكفر فإن الأنساب لا تنفعهم : ﴿ لَنْ تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾[الممتحنة:٣] كما خاطب الله تعالي المشركين ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِى الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ ﴾[المؤمنون: ١٠١] فالكافر لا ينفعه نسب ، ولا ينفعه أب ولا زوج ولا ابن ، ولكن الأنساب تنفع مع أهل الإيمان ، فإذا مات أحدهم على الإيمان فإن الله سبحانه وتعالى ينفعه بأهله الآخرين ، حتى لو كان أقلّ درجة فإنه يُعلى له درجته ، فيرفعه من جـيـد أو من مقبول إلى ممتاز ببركة صـاحب الامتيـاز من أهله كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِم ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ﴾ [الطور : ٢١] فيلحق بهم ذريتهم دون أن ينقص من أعمالهم ، فالأدنى يرتفع إلى الأعلى دون أن ينقص الأعلى شيئًا .

وإذن فأولو الألباب يدخلون الجنة وتدخل عليهم الملائكة من كل باب ، وهذا يدل على أن أهل الجنة ليسوا هم البُلْه كما يذكر بعض الناس وكما جاء فى

= كان غير ذلك اجتهدت عليه فى البكاء ، قال : يا أم حارثة إنها جنان فى الجنة وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى » ورواه أيضًا الإمام أحمد فى مسنده .

بعض الأحاديث التى لم تصح : أن أكثر أهل الجنة البُلْه (١) فقد رأينا أن أولى الألباب العقلاء يدخلون الجنّة ، وليس البُلهاء ولا العبطاء ولا المغفلين ولا المجاذيب ، وقد كان الصحابة من العقلاء أولى الألباب ، وكان الرسل كذلك فى قمة العقل ، حتى إن من الصفات الأساسية لهم كما يذكر العلماء : الصدق والأمانة والتبليغ والفطانة .

صلة الأخلاق بالعقل :

وأريد أن أذكر شيئًا هنا عن العقل والخُلُق ، فالقرآن قد ذكر مجموعة من الأخلاق لأولى الألباب ، وهذا يدل على أن هناك علاقة تلازم بين العقل والخلق ، فالعاقل لابد أن يكون ذا خلق حسن ، بحيث إذا رأيت إنسانًا ذا خلق ردىء فاعلم أنه ليس بعاقل ، أو أنه عطّل عقله ، فلو كان عاقلاً حقًّا لتجلى ذلك فى خلقه وسلوكه ؛ لأن الإنسان العاقل هو الذى يوازن بين المبنى والمعنى ، وبين العاجل والآجل ، وبين المصلحة الفردية والمصلحة الجماعية ، وبين الشهوة والواجب ، فيرجّح ما ينبغى ترجيحه ويستعمل عقله ، ولذلك نجد أن الله سبحانه وتعالى ردّ على المشركين حينما اتهموا رسول الله ﷺ بالجنون وسرّى عنه بقوله : ﴿ نٓ ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ * وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ١ : ٤] ويستحيل أن يكون صاحب الخلق العظيم مجنونًا ، فالمجنون تصرفاته غير متزنة ، يعلو ويهبط ، ويذهب يمنة ويذهب يسرة ، ويفعل الخير أحيانًا والشر أحيانًا أخرى ، ويقول صوابًا أحيانًا ويقول خطأ أحيانًا أخرى ، فلا قرار له ولا استقامة له على شىء ، أما صاحب الخلق العظيم فلابد أن يكون فى قمة العقل .

---

(١) حديث « أكثر أهل الجنّة البُلْه » رواه البيهقى فى الشعب والبزار والديلمى فى مسنديهما ، والخلعى فى فوائده وكلهم من حديث سلامة بن روح بن خالد عن أنس بن مالك ، وسلامة فيه لين كما قال السخاوى في المقاصد الحسنة ح رقم ١٤٤ وأنكره بعض العلماء واستغربه بعضهم وأوّله بعضهم كالأوزاعى على أن الأبله هو الأعمي عن الشر وغير ذلك ، انظر كشف الخفاء للعجلونى ح رقم ٤٩٥ .

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مَنْ كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ من كل باب دلّ على كثرة الأبواب حتى لا يتعطل داخل أو خارج ، إذ لو كان بابًا واحدًا لانتظر بعضهم إلى أن يخرج بعض من كثرة الملائكة الذين يحيُّون هؤلاء العقلاء من المؤمنين ، والله قد كثّر عليهم الأبواب ، لتتسع للداخلين ويكثر السلام والتحية لهؤلاء تحييهم ملائكة الله عزّ وجلّ : ﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ وهنا نجد أهمية الصبر مرة أخرى ، دليل على أن الصبر له مدخل فى كل ما ذكر ، فالإنسان لا يستطيع أن يؤدى الصلاة إلا بالصبر ، والعبادة تحتاج إلى صبر قال تعالى : ﴿ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ [مريم : ٦٥] ، ولا يستطيع الإنسان أن يدرأ السيئة بالحسنة إلا بالصبر ، ولا يستطيع أن ينفق مما رزقه الله إلا بالصبر ، ولا يستطيع أن يوفى بعهد الله إلا بالصبر ، وقد جاء فى سورة الإنسان ﴿ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴾ [الإنسان : ١٢] .

﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ تسليمات تأتيهم من كل ناحية : ﴿ لاَيَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلاَ تَأْثِيمًا * إِلاَّ قِيلاً سَلاَمًا سَلاَمًا ﴾ [الواقعة: ٢٥ ، ٢٦] ولذلك قيل : إن الجنة هى دار السلام ؛ لكثرة ما فيها من السلام ؛ ولأنها دار الأمان فليس فيها خوف قط ، وهى السلامة من كل شىء ، وما ذلك إلا لأنها دار الله ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ [الأنعام : ١٢٧] ومن أسمائه سبحانه وتعالى السلام،والمسلمون يسمون أبناءهم عبد السلام،وقد روى الإمام أحمد وابن جرير والحاكم وصححه وغيرهم عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا: أن أول زمرة تدخل الجنة ثلة من فقراء المهاجرين الذين تسدّ بهم الثغور ، وتتقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يجد لها قضاء [1] ، فليسوا

---

(١) الحديث طويل رواه الإمام أحمد رحمه الله فى مسنده ج ٢ ، ١٦٨ ، ١٧٧ ، كما رواه غيره وانظر ابن كثير الجزء الثانى من تفسير القرآن العظيم ص ٥١٠ ، وهو من حديث « عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرين الذين تُسدّ بهم الثغور وتتّقى بهم المكاره يموت أحدهم وحاجته فى صدره لا =

من المشاهير الذين يشار إليهم بالبنان ، وتفتح لهم الأبواب ، وتقضى لهم الحاجات ، ولكنهم أناس مغمـــورون كما فى الحديـــث « رب أشـعـث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره » (١) فهؤلاء يأمر الله تعالى ملائكته أن يذهبوا فيحيوهم فيقولون : يا ربنا نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك تأمرنا أن نذهب إلى هؤلاء فنحييهم ونسلم عليهم فيقول : هؤلاء عباد لى كانوا يعبدوننى لا يشركون بى شيئًا تتقى بهم المكاره وتسدّ بهم الثغور ويموت أحدهم وحاجته فى صدره اذهبوا إليهم ائتوهم فحيوهم ، فتذهب إليهم الملائكة فيقولون لهم (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) (٢) .

* * *

= يستطيع لها قضاء ، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته : ائتوهم فحيّوهم فتقول الملائكة : نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء ونسلم عليهم ؟ فيقول : إنهم كانوا عبادًا يعبدوننى لا يشركون بى شيئًا وتُسدّ بهم الثغور وتُتّقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء ، قال : فتأتيهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب (سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) .

(١) رواه مسلم فى صحيحه فى كتاب البر وكتاب الجنة عن أبى هريرة بلفظ : « رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقســم على الله لأبره » كما رواه الإمام أحمـد ، وزاد الحاكم وأبو نعيم : « تنبو عنه أعين الناس » ، والبزار عن ابن مسعود وفيه « رب ذى طمرين .. » ، وللشيخين روايات قريبة من هذا وكذا لابن ماجة وغيرهم ، والترمذى فى كتاب المناقب ،وانظر كشف الخفاء للعجلونى حديث رقم ١٣٦٤ .

(٢) بقية حديث الإمام أحمد الطويل الذى تقدم الكلام عنه .

﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ، أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ * اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ * وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ، قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ ، أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ * الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴾
[الرعد : ٢٥ – ٢٩] .

صورة معتمة مقابل الصورة المشرقة :

أسلوب القرآن أبداً أن يذكر الصورة المشرقة الوضيئة لمن يحبهم الله تبارك وتعالى من عباده ، ثم يذكر بعدها الصورة المعتمة المظلمة لمن يبغضهم الله تبارك وتعالى من خلقه ، وهو ما نقول عنه المقابلة ، فهذا أسلوب القرآن الكريم وخصوصاً فى هذه السورة التى يتضح فيها التقابل من أولها كما سبق الكلام عن ذلك وكما بينا من قبل ، فلا عجب ، بعد أن ذكر الله تعالي أولى الألباب وأوصاف أولى الألباب الذين يعلمون أنما أنزل إلى محمد ﷺ من ربه هو الحق ، أن يذكر عُمى البصائر فقد قال بداية : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ ولا عجب أن يحدثنا عن هؤلاء العمى الذين لا ألباب لهم ولا عقول عندهم ولا يتذكرون ولا يعون .

والآية التى معنا تتحدث عن أوصاف هؤلاء يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ، أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ فهذه ثلاثة أوصاف أساسية .

نقض العهد والميثاق :

أولها : نقض العهد من بعد توثيقه وقبوله وإظهار الرضى به ، فينقضون عهد الله الذى يشمل عهده إلى آدم وأبنائه : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ ﴾ [يس : ٦٠] وما ترتب على ذلك من عهود تتمثل فى

الأوامر والنواهى ، وتتمثل في عهود الناس بعضهم مع بعض ، فكلّها عهد الله عز وجلّ ، وقد أمر الله تعالى أن توفى وألا تنقض : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ، إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ * وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ ﴾ [النحل : ٩١ ، ٩٢] والنقض أصله حلّ الشىء المربوط ، وفك الشىء المتماسك مثل : نقض الغزل أو نقض الحبل أو نقض البناء ، أى هدمه بعد تماسكه ، فهؤلاء الذين تتحدث عنهم الآيات ينقضون العهد بعد توثيقه وتأكيده كما حكى الله تعالى عن اليهود الذين : ﴿ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنفال : ٥٦] فهؤلاء لا يبالون بعهد ولا يبالون بميثاق ، فأول أوصاف هؤلاء الذين لهم اللعنة ولهم سوء الدار : أنهم ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، وإذا كان أول أوصاف أولى الألباب أنهم ﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ فهؤلاء على العكس منهم لا عهد لهم ولا ميثاق ولا كلمة ولا يحترمون عهداً بينهم وبين الله ولا بينهم وبين أحد وهذا هو أساس كل سوء ، فالإنسان يؤخذ من ارتباطه والتزامه ، وهؤلاء لا يحترمون التزامًا ولا ارتباطًا لا بينهم وبين خالقهم ولا بينهم وبين الخلق .

قطع ما أمر الله بوصله :

وثانى الأوصاف التى تحدثت عنها الآية هو قوله تعالى : ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ على عكس ما وصف الله تعالى به أولى الألباب الذين : ﴿ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ﴾ بهذا العموم والإجمال والإطلاق ، فكل ما أمر الله به أن يوصل من علاقات وارتباطات بين الناس بعضهم وبعض من رحم ومصاهرة ونسب وجوار وصحبة وزمالة ، ومن رباط عام ، وحتى رباط العبودية ، رباط المخلوقية أنهم مخلوقون ، فكل المخلوقات ينبغى أن يراعوا حق الله فى هذا الرباط والعهد ، وهذا الوصل هو شأن أولى الألباب .

أما هؤلاء فهم ﴿ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ فلا يبرون أبًا ولا أمًا ، ولا يصلون رحمًا ، ولا يؤتون ذوى القربى ، ولا يرعون جواراً ، ولا يؤدون للصحبة حقها ، ولا يرحمون ضعيفًا ، ولا يؤدّون شيئًا لمسكين ، وقد قال

الله سبحانه وتعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ [محمد : ٢٢ ، ٢٣] ٠

الإفساد فى الأرض :

وثالث الأوصاف هو قول الله تعالى : ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ ﴾ وكأن القرآن الكريم قد استغنى بهذا الوصف ؛ ليقابل به كل الأوصاف الأخرى عند أولى الألباب الذين ﴿ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ والذين يخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ، فالفساد فى الأرض يعتبر إفساداً للحياة يقابل هذا كله وقوله : ﴿ وَيُفْسِدُونَ فِى الأَرْضِ ﴾ هذه كلمة عامة ، وعلى ذلك فترك الصلاة يعتبر إفساداً فى الأرض ، وترك الإنفاق مما رزق الله يعتبر إفساداً فى الأرض ، وترك الصبر ابتغاء وجه الله يعتبر إفساداً فى الأرض ، وترك خشية الله وعدم الخوف من سوء الحساب يعتبر إفساداً فى الأرض ٠

وإذن فالفساد فى الأرض هو الابتعاد عن طاعة الله تعالى واقتراف ما نهى الله عنه ، وهذا يدلنا على أن صلاح الأرض إنما يكون بالقيام بحق الله تبارك وتعالى وامتثال أوامره واجتناب نواهيه ، وليس صلاح الأرض بالزراعة والصناعة والاحتراف والعمارة المختلفة وإن كانت هذه مما تصلح به ولابد للأرض منه ، ولذلك اعتبرها فقهاء المسلمين من فروض الكفايات ، ولكن الأرض لا تصلح به وحده ، فإذا زرع الناس وصنعوا وعمّروا وأنعشوا الحياة ، كما نرى فى الحضارة المعاصرة ، ولم يقيموا الصلاة ، ولم يؤتوا الزكاة ، ولم يأمروا بالمعروف ، ولم ينهوا عن المنكر ، فإن الأرض لا تصلح ٠

والقرآن أراد من الناس أن يصلحوا فى الأرض ولا يفسدوها ، ولذلك قال : ﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٦] وكم قرأنا لغير نبى من الأنبياء والرسل السابقين يدعو قومه ألا يفسدوا فى الأرض ، كما قال سيدنا شعيب : ﴿ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِى الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[هود : ٨٥ ، الشعراء : ١٨٣]

وكان قومه قد أفسدوا الحياة الاقتصادية بالبخس والتطفيف وغير ذلك ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الآخِرَ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [العنكبوت:٣٦] وسيدنا موسى يقول لبنى إسرائيل : ﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ [البقرة : ٦٠] فالمطلوب إصلاح الأرض وعدم إفسادها .

وإصلاح الأرض هدف من أهداف الرسالات كلّها ، أن تصلح الأرض ولا تفسد ، وأن تعمر ولا تخرب ، ولكن إصلاح الأرض وعمرانها لا يكون فقط بالنواحي المادية ، وإنما يكون بالنواحي المادية وبالنواحي المعنوية ، فتعمر الأرض وتصلح بالأخلاق وبالقيم وبالإيمان ، وبالتوحيد ، وبالعقائد السليمة وبالعبادات الخالصة لله تبارك وتعالى ، ومن أجل ذلك نرى من أوصاف القرآن لهؤلاء العمى أنهم يفسدون في الأرض .

﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ وفي سورة البقرة قال : ﴿ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ عاقبة لهؤلاء : ﴿ الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[البقرة: ٢٦ ، ٢٧] وهذه الخسارة بينتها آية الرعد التي معنا : ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ واللعنة هى الطرد والإبعاد من رحمة الله تبارك وتعالى ، وهذه شرّ عقوبة أن يطرد الإنسان من رحمة الله التى وسعت كل شيء وألا تسعه هذه الرحمة ، فهذا يعني أنه ارتكب ما يحجّر عليه هذا الواسع ويضيقه فإنه أساء وأفسد ، واللعنة إذا أطلقت فهي تعني لعنة الله عزّ وجلّ ، ولكن لا مانع أيضًا أن يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون كما قال عزّ وجلّ : ﴿ أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[البقرة:١٦١] فيصبحوا مصبًّا للعنة يلعنهم كل لاعن من أهل السموات ومن أهل الأرض ..

﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ وكأن القرآن هنا إذ قال : ﴿ لَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ ولم يقل : « عَلَيْهِمْ لَعْنَة » يتهكم من هؤلاء ، فماذا ينتظرون وماذا يريدون ؟! وما حظهم وما نصيبهم ؟! ، ليس لهم إلا اللعنة كما قال الله عزّ

وجلّ : ﴿ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [آل عمران : ٢١ ، التوبة : ٣٤ ، الانشقاق : ٢٤] بنوع من السخرية والتهكم ، وإذا كان فى أولى الألباب قد قال : ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ وهى الجنة ، فماذا لهؤلاء ؟ ليس لهم إلا اللعنة وسوء الدّار ، ﴿ سُوءُ الدَّارِ ﴾ هى جهنّم وعذابها والعياذ بالله .

سعة الرزق لا تدل بالضرورة على رضا الله :

وقد يقال : إن هؤلاء عندهم أموال ولهم ثروات ويعيشون فى بحبوحة من العيش والنعيم والرفاهية ، وقد يظن بعض النّاس أن هذا من دلائل الرضى عنهم ، وهذا وهم عرض للكثيرين ، ولكن القرآن يردّ هذا الأمر ، فمسألة الرزق هذه لا تدل على رضى ولا تدل على سخط ،وإنما الرزق نوع من الابتلاء كما قال الله تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ ، بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ [المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦] وكما قال : ﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّى أَهَانَنِ ﴾[الفجر : ١٥ ، ١٦] وليس التنعيم للأول وإعطاؤه المال تكريمًا ، وليس التضييق على الآخر وحرمانه إهانة ، ومن هنا قال الله تعالى بعد أن ذكر وصف هؤلاء المفسدين الملعونين : ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ ..

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ يبسط أى يوسع،ويقدر أى يضيق ، فهو يوسّع الرزق لمن يشاء ويضيقه على من يشاء ، والتوسيع والتضييق ، أو البسط والقدر خاضع لمشيئة الله تبارك وتعالى ، ومشيئته مرتبطة بحكمته ، فلله تعالى حكمة فى أن يوسع على هذا وأن يضيق على هذا ، وقد يكون هذا نوعًا من المكافأة فى الدنيا ، فبعض الناس يعطيهم الله ما يستحقونه فى الدنيا ؛ نتيجة كدحهم وسعيهم كما قال الله عزّ وجلّ : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ﴾[هود : ١٥] ، فالذى يحسن الزراعة ويأتى بالبذرة الصالحة ، ويبذرها فى الأرض الصالحة ، ويتعهدها بالسقى والرعاية ، ويستخدم فى ذلك أفضل الوسائل والآلات ، لابد أن تؤتيه الأرض الثمرة حسب سنن الله عزّ وجلّ وقوانينه فى هذه الحياة الدنيا ، ومع ذلك

قال عز وجل : ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ ، وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[هود:١٦] فالتوسعة تكون بناء على هذه السنن،وقد تكون ابتلاء لهذا الإنسان من الله واستدراجًا منه: ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٢ ، القلم : ٤٤] ، يقــول الله عزّ وجــلّ : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾ [الانعام : ٤٤] ، كما قد تكون ابتلاء للمؤمنين : ﴿ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ ﴾[البقرة : ١٤٣] لمن تغره مظاهر الدنيا فيضعف ويفتتن ولمن لا تغرّه الدنيا فلا ينقلب على عقبيه ،ولا يهمه إن كان عنده كنوز قارون أو كان عنده ملك هارون الرشيد فهو لا يبالى بهذا كلّه .

الفرح المذموم والفرح المحمود :

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ وهؤلاء الذين بسط الله لهم الرزق فرحوا بالحياة الدنيا ، بنصيبهم وما أوتوا من رزق ومن سعة فى هذه الحياة الدنيا ، والفرح فى ذاته ليس مذمومًا ، وإنما يذم إذا أدّى إلى الأشر والبطر فهذا هو الفرح الذى نَهَى قومُ قارون قارون عنه : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ ، إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾[القصص : ٧٦] فالمقصود بالفرح هنا هو الفرح المؤدى إلى البطر والكفر بنعمة الله عزّ وجلّ والغرور ، وهذا ما لوحظ فى قارون : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِى ﴾[القصص : ٧٨] فهو فرح بغير الحق كما قال القرآن الكريم : ﴿ ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾[غافر : ٧٥] أما الفــرح بفضـــل الله تبارك وتعالى فهو مطلوب: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ، هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[يونس: ٥٨]﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ ﴾ [الروم : ٤ ،٥] .

لا مانع من الفرح بدنيا إذا جـاءت للإنســان من حلال وابتعد فيها عن الحرام ، ولا مانع كذلك من الــفرح الفطرى كما جاء فى الحديث بالنسبة لرمضان : « للصائم فرحتان يفرحهما ، فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربّه » ،

أو « إذا أفطر فرح بفطره ، وإذا لقى ربّه فرح بصومه » [1] فالفطر فرح فطرى بما أحلّ الله له مما كان محرمًا عليه ، والشىء الذى كان ممنوعًا أصبح مباحًا له ، فهو يفرح ، يشرب على الظمأ ويأكل على الجوع ويحمد الله ويقول : « ذهب الظمأ وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله » [2]،وليس هذا الفرح الطبيعى مذمومًا ، إنما المذموم هو الفرح بالدنيا التى تلهى عن الله عزّ وجلّ وتغرّ الإنسان وتشغله عما ينبغى .

﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ والحياة الدنيا هى الحياة التى يحياها النّاس مقابل الحياة الآخرة ، والدنيا مؤنث أدنى ، والأدنى يقابل بالأعلى ، أو يقابل بالخير ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَى بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ [البقرة : ٦١] فالأدنى هو الأحقر والأرذل والمقابل له هو الأعلى والأفضل ، وأحيانًا يكون الأدنى بمعنى الأقرب ويقابله الأبعد والأقصى ﴿ إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى ﴾ [الأنفال : ٤٢] ، فالحياة الدنيا هى الأقرب ؛ لأنها قبل الآخرة ، أو هى الأدنى ؛ لأنها أقل قيمة من الآخرة ، فهى الحياة الدنيا ، والأخرى هى الحياة العليا ، كما قال بعض السلف : « لو كانت الدنيا ذهبًا يفنى والآخرة خزفًا يبقى لفضل العاقل الخزف الباقى على الذهب الفانى ، فكيف والدنيا لا تساوى خزفًا ، والآخرة أكثر من ذهب » ، ومما يحقر هذه الدنيا أنها فانية ، فكيف وهي نفسها لا تساوى شيئًا ، ولهذا فالله تعالى يقول هنا : ﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ ﴾ .

---

(١) جزء من الحديث الطويل المتفق عليه عند البخارى ومسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه وأوله : « كل عمل ابن آدم له .. » وفى رواية البخارى : « للصائم فرحتان بفرحهما إذا أفطر فرح وإذا لقى ربه فرح بصومه » ، وفى رواية مسلم : « للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه » . وروى هذا الحديث أيضًا عدا البخارى فى الصوم ٩ وفى التوحيد ص ٣٥ ، وعدا مسلم فى الصيام ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، الإمام أحمد فى مسنده ، وابن ماجة ،والدارمى والنسائى بألفاظ مختلفة .

(٢) حديث رواه أبو داود فى سننه فى كتاب الصوم ص ٢٢ عن ابن عمر رضى الله عنهما ، كما رواه النسائى فى سننه أيضًا من حديث ابن عمر .

قيمة الحياة الدنيا بالنسبة إلى الآخرة :

﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ ﴾ المتاع هو المنفعة القليلة أو الشيء القليل ، عجالة الراكب أو زاد المسافر كما عبّر بعض المفسرين ، ما يزود به المسافر وهو على جناح السفر حينما يركب دابته فيحمل شيئًا من المتاع ، تمرات يأكلها ، أقراص من الخبز ، شربة من سويق يشربها ، فالدنيا بالنسبة للآخرة متاع وهذا هو المتاع ، ولذا يقول العلماء : إن حرف الـ« فى » عند قوله : ﴿ فِى الآخِرَةِ ﴾ هو للمقايسة بين شيئين ، مفضول سابق ، وفاضل لاحق ، كما يقال : ما ذنبك فى رحمة الله إلا كقطرة فى بحر ، ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ ﴾ وكلمة متاع هنا نكرة ، وعلماء البلاغة يقولون : إن التنكير يفيد التقليل ، والتحقير ، فهو متاع حقير قليل كما صرحت بذلك بعض الآيات ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ [النساء : ٧٧] ، ﴿ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنْ الآخِرَةِ ، فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِى الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [التوبة : ٣٨] وهذا التصريح مفهوم ضمنًا فى آية الرعد التي معنا ، وقد جاء فى الحديث الصحيح الذى رواه مسلم : « ما الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه فى اليمّ ، فلينظر بم يرجع » (١) فلا تستحق الدنيا إذن – وهذا شأنها – أن يحرص الناس عليها ولا أن يتهارشوا من أجلها ، ولا أن يعتبروا الذين ملكوا الدنيا هم السادة والقادة وأن الآخرين هم الأتباع لهم ، ولا ينبغى أن تكون هى الميزان بالنسبة لتقويم الناس كما قال من قال : « وقيمة رب الألف ألف وزد تزد » وكذلك قيمة رب الدرهم – على هذا المقياس – درهم فقيمة الإنسان ما معه ، ولذلك قال مشركو مكة حينما بعث إليهم النبى ﷺ مما حكاه القرآن : ﴿ وَقَالُوا لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [الزخرف : ٣١] من مكة أو من الطائف مثل عتبة بن ربيعة أو الوليد بن المغيرة من مكة أو عروة بن مسعود الثقفى من الطائف من أصحاب الأموال وأصحاب الجاه ، فهذا مقياسهم

(١) رواه الإمام مسلم فى صحيحه من حديث المستورد بن شدّاد أخى بنى فهر ، فى كتاب الجنّة ص ٥٥ ، ورواه أيضًا الترمذى فى الزهد ص ١٥ ، وابن ماجة فى الزهد ص ٣ ، كما رواه الإمام أحمد رحمه الله فى مسنده .

وقد أجابهم القرآن : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ [الزخرف : ٣٢] فالله قد فاوت بين الناس حتى تنتظم الحياة ، وسخر بعضهم لبعض ليس قهرًا ولا إذلالا ، ولكن تسخير نظام وإدارة ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [الزخرف : ٣٢] .

تكرار اقتراح الآيات الخارقة :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ ، قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ وكان الذين كفروا هنا – وهم أنفسهم المذكورون قبل قليل بالأوصاف الشائنة – يقترحون الآيات ويطلبون الخوارق ، ولم يكفهم ما أنزل الله على محمد ﷺ من الحق ، فهم العمى الذين لم يعلموا أنما أنزل إليه من ربه هو الحق ، وبدل أن يستجيبوا لأعظم آية وأرفع معجزة ،وهي القرآن الكريم الآية الباقية الخالدة ، طفقوا يطلبون آيات شتى : ﴿ وَقَالُوا لَنْ نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ، قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾ [الإسراء : ٩٠ : ٩٣] وهذه المطالب لا تدل إلا على التعنت ، وتلك الآيات بعضها في الأرض ، ولكن لأنهم يطلبونها بخارقة سماوية اعتبرت نازلة من السماء .

والآية : ﴿ .. لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ .. ﴾ تكرار لما ذكر في أوائل السورة : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّنْ رَّبِّهِ ﴾ والسورة تدور حول هذا المحور ، محور الرسالة المحمدية وثبوت هذه الرسالة وحقيتها ، وحقّية ما أنزل الله على رسوله ﷺ من الكتاب ، وهذا واضح من أول آية في السورة : ﴿ الۤمۤر، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ، وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ ولكن هؤلاء لم يقنعهم هذا الكتاب فهم يطلبون آيات ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مَنْ رَّبِّهِ ﴾ وقد ذكر القرآن : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ؛ ليسجل عليهم الكفر ويبين أن الذى دعاهم إلى مثل هذه الطلبات

المتعنتة إنما هو الكفر والجحود ، وقد تكررت ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فى هذه السورة ثلاث مرّات تلك التى معنا والتى فى أول السورة ، وفى آخرها : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً ، قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد : ٤٣] .

والقرآن هنا يحكى لنا قول الذين كفروا ، ولا يتوجس من ذلك ولا يبالى أن يعرض علينا أقوال الكافرين ، فهو مملوء بأقوال الكافرين والمعارضين للنبوة من المشركين بالله ، والجاحدين لرسالة رسول الله ﷺ ، وهذا يعلمنا أن نواجه الباطل بصراحة ولا نخشاه ، ولا ندفن رؤوسنا فى الرمال ، فكم ذكر من أقوال المشركين واليهود والنصارى والدهريين والمكذبين بالنبوة وردّ على هذا كله .

﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مَنْ رَبِّهِ ﴾ الضمير فى عليه يعود على محمد ﷺ وإن لم يسبق ذكره ولكنه مفهوم من المقام ، و ﴿ آيَةٌ ﴾ خارقة من الخوارق الحسية كالتى أنزلت على موسى وعيسى وصالح وغيرهم من الأنبياء ، نشهدها بأعيننا ، ونلمسها بأيدينا ، هكذا اقترحوا وهكذا تعنتوا وطلبوا ، ولكن سنّة الله جرت على ألاّ يجاب هؤلاء إلى طلبهم ، فلو أجابهم ما آمنوا ، والقرآن يقول : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام : ٧] ويقول : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر : ١٤ ، ١٥] ويقول : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلاَئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١١١] فالآيات لن تجدى مع هؤلاء وكل ما فى الأمر أنهم متعنتون أمام رسول الله ﷺ ولو أنصفوا لكان القرآن كافيًا لهم وهو أعظم الآيات ، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥١] والقرآن وحده كاف فى إقناع أهل العقل والبصيرة أولى الألباب .

﴿ قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ هذا الرّد يعنى أن هؤلاء ضلاّل غلبت عليهم الضلالة ، واستحبوا العمى على الهدى ، فلم يروا

النور أمام أعينهم وهو واضح ساطع ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ﴾ وبيان ذلك هناك فى سورة البقرة عند قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴾[البقرة: ٢٦] فما أضلهم إلا لأنهم فسقوا عن أمره والله يضل من يشاء ممن كان على شاكلة هؤلاء الذين يرون الحق ناصعًا ولا يؤمنون به ، تعنتا أو جحودًا أو استحبابًا للدنيا أو ﴿ حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾[البقرة: ١٠٩] أو بغيًا وعلوًا أو غير ذلك ..

من الذى يشاء الضلالة والهداية ؟ :

والضمير فى قوله : ﴿ مَن يَشَاءُ ﴾ عائد على الله سبحانه وتعالى خلافًا لما يقوله بعض المحْدَثين من أن الضمير في يشاء : عائد على « من » والمعنى أن من يشاء الضلالة يضلّه الله ، وكذلك من يشاء الهدى يهديه الله : ﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [النحل : ٩٣ ، فاطر : ٨] فالمشيئة على قولهم – تكون هنا للإنسان نفسه ، والواقع أن هذا يخالف المتبادر من هذه اللفظة التى ذكرت فى أمور كثيرة كما فى قوله فى السورة ذاتها: ﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ فيشاء هنا هى لله سبحانه وتعالى الذى يبسط الرزق لمن يشاء ويضيقه على من يشاء ، وكما فى قوله : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨] أى لمن يشاء هو ، وكما فى قوله : ﴿ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] وهنا جاءت بالخطاب ، وكما فى قوله : ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ﴾ [الأعراف : ١٥٥] فهذا كله يدلّ على أن المقصود بالذى يشاء هو : الله سبحانه وتعالى وليس الإنسان ، وصاحب هذا التفسير – من يشاء هو الإنسان – يريد أن يردّ على الجبريين وغيرهم ليقول : إن القرآن يجعل مصير الإنسان بيده ، وأن الإنسان هو الذى يصنع مستقبله ، وهو الذى يمكن أن يهدى نفسه أو يضلّها ، ولكن تقرير هذه الحقيقة لا يحتاج إلى التعسف فى التأويل ؛ لأن القرآن يردّ على الجبريين فى مئات الآيات إن لم يكن فى آلافها ، فالإنسان هو المسئول عن مصيره ﴿ مَن

اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِه وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ [الإسراء : ١٥] ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِه وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ [فصلت : ٤٦] ﴿ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴾ [الإسراء : ٧] ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِه وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل : ٤٠] وقد تكلمنا قبل قليل عن مصير أولى الألباب الذين كانت نتيجة سعيهم عقبى الدّار ، جنّات عدن يدخلونها ، أما الآخرون فلهم اللعنة ولهم سوء الدّار ، فالنتائج مرتبة على المقدمات ، والثواب والعقاب مترتب على الحسنات والسيئات ، لذا فلا يحتاج الأمرلأن نتعسف فى تفسير القرآن .

لمن يكون الإضلال والهداية ؟ :

﴿ قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ وكما قال فى الآية الأخرى : ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِه إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴾ [البقرة : ٢٦] قال هنا : ﴿ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ أى أن الله يهدى من كان عنده استعداد للهداية وقابلية لها ، والله قد خلق القلوب مستعدة للهداية ولم يخلقها غلفًا ، وإنما سعى الإنسان وعمله هو الذى يودى به ، والله تعالى يقول : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ [النساء : ١٥٥] فالقلوب مستعدة لقبول الهداية والتوحيد ، والإنسان هو الذى يدسّى نفسه أو يزكّيها : ﴿ وَنَفْسٍ ، وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ [الشمس : ٧ : ١٠] .

فالهداية متاحة للجميع ،وبابها مفتوح للجميع ، ومن يخطو خطوة واحدة فإن الله سبحانه وتعالى يقابله بأن يفتح له الأبواب « من أتانى يمشى أتيته هرولة ، ومن تقرّب إلىّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا ، ومن تقرب إلى ذراعًا تقربت إليه باعًا » [١] فعلى قدر الاستعداد تكون الهداية ، وهؤلاء عندهم استعداد للإنابة ، فهداهم الله عزّ وجلّ كما قال : ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا

---

(١) إشارة إلى حديث أبى هريرة رضى الله عنه : « أنا عند ظنّ عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى . . » الذى رواه الشيخان ، البخارى فى كتاب التوحيد ومسلم فى الذكر والدعاء وغيرها من الأبواب ، والذى رواه أيضًا الترمذى فى الدعاء ص ١٣١ ، وابن ماجة فى الأدب ص ٥٨ والإمام أحمد فى مواضع كثيرة من مسنده .

أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِنْ بَيْنِنَا ، أَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الانعام : ٥٣] بل الله أعلم بالشاكرين ، ولذا منّ عليهم هناك إذن استعدادات هيأ الله الإنسان بها ، وفى الحديث : « كلّ مولود يولد على الفطرة » [١] .

هداية البيان وهداية التوفيق :

والهداية هدايتان : هداية مبذولة للجميع ، وهى هداية البيان والدّلالة ، وهديته الطريق يعنى دللته عليه ، والعلماء والدّعاة هداة ، ومعنى هداة : أنهم يبينون للناس المنهج والطريق المستقيم ويدلّونهم عليه ..وهداية موصلة إلى الحق وإلى اتباع طريقه والتوفيق إليه ، وهذه الهداية لا تكون إلاّ لله سبحانه وتعالى ، والأنبياء يهدون بمعنى أنهم يدلون الناس على الطريق ، والله يهدى أى يدّل أيضًا على الطريق كما قال ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد : ١٠] ولكن بعض الناس يدلّهم الله ويبين لهم فلا يستجيبون كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾[فصلت : ١٧] فالهداية هنا بمعنى البيان والدلالة ، وقد أرشدهم الله إلى الطريق المستقيم وعرّفهم الحق من الباطل ، ومع هذا استحبوا العمى على الهدى .. أما الهداية الأخرى فتعنى التوفيق إلى الإيمان والطاعة كما قال الله تعالى لرسوله : ﴿ إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ ﴾ [القصص : ٥٦] فهى هنا بمعنى التوفيق ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] أى ليس عليك توفيقهم إلى الإيمان وإلى الطاعة : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد : ٤٠] .

عليك الدعوة وعلينا التوفيق ، فقوله تعالى : ﴿ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ هو من هذا الباب فى الهداية أى يوفّق إليه ﴿ مَنْ أَنَابَ ﴾ وأناب أى رجع ، فهناك من شرد عن الله وهناك من رجع إلى الله ، من عرف الحق فرجع إليه ، والإنابة مطلوبة من الجميع ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ [الزمر : ٥٤] وكما قال تعالى على لسان شعيب : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨ ، الشورى : ١٠] ، وكما قال أيضًا : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَتَ اللهِ الَّتِى

---

(١) تقدم الكلام عنه .

فَطَرَ النَّــاسَ عَلَيْهَــا ، لاَ تَبْـديلَ لخَلْقِ الله ، ذَلكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكنَّ أَكْثَرَ النَّاس لاَ يَعْلَمُونَ * مُنيبينَ إلَيْــه وَاتَّقُوهُ وَأَقيمُواْ الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا منَ الْمُشْركينَ ﴾ [الروم : ٣٠ ، ٣١] .

لمن تكون هداية الله ؟ :

﴿ وَيَهْدى إلَيْه مَنْ أَنَابَ ﴾ من أناب بقلبه إلى الله ، ومن تحرّى الهدى وطلبه ، هداه الله عزّ وجلّ ، فالله قد أتاح فرصة الاهتداء لكل المكلفين ، وباب الهداية مفتوح على مصراعيه ، فمن طلب الهدى وجده ، ومن أعرض عنه فلن يجده ، كما تقول : من قبل هديتي أهديت له ، ومن رغب عنى لم أرغب فيه ، ومن أعرض عنى لم أقبل عليه ، فالله سبحانه وتعــالى يمنح هدايته لمن تعرض لها ، أما من أغلق عقله وقلبه وجعل بينه وبين الهداية حجابًا وحجابًا كما قال المعاندون لرسول الله ﷺ : ﴿ قُلُوبُنَا فى أَكنَّة مّمَّا تَدْعُونَا إلَيْه وَفى آذَاننَا وَقْرٌ وَمنْ بَيْننَا وَبَيْنكَ حجَابٌ ﴾ [فصلت : ٥] فكيــف يهتدى هؤلاء ؟! لا يمكن أن يهتدوا ؛ لأن الله يهدى إليه من أناب .

﴿ إلَيْه مَنْ أَنَابَ ﴾ بعض المفسرين قالوا : ﴿ إلَيْه ﴾ أى إلى الحق وبعضهم قال : إلى الإسلام ، ولم يذكر الحق هنا ولا الإسلام ، وإنما أخذوه من المقام ،ولكنّ الظاهر أن ﴿ إلَيْه ﴾ هنا ترجع إلى الله سبحانه وتعالى ، فالله يهدى إليه أى إلى صراطه ومنهجه ودينه من أناب إليه ، وفى آيات أخرى ﴿ اللَّهُ يَجْتَبى إلَيْه مَن يَشَاءُ وَيَهْدى إلَيْه مَنْ يُنيبُ ﴾ [الشورى : ١٣] ، والإنابة هى الرجوع مرة بعد مرة ، فمن رجع إلى الله وأناب المرّة بعد المرّة والكرّة بعــد الكرّة ولم يشرد من ربه عزّ وجلّ بل يأوى إليه دائمًا ، يستحق الهداية ، ومن ذلك صفة المنيب : ﴿ إنَّ فى ذَلكَ لآيَةً لّكُلّ عَبْد مُّنيب ﴾ [سبأ : ٩] ﴿ تَبْصرَةً وَذكْرَى لكُلّ عَبْد مُّنيب ﴾ ﴿ مَّنْ خَشيَ الرَّحْمَنَ بالْغَيْب وَجَاءَ بقَلْب مُّنيب ﴾ [سورة ق : ٨ ، ٣٣] أى الذى يرجع مرة بعد مرة .

من هم الذين آمنوا ؟ :

﴿ الَّذينَ آمَنُوا وَتَطْمَئنُّ قُلُوبُهُم بذكْر الله ﴾ هذا وصف لمن أناب ، كأن

سائلاً سأل من هذا المنيب ؟ أو ما هذا الصنف ؟ ومن هم أهل الإنابة ؟ فكان الجواب : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ولم يذكر هنا المؤمن به ، فبماذا آمنوا ؟ لأن هذا الاسم ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أصبح علمًا على صنف من الناس تميّز عن غيره ، وأصبح معروفًا معلومًا بغاياته الواضحة ، ومنهجه المحدد ، وطريقه المستقيم ، تلك الفئة أصبحت علمًا ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ومقابلهم ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ، وفي الآيات التي مرت بنا : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ لم يذكر لنا المكفور به أيضًا ، أكفروا بالله ؟ أم كفروا بملائكته ؟ أم كفروا بكتبه ؟ أم برسله ؟ أم باليوم الآخر ؟ ؛ لأن هذه الفئة أصبحت معروفة أيضًا تتميّز بالكفر والجحود بغضّ النظر عن الشيء الذي كفروا به ، وأصبح الكفر علمًا مميزًا لهم .

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ظهرت هذه الفئة بظهور الإسلام ، وتحقق لهم وصف الإيمان بغض النظر عما آمنوا به ما هو ؟ ، ولذا تكررت هذه الكلمة في القرآن الكريم كلّه نحو مائتين وستين مرة ، وقد يعطف عليها أحيانًا ﴿ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ [1] ، وأحيانًا لا يعطف عليها وهذا في أكثر من مائتي موضع ، والإيمان هنا يتضمن العمل ، ولا داعي لأن ندخل فيما دخل فيه المتكلمون من مجادلات حول الإيمان وعلاقته بالعمل ، وهل العمل جزء من الإيمان أو الإيمان شرط للعمل ؟ أو العمل مكمل للإيمان ؟ لا داعي لذلك ؛ لأن

---

(١) في المعجم المفهرس لألفاظ القرآن (عبد الباقي) وغيره عدّها أي ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ في (٢٤٠) مائتين وأربعون موضعًا مقترنة هكذا ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أو نحوها بإضافة حرف جر وغيره وحكاية عن الذين آمنوا برسالة الإسلام وبالله وبرسوله وحكاية أيضًا في بعض المواضع عن الأنبياء السابقين ، وحكاية عن الذين كفروا مرة واحدة وذلك قول الله عزّ وجلّ : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥٢] .

ووردت آمنوا منفردة في سبعة عشر موضعًا فيكون المجموع مائتين وثمانية وخمسين موضعًا (٢٥٨) والله أعلم .. انظر المعجم المفهرس لزلفاظ القرآن الكريم (محمد فؤاد عبد الباقي) من ص ٨٢ إلى ص ٨٦ .

واقترنت ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بـ ﴿ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ في أكثر من خمسين موضعًا .

الإيمان القرآنى يتضمن العمل ، فلا إيمان بغير عمل ، ومن هنا نجد أن القرآن حينما يتحدث عن المؤمنين يقول : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال : ٢ : ٤] ويقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون : ١ : ٥] ويقول : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِه ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات : ١٥] .

وإذن فالإيمان القرآنى يتضمن العمـــل ، والقرآن يتجسد فى أخلاق وأعمال ، فإذا قال : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ يعنى إيمانًا يثمر عملاً صالحًا ، وخلقًا فاضلاً ، وعلمًا نافعًا ، وينشيء واقعًا فى حياة صاحبه ، فهذا هو الإيمان الحق .

اطمئنان القلوب بذكر الله :

﴿ آمَنُوا وتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ ﴾ وأبرز ما يميز الذين آمنوا : أنهم تطمئن قلوبهم بذكر الله ، ونلاحظ تغيير الصيغة من الماضى فى ﴿ آمَنُوا ﴾ إلى المضارع فى ﴿ وتَطْمَئِنُّ ﴾ بدلاً من أن يقول واطمأنت ؛ ليفيد التجدد أي إن هذا الاطمئنان يتجدد دائمًا وباستمرار معهم .

والإنسان ليس هو هذا الجسد وهذا الغلاف ، وإنما حقيقة الإنسان هى تلك الجوهرة الربّانية واللّطيفة الروحانية التى تسكن بناء الجسد والتى جاء فيها الحديث : « ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه وإذا فسدت فسد الجسد كلّه ألا وهى القلب » [1] القلب ذلك الكائن الواعى الداخلى ، والإنسان يسعد أو يشقى ، ويصلح أو يفسد بهذا القلب ، ولذلك كان هؤلاء

(١) فقرة من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه المشهور الذى أوله : « الحلال بيّن والحرام بيّن » وآخره : « ألا وهى القلب » ، والذى رواه البخارى فى كتاب الإيمان باب فضل من استبرأ لدينه ، ورواه مسلم فى المساقاة ص ١٠٧ ، وابن ماجة فى الفتن ص ١٤ ، والدارمى فى البيوع ١ ، والإمام أحمد فى مسنده بألفاظ مختلفة .

المؤمنون مطمئنة قلوبهم بذكر الله ، فهى غير مضطربة ، ولا قلقة ولا ممزقة بين الغايات المختلفة والمناهج المتباينة ،وغير شاكّة وغير مرتابة .

المراد بذكر الله فى الآية :

﴿ بِذِكْرِ اللهِ ﴾ أيًّا كان تفسير هذا الذكر ، وسواء كان بالتسبيح والتهليل والتحميد والتكبير وتلاوة القرآن والدعاء والاستغفار ، أم كان بالسماع ، فقلوبهم مطمئنة بهذا الذكر ، يجدون فيه أنسًا عند الوحشة ، ويجدون فيه طمأنينة عند القلق، وأمنًا عند الخوف ، وملاذًا عند الشدّة ، وفرجًا عند الكربة ، كما وجدنا أيوب عندما مسّه المرض والضرّ : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ﴾ [الأنبياء : ٨٣ ، ٨٤] وكما وجدنا ذا النون حينما التقمه الحوت ، وأطبقت عليه الظلمات : ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ، لم ينس ذكر الله : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ، وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٧ ، ٨٨] وكما وجدنا موسى عليه السلام حينما خرج مهاجرًا وتوجه تلقاء مدين وعاش فى هـذه الـغربة وحيدًا غـريبًا قال : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٤] وفتية أهل الكهف حينما وقفوا تجاه قومهم وهم يعبدون الأصنام فلجأوا إلى الله وقالوا : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف : ١٠] . فهذا هو الذكر الذى تطمئن به القلوب .

ذكر الله أن يذكر الإنسان ربّه ويدعوه ويناجيه ويناديه فى ساعة الكربة والمحنة كما نادى نوح ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾[الصافات: ٧٥] ، ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا ﴾ [القمر : ١٠ : ١٢] والمؤمن إذا ذكر الله تعالى اطمأن قلبه مهما ألمت به الخطوب ، وادلهمت من حوله الكروب ، وأحاطت به الشدائد والظلمات .

وهذا الذى ذكرنا اتجاه فى تفسير (ذكر الله) عزّ وجلّ فى الآية ، وهناك

اتجاه آخر فى تفسير ذكره بمعنى ذكر وعده سبحانه وتعالى ، للمؤمنين بالعزّ والتمكين والحياة الطيبة فى الدنيا : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : ٩٧] ، ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ [غافر : ٥١] ، ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [المنافقون : ٨] ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الحج : ٣٨] ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧] ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم : ٤٧] فيذكر المؤمن هذا كله فيطمئن قلبه بوعد الله عزّ وجلّ ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران : ٩ ، الرعد : ٣١] .

والمعنى : أنهم يطمئنون بذكر الله تعالى لهم ، ووعده إياهم بالنصر والتمكين .

أو بمعنى ذكر آلاء الله وآياته سبحانه وتعالى فى الأنفس والآفاق ، ودلائل وحدانيته وقدرته ورحمته ، فإذا ذكر هذا أيضًا اطمأن قلبه بالإيمان وازداد يقينه .

أو أن ذكر الله فى الآية هو القرآن الكريم ، فالقرآن ذكر ، والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ، أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٥٠] ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل : ٤٤] فالقرآن ذكر الله عزّ وجلّ ، يُذكر بالله فى كل آية من آياته ، وبه تطمئن القلوب ، فلاتحتاج إلى آية أخرى غير هذا القرآن كهؤلاء الذين يطلبون آيات غير هذه الآية العظمى وقالوا: ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ ، ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [العنكبوت : ٥١] .

وقد اختار بعض المفسرين هذا الوجه وقال : هو أحسن الوجوه ؛ لأن الموضوع يتعلق بالقرآن ، وبالحديث عن القرآن ، وباقتراح آية أخرى غير القرآن ، وكأنه يقول : المؤمنون لا يطلبون شيئًا آخر بل قلوبهم مطمئنة بهذا الكتاب ، وهو وحده آية أىّ آية ، ومعجزة أىّ معجزة ، فلا يطلبون بعدها المزيد . .

ولا مانع أن يشمل ذكر الله فى الآية هذه المعانى كلها ، فالمؤمنون قلوبهم مطمئنة بهذا كلّه ، فلا يعتريها ريب ، ولا يطرأ عليها قلق ، ولكنها ساكنة مطمئنة ، والطمأنينة معناها السكون ، وأصلها فى الحسيات ، كاطمئنان الأرض ، ثم نقل إلى المعنويات ٠

السعادة الحقة فى طمأنينة القلوب بالإيمان :

﴿ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُ الْقُلُوبُ ﴾ ألا أداة استفتاح لتأكيد الجملة والتنبيه على مضمونها ، وعلماء البلاغة يقولون : قدّم ﴿ بِذِكْرِ اللهِ ﴾ للدلالة على أنه ليس بذكر غيره بل بذكر الله وحده ، والإنسان إذا جمع ما شاء من مال ، وارتقى ما شاء من مناصب ، وأنجب ما شاء من بنين ،وهيأ ما شاء من أنعام وحرث من زينة الحياة الدنيا ، فلن يمنحه هذا كله طمأنينة القلب ، وأصحاب الملايين والبلايين كُثر ، ولكنهم قلقون ٠ وهذا ما نراه عند كثير من المرتابين والشكَّاك والملاحدة ، إنهم لا يشعرون بطمأنينة القلوب مع ما هم فيه من مال وبنين ونعمة كانوا فيها فاكهين ، فكثيراً ما تكون الأموال والأولاد أداة تعذيب لهم كما قال الله تعالى : ﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [التوبة : ٥٥] ٠

فالمسألة إذن ليست مسألة مال ولا أولاد ، ولا أنعام ولا حرث ، ولا قناطير مقنطرة من الذهب والفضة ، فالسعادة إنما تنبع من الطمأنينة ، والطمأنينة تنبع من الداخل لا من الخارج ، من القلب ، ولذا نجد أهل الحضارة المادية المعاصرة الذين استطاعوا أن يحلقوا فى الهواء كالطيور ، وأن يغوصوا فى البحار كالحيتان ، وأن يمشوا فوق الأرض كالشياطين ، لم يسعدوا في حياتهم الدنيا ، ومن هنا نراهم يسمون الحضارة المعاصرة (حضارة القلق) ويسمون عصرنا هذا (عصر القلق) ، ولذلك تكثر الأمراض النفسية ، والعيادات النفسية فى أمريكا تعد بالآلاف بل بعشرات الآلاف ، والناس يشكون من العقد ومن الاضطرابات العصبية والنفسية ومن الضيق بالحياة ، فالحياة لا طعم لها ولا معنى عندهم ، ولم تسعدهم معطيات الحضارة المادية الهائلة التى بلغت بأحدهم أن يضع يده تحت صنبور المياه فينزل الماء تلقائيًا دون أن يحرك له ساكنًا ، وقد كتب صحفى

ذات مرة عن أهل السويد والنرويج والدانمارك تلك البلاد ذات الدخل المرتفع جداً للأفراد ، إلى جانب الضمانات الهائلة فى حالة المرض ، وفى حالة الشيخوخة ، وفى حالة الولادة ، وفى حالة الإصابة فى العمل ، وفي حالات العجز والتعطل الإجبارى ، أنهم ليسوا سعداء وأن من اليسير على أحدهم أن يلقى بنفسه من الطوابق العليا ، أو أن يشرب السمّ ، أو أن يضرب نفسه بالرصاص ، فهذه البلاد ذات نسبة عالية – بل من أعلى النسب – فى حالات الانتحار ؛ وما ذلك إلا لأنهم محرومون من الطمأنينة ، فالطمأنينة إنما تأتى بذكر الله ، وهؤلاء لا يذكرون الله ، بل يعيشون فى بعد عن الله ، كما يقول أحد أبناء هذه الحضارة « ليوبولد فايس » الذى اهتدى إلى الإسلام وسمى نفسه محمد أسد ، يقول فى كتابه (الإسلام على مفترق الطرق) : « إن الحضارة الحالية وإن لم تجحد الله البتة – يعنى جحوداً صريحًا قاطعًا – لا تجد لله معنى ولا فائدة فى نظامها الفكرى الحالى » (١) .

وقد كنت فى إيطاليا فى شهر ديسمبر الماضى – ١٩٩٢ م – فى مؤتمر من مؤتمرات المسلمين التى تعقد أثناء ما يسمونه (الكريسماس) واحتفالات المسيحيين به ، ويعقدها الشباب الإسلامى هناك ، وحدثنا أحد الإخوة فى ميلانو من الذين أسلموا فى إيطاليا عن كيفية اهتدائه للإسلام فقال : إنه وجد بائعًا مغربيًا يتجول ليبيع السلع فسأله وهو يرتعش من البرد : ما الذى أوقفك فى هذا البرد ؟ فقال الرجل : أبحث عن رزقى ، فسأله : وهل تكسب شيئًا ؟ قال الرجل : أكسب ولله الحمد كذا وكذا ليرة ، فآخذ بعضها لنفسى وأرسل بعضها الآخر لأهلى ، فسأل : ومن هذا المبلغ الصغير ترسل إلى أهلك ؟ قال الرجل : نعم فالله تعالى أوصانا بالوالدين والأرحام ، ورضى الوالدين من رضى الله ، وغضب الوالدين من غضب الله ، فسأل : وهل أنت راض بهذا ، قال الرجل : الحمد لله ، فما يأتى به الله خير ، فاستغرب السائل أحوال الرجل فى هذا البرد

---

(١) انظر الإسلام على مفترق الطرق لمحمد أسد الطبعة العربية ترجمة الدكتور عمر فروخ ص ٣٩ طبعة دار العلم للملايين .

الشديد وهو يسعى ويرضى . وعندئذ سأل مرة أخرى : ومن الذى علّمك هذا ؟ فقال الرجل : تعلمت هذا من دينى ، أن نرضى بما قسم الله لنا،فسأل : وكيف أعرف دينكم ؟ فقال الرجل : أدلك على المسجد ، ويقول السائل : إن هذا الرجل ما دخل مسجداً فى حياته قط ، فدخل معى لأول مرة ، فأسلم السائل ، واهتدى هذا الرجل ، وصلح حاله ، وماذاك إلا بالرضى والطمأنينة وحمد الله وذكره .

﴿ أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ هذه السعادة التى فى ذكر الله والطمأنينة عبّر عنها بعض الصالحين قديمًا فقال – على شظف عيشه – إننا نعيش فى سعادة لو علم بها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف ، تلك هى السعادة سعادة الروح والقلب ، من عرفها وعاشها تمتع بها ، ومن لم يعرف قيمتها من الملوك والحكّام وغيرهم لم يجد متعتها ، ولو أنهم عرفوها لقاتلوا عليها بالسيوف .

اقتران الإيمان بالعمل فى القرآن :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَئَابٍ ﴾ الذين آمنوا يثيبهم الله فى الحياة الدنيا قبل الآخرة ، فأما ثوابهم فى الدنيا فهو هذه الطمأنينة التى هى سرّ الحياة الطيبة : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل : ٩٧] ﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى ﴾ [طه : ١٢٣] وأما ثوابهم فى الآخرة فهو ما عبّرت عنه تلك الآية : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَئَابٍ ﴾ و ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ تتضمن العمل ، والقرآن يذكر العمل أحيانًا مقرونًا بالإيمان ، وأحيانًا أخرى لا يذكره ، فإذا لم يذكره فهو متضمن فى حقيقة الإيمان ، وإذا ذكره فهو يدلّ على أن الإيمان لابد معه من عمل ، كما جاء عن بعض السلف « ليس الإيمان بالتمنّى ولا بالتحلّى ، ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل » وهذا ليس حديثًا ،ولكنه من كلام بعض السلف ، وهو كلام صحيح ، فلا إيمان بغير عمل .

عمل الصالحات ما هو ؟ :

ولكن أى عمل ؟ العمل الذى يثمره الإيمان الحقّ هو ما عبّر عنه القرآن (بعمل الصالحات) وهذه كلمة قرآنية ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾

تكررت فى القرآن بضعًا وخمسين مرة ، و (الصالحات) وصف للأعمال ، فهناك أعمال فاسدات وهناك أعمال صالحات ، والصالحات هى ما يصلح به الفرد وتصلح به المجتمعات ، وتصلح بها الحياة ، يستوى فى ذلك كونْ هذه الأعمال دينية محضة ، مثل : إقامة الشعائر من الصلاة والصيام والحج والعمرة والتلاوة والذكر ، وكونها دنيوية فهى تدخل فى الصالحات أيضًا ؛ لأن عمارة الأرض من العمل الصالح ، أن يزرع المسلم الزرع ، ويغرس الغرس ،ويقيم الصنعة ، وقد قال النبى ﷺ : « ما من مسلم يزرع زرعًا أو يغرس غرسًا ، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة ، إلا كان له به صدقة » [١] وقال : « ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمـل يـده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمـل يده » [٢] فقد كان داود عليه السلام حدادًا يعمل فى صـناعة الدّروع : ﴿ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴾ [سبأ: ١٠] ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ ﴾ [الأنبياء : ٨٠] ، ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِى السَّرْدِ ، وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ [سبأ : ١١] ، كان داود يعمل ويتقن عمله ، ويذكر الله سبحانه وتعالى ، فتتجاوب معه الطبيعة من حوله : ﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾ [سبأ : ١٠] ﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ، كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [سورة ص : ١٩] .

فعمل الصالحات إذن ليس العمل الدينى فقط ، ولكن العمل الدنيوى أيضًا . وهذا مما جاء به الإسلام ، فكل ما يقدم نفعًا للناس وخدمة لهم ، ولو كان إماطة الأذى عن الطريق ، ولو كان كلمة طيبة ، ولو كانت بسمة فى وجه

---

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب الأدب (وغيره) باب رحمة الناس والبهائم عن أنس بن مالك رضى الله عنه عن النبى ﷺ ولفظه : « ما من مسلم غرس غرسًا فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له صدقة » ، ورواه مسلم فى المساقاة ص ٧ : ١٠ ، ١٢ والترمذى فى الأحكام ص ٤٠ والدارمى فى البيوع ص ٦٧ ، والإمام أحمد بن حنبل فى غير موضع من مسنده .

(٢) رواه البخارى فى صحيحه عند كتاب البيوع باب كسب الرجل وعمله بيده عن المقدام بن معد يكرب رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : « ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده » .

أخيك المسلم ، هو من الصالحات ، فإماطة الأذى عن الطريق صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وتبسمك فى وجه أخيك صدقة (١) .

وحتى العمل للمعاش إذا قصدت به وجه الله وصحّت نيّتك ، كأن تريد أن تعفّ نفسك ، وأن تغنى أهلك ، وأن تنفع مجتمعك ، وأن تقوى أمتك ، يصبح بذلك عبادة .

بل أكثر من ذلك أن بعض الأعمال الغريزية إذا عملها الإنسان وصحت فيها نيّته ، يمكن أن تكون عبادة أو عملاً صالحًا يتقرب به إلى الله عزّ وجلّ (٢) كما جاء فى الحديث الصحيح : « وفى بضع أحدكم صدقة ، قالوا يا رسول الله : أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر قال : أليس إذا وضعها في حرام كان عليه وزر ؟ فكذلك إذا وضعها فى حلال كان له أجر ، أتحتسبون الشرّ ولا تحتسبون الخير ؟! » (٣) .

ومجال الصالحات فى الإسلام مجال رحب فسيح يستطيع الإنسان أن يستكثر منه ، وأن يضيف إلى رصيده الكثير الكثير فى كل يوم وفى كل ساعة ، فهو يشمل الصلاح الدينى والصلاح الدنيوى ، والأعمال الصالحة الدينية لها شرطان :

الشرط الأول : أن يتوافر فيها الإخلاص لله عزّ وجلّ .

---

(١) إشارة إلى أحاديث كثيرة منها حديث البخارى فى المظالم والغضب باب إماطة الأذى ، عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : « يميط الأذى عن الطريق صدقة » . ومنها حديث أحمد ومسلم والبخارى فى الأدب باب طيب الكلام عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : « الكلمة الطيبة صدقة » ومنها أيضاً حديث الترمذى فى البر ص ٣٦ : « تبسّمك فى وجه أخيك لك صدقة » .

(٢) انظر : كتاب (العبادة فى الإسلام) للشيخ القرضاوى ، فصل : مجالات العبادة فى الإسلام نشر مكتبة وهبة بالقاهرة .

(٣) الحديث فى صحيح مسلم كتاب الزكاة باب بيان أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه وهو حديث طويل تتمته : « وفى بضع أحدكم صدقة . . إلى آخر الحديث » ، ورواه الإمام أحمد فى مسنده وأبو داود فى سننه كتاب التطوع ص ١٢ والأدب ص ١٦٠ .

الشرط الثانى : أن تقع على منهج الشرع ، على سنة رسول الله ﷺ ، ولذلك حينما سئل أبو علىّ الفضيل بن عياض - رحمه الله - عن قوله تعالى : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [هود : ٧ ، الملك : ٢] ، ما أحسن العمل ؟ قال : أحسن العمل أخلصه وأصوبه ، قيل : ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن الله تعالى لا يقبل العمل ما لم يكن خالصًا صوابًا ، فإذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل ، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصًا لم يقبل ، وإنما يقبل إذاكان خالصًا صوابًا ، وخلوصه أن يكون لله ، وصوابه أن يكون على السّنّة ، أى على منهج الشرع .

وكذلك الأعمال الدنيوية الصالحة يطلب فيها أمران :

الأول : أن تكون على منهج الشرع بحيث لا تكون مخالفة لأمر الله ، فلا تكون حرامًا ولا تتعدى حدود الله ، وما يتبع ذلك من غش وتطفيف واحتكار وأكل لأموال الناس بالباطل فى التجارة مثلاً وفى غيرها .

الثانى : أن تصح فيها النية ، ولو كانت النية أن يعف الإنسان نفسه عن أن يمدّ يده للغير ، وأن يساهم فى خدمة أمته ، فبهذا يصبح العمل صالحًا .

تحقيق معنى كلمة (طوبى) :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَئَابٍ ﴾ طوبى فعلى من الطيب كزلفى وحسنى ، ومعناها الحياة المستطابة ، ولذلك جاء عن ابن عباس رضى الله عنهما : طوبى بمعنى فرح وقرة عين ، وجاء عن قتادة والضحاك وعكرمة وغيرهم ألفاظ مشابهة ، فبعضهم يقول : طوبى لهم أى حسنى لهم ، وبعضهم يقول : أى خير لهم ، وبعضهم يقول : غبطة لهم . وبعضهم يقول : نعمى لهم ، وغير ذلك مما قال عنه شيخ الإسلام ابن تيمية : إنه اختلاف تنوع وليس اختلاف تضاد ، فكل مفسر يذكر نوعًا من الطيب مثل ما يقولون فى الصراط المستقيم إنه الإسلام أو القرآن أو اتباع السنة النبوية أو سنة الراشدين ، فهذا ليس اختلاف تضاد وإنما هو اختلاف تنوع .

وهناك من يقول : إن طوبى هى الجنّة أو هى من أسماء الجنة باللغة الحبشية أو هى البستان باللغة الهندية ، وهذا معناه أنها منقولة من بعض اللغات السامية

أو من بعض اللغات الآرية ، ويستدلون على أن طوبى هى الجنة ببعض الأحاديث التى وردت أن طوبى هى الجنة أو شجرة فى الجنة يسير الراكب فى ظلها مائة عام أو نحو ذلك (١) .

والذى أرجّحه أن طوبى هى فعلى من الطيب أى الحياة الطيبة المستطابة التى فيها الخير والسعادة وكل ما يشتهيه الإنسان ومنها الجنة ؛ لأن الحياة الطيبة إنما تكمل فى الجنة التى فيها « مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » (٢) ، وهذا الترجيح مع ورود بعض الأحاديث مقطوعاً عن بعض التابعين وورود بعضها موقوفًا عن ابن عباس وأبى هريرة وورود بعضها مرفوعاً (٣) ؛ لأن الأحاديث المرفوعة لا تخلو من كلام فى سندها فبعضها فيه شهر بن حوشب ،

---

(١) إشارة إلى الأحاديث التى رويت فى ذلك ومنها حديث الإمام أحمد فى المسند ج ٣ ص ٧١ ج ٤ ص ١٨٣ ، ص ١٨٤ : « وما طوبى قال : شجرة فى الجنة » ، ومنها حديث : « إن فى الجنة لشجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام .. » الذى رواه البخارى فى بدء الخلق ص ٨ ، وفى تفسير سورة الواقعة عند قوله تعالى : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ ، وفى الرقاق ص ٥١ ، ٦٠ ، ورواه مسلم فى الجنة ص ٦ : ٨ عن أبى هريرة والترمذى فى الجنة ١ ، وفى تفسير الواقعة ، وابن ماجة فى الزهد ص ٢٩ والدارمى وأحمد فى المسند .

(٢) إشارة إلى حديث أبى هريرة رضي الله عنه : « أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر واقرأوا إن شئتم : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : ١٧] الذى رواه البخارى فى غير كتاب من صحيحه مثل بدء الخلق وتفسير سورة السجدة وغيرها ، ورواه مسلم فى كتاب الإيمان ص ٣١١٢ وفى الجنة ٢ : ٥ عن أبى هريرة وعن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنهما وغير ذلك ، كما رواه الترمذى وابن ماجة والإمام أحمد فى مسنده .

(٣) الحديث المقطوع هو ما جاء عن التّابعين موقوفًا عليهم من أقوالهم أو أفعالهم وهو غير المنقطع والحديث الموقوف هو ما يروى عن الصحابة رضى الله عنهم من أقوالهم أو أفعالهم ونحوها فيوقف عليهم ولا يتجاوز به إلى رسول الله ﷺ (وهو على أنواع يرجع إليها فى مظانّها) ، والحديث المرفوع هو ما أضيف إلى رسول الله ﷺ خاصة ولا يقع مطلقه علي غير ذلك نحو الموقوف على الصحابة وغيرهم ويدخل فى المرفوع ، المتصل والمنقطع والمرسل ونحوها (وهناك تفصيل يرجع إليه فى مظانّه) ... انظر مقدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث ص٢٢ ، ٢٣ ط مكتبة المتنبى القاهرة ، وانظر كذلك التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح للإمام العراقى ط دار الفكر ص ٦٥ ، ٦٦ .

وبعضها فيه ابن لهيعة ، وبعضها فيه درّاج القصاص المعروف ، وعلى ذلك فهى غير ثابتة ثبوتًا يطمئن إليه القلب [1] ، ومن هنا فأنا أرى أن طوبى هى كلمة عربية وليست مستعارة من لغة أخرى ، وليست علمًا على الجنة أو شجرة فيها ، وهى مقابل (ويل) ، وقد استعملها العرب قبل الإسلام فى بعض أشعارهم كما استعملوا كلمة (ويل) التى ورد فى أحاديث بعض القصّاصين أنها (وادٍ فى جهنم) ولكن هذا لم يصح ، والذى ثبت فى الصحيحين : « إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام » [2] وفسر بهذا قول الله تعالى : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ [الواقعة : ٣٠] ولكن هذا شىء ، وأن تكون طوبى هى تلك الشجرة شىء آخر ..

﴿ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَئَابٍ ﴾ حسن مآب أى حسن مرجع ومنقلب فسينقلبون إلى الخير كل الخير وإلى السعادة كل السعادة ، وإذا كان بعض الناس ينتظرون شرّ منقلب كما توعّد الله الظالمين فقال : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : ٢٢٧] فإن هؤلاء منقلبهم إلى الخير ، ومآبهم إلى الله يتولاّهم برحمته ويكافئهم بمثوبته ويجزيهم بفضله ﴿ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ ﴾ [الروم : ٤٥] .

* * *

(١) ذكرهم أهل الحديث وعلماؤه فى الضعفاء فقال الإمام البخارى فى التاريخ الكبير ج ٥ ص ١٨٢ عن عبد الله بن لهيعة قاض مصر حدّثنا محمد ثنا الحميدى عن يحيى بن سعيد أنه كان لايراه شيئًا ، وكثر فى ابن لهيعة الكلام ، وأما دراج أبو السمح فوثقه ابن معين وتركه الدارقطنى وقال أحمد وغيره : أحاديثه مناكير . انظر المغنى فى الضعفاء للذهبى ج ١ ص ٣٢٤ ط إحياء التراث بدولة قطر ، وأما شهر بن حوشب فقد وثقه ابن معين وأحمد بن حنبل وقال النسائى وغيره : ليس بالقوى .. المغنى للذهبى ج ١ ص ٤٣٠ ، ٤٣١ .

(٢) سبق الكلام عنه وتخريجه فى هامش فى الصفحة السابقة ، فارجع إليه .

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ، قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ * وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى ، بَل لِلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا ، أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ، وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ * وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾[الرعد : ٣٠ : ٣٢] .

يقول الله تعالى مسليًا رسوله ﷺ عن موقف الذين كفروا وعنادهم وتعنتهم فى طلب الآيات : ﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾كهذا الإرسال البديع الأمر الغريب الشأن ، والمفسرون أحيانًا يقولون فى ﴿ كَذَلِكَ ﴾ إن فيها تشبيهًا مضمنًا ،والبعض يقول : بل يقصد بها التأكيد وتثبيت ما بعدها ، وليس من الضرورى تشبيه شيء بشيء، وأنا أميل إلى الرأى الثانى ، فكأنه يقول : الأمر كذلك ﴿ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ ﴾ ولم يقل إلى أمة لتكون الأمة وعاءً للرسالة ، وليشير إلى أن الرسول ﷺ فى هذه الأمة ومنها وليس طارئًا عليها .

القرآن وحى الله :

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ ﴾ ليست بدعًا من الأمم وليست أول الأمم ، فقد سبقتها أمم كثيرة ، وفى القرآن : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف : ٩] أى ليس أول الرسل ، فقد سبقه رسل كثيرون ، وقد أرسلناك فى هذه الأمة لمهمة ، وهى أن تتلو عليهم الذى أوحينا إليك ، أن تقرأ عليهم القرآن ، ولم يقل القرآن ولكن قال : ﴿ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ ليدل على أن هذا القرآن ليس من عند محمد ﷺ وليس لمحمد فيه إلا التلقى ،ولكن القرآن كلمات الله عزّ وجلّ التى أوحاها إلى محمد ﷺ : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء :١٩٢: ١٩٥] ، ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم : ٣ ، ٤]،ولذلك قال الله عزّ وجلّ :﴿ لِّتَتْلُوَا عَلَيْهِمُ

الَّذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ وهذا الذى أوحينا إليك هو الحق الذى لا ريب فيه ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنْ الْكتَاب هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لمَا بَيْنَ يَدَيْه ﴾ [فاطر : ٣١] هو روح يُحيى ، ونور يَهدى ، روح يحيى القلوب ، ونور يَهدى العقول ، كما قال الله تعالى فى ختام سورة الشورى : ﴿ وَكَذَلكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّن أَمْرِنَا ، مَا كُنتَ تَدْرى مَا الْكتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدى به مَنْ نَشَاءُ منْ عبَادنَا ﴾[الشورى : ٥٢] فهذا هو الذى أوحينا إليك .

والإيحاء هو الإعلام بسرعة وخفاء ، وقد يكون عن طريق الإلهام فى اليقظة وهو نفث الروع كما فى الحديث « إن روح القدس نفث فى روعى .. » [1] ، وقد يكون عن طريق الرؤيا الصادقة فى المنام ، وقد يكون عن طريق التكليم المباشر كما كلَّم الله موسى : ﴿ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْليمًا ﴾[النساء : ١٦٤] وقد يكون عن طريق نزول ملك الوحى ، والقرآن الكريم كله أوحى إلى محمد ﷺ عن طريق الروح الأمين ملك الوحى ، وهو ما يسميه العلماء الوحى الجلى ، أما باقى الأنواع السابقة فتسمى الوحى الخفى .

تلاوة آيات الله من مهمة الرسول :

وتلاوة آيات الله ووحى الله على الناس من مهمات الرسول ﷺ الأولى كما قال تعالى : ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحيَ إِلَيْكَ من كتَاب رَبِّكَ لاَ مُبَدِّلَ لكَلمَاته ، وَلَنْ تَجدَ مَنْ دُونه مُلْتَحَدًا ﴾ [الكهف : ٢٧] وكما قال : ﴿ اتْلُ مَا أُوحيَ إِلَيْكَ من الْكتَاب وَأَقم الصَّلاَةَ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] ، وقال أيضًا : ﴿ هُوَ الَّذى بَعَثَ فى الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاته وَيُزَكيهمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكتَابَ وَالْحكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا من قَبْلُ لَفى ضَلاَلٍ مُّبينٍ ﴾[الجمعة : ٢] فتلاوة الآيات وإبلاغ الناس رسالات الله المضمنّة فى هذه الكلمات ، كلمات الله الأخيرة للبشرية ، والتى

---

(١) إشارة إلى الحديث الذى رواه ابن حبان فى صحيحه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن روح القدس نفث فى روعى أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقهاوأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » وقد ذكره ابن كثير فى تفسيره ج ٤ ص ١٢١ عند تفسير الآيات الأخيرة من سورة الشورى .

فيها صلاحهم فى معاشهم وفى معادهم وتضمن لهم الحسنتين : حسنة الدنيا وحسنة الآخرة هى مهمة الرسول ﷺ،وسواء أكانت هذه التلاوة لأوامر ونواهى كما قال تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ، أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ مِّنْ إِمْلاَقٍ ... ﴾[الأنعام:١٥١] وهى الوصايا العشر فى أواخر سورة الأنعام (١) ، أو كانت تلاوة لقصص الأنبياء والصالحين السابقين ، وقصص من مضى من الناس بما فيها من عبرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ ﴾ [المائدة : ٢٧] وكما قال : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ [يونس : ٧١] وكما قال : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾[الأعراف : ١٧٥] فجميع هذا من التلاوة؛ ليعتبروا بقصص القرآن ، وليمتثلوا ما أمر الله به ، ولينتهوا عما نهى الله عنه، قال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً ﴾ [الأنعام : ١١٥] صدقًا فى الأخبار وعدلاً فى الأحكام .

كفر المشركين بالرحمن :

﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ والحال أنهم يكفرون بالرحمن ، قابلوا النعمة بالكفر ، نعمة الإرسال ، إرسال الرسول ،ونعمة الإنزال ، إنزال القرآن ، فخير منزّل هو القرآن ، وخير مرسل هو محمد عليه الصلاة والسلام ، ومع هذا كفروا بخير نبى أرسل وكفروا بخير كتاب أُنزل ، بل ، وكفروا بالمرسل والمنزل وهو الله سبحانه وتعالى ، وقد ورد اسم الرحمن فى سياق كفرهم : ﴿ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ وهذا يسميه علماء البلاغة التفاتًا ، فقد كان مقتضى السياق أن يقول : لتتلوعليهم الذى أوحينا إليك وهم يكفرون بنا ، ولكنه وضع الظاهر

---

(١) روى عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : من أراد أن ينظر إلى وصية رسول الله ﷺ التى عليها خاتمة فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿ قُلْ تَعَالَوْا .. ﴾ ، وقال ابن عباس هنّ أم الكتاب .. انظر ابن كثير التفسير ج ٢ ص ١٨٧ .

مكان المضمر ، واختار اسم الرحمن أى الذى وسعت كل شىء رحمته ، وغمرت كل مخلوق نعمته، فيكفرون به ، وبدل أن يقابلوا النعمة بالشكر قابلوها بالكفر والنكران ، وقابلوا الإحسان بالإساءة .

﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى ﴾ ماذا تصنع أمام هؤلاء الذين قابلوا نعمة الإرسال والإنزال بالجحود والكفران ؟! قل هو ربى لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ، ليتباين الموقفان ، موقف هؤلاء الكفرة ، وموقف رسول الله ﷺ ، قل هو ربى خالقى ومالكى ومتولى أمرى ، وراعى شؤونى ، ومبلغى درجات الكمال الذى يرقينى فى درجات الكمال شيئًا فشيئًا ودرجة فدرجة ، وما دام هو ربى ولا رب غيره ، فكل الأرباب من دونه زائفة ، الذين اتخذوا أربابًا من دون الله كالأنهار والجبال والشمس والقمر والكواكب والحيوانات النافعة كالبقر ، وبعض مظاهر الطبيعة ، والذين عبدوا البشر ، والذين عبدوا الحجر ، هذا كله زيف ، فليس هناك إلاَّ رب واحد ، وبالتالى فليس هناك إلا إلٰه واحد ، معبود واحد هو الله .

مقابلتهم بالتوكل على الله وحده :

وتوحيد الإلٰهية مترتب على توحيد الربوبية ، فما دام هو الرب الذى لا مالك غيره ، ولا رازق غيره ، ولا نافع ولا ضار غيره ،ولا محيى ولا مميت غيره : ﴿ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ ، وَمَن يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ ، وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ ، فَسَيَقُولُونَ اللهُ ، فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٣١] إذن فلا إلٰه غيره ولا يعبد سواه : ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ وما دام هو الرب الذى لا إلٰه إلا هو الذى ثبتت له الربوبية وحده ، والألوهية وحده ، فلا يجوز أن يتوكّل على غيره ،ولهذا فتوكّل عليه : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ . .

﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ وكلت أمرى إليه ،وجعلت اعتمادى كلّه عليه ، وعلماء البلاغة يقولون : إن تقديم شبه الجملة ﴿ عَلَيْهِ ﴾ يفيد الاختصاص أو الحصر أى عليه لا على أحد غيره ، وكيف يتوكل الإنسان على أحد غير الله ؟! أيتوكل على ضعيف مثله ؟ وفانٍ كما يفنى كل شىء ؟ وعاجز غير قادر ،

وكل الخلق ضعفاء وعاجزون ، ولذلك فلا يحسن ولا يجوز ولا يقبل ولا يتصور أن يكون التوكل إلا على الله ، وهذا هو موقف رسل الله جميعًا أمام أقوامهم حينما يتحدونهم ، فإنهم يعتصمون بالتوكل على الله كما قال نوح : ﴿ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ ﴾[يونس : ٧١] وكما قال هود : ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ،مَّا مِن دَابَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّى عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[هود : ٥٦] وكما قال شعيب : ﴿ عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾[الأعراف : ٨٩] وهكذا حكى الله عن الرسل جميعًا أنهم فى مواجهة أقوامهم المتعنتين يلجأون إلى الله ويلوذون بحماه سبحانه وتعالى .

وحين قالت الأقوام لرسلهم : ﴿ فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾[إبراهيم : ١٠] يريدون آيات وخوارق يقترحونها عليهم ، ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ*وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ، وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[إبراهيم : ١١ ، ١٢] فالتوكل هو مقام الأنبياء جميعًا ، ولهذا أمر النبى ﷺ بالتوكل على الله فى تسع آيات من القرآن الكريم : ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾[النمل: ٧٩] ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً ﴾[الأحزاب :٣ ، النساء : ٨١] ، ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَىِّ الَّذِى لاَ يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾[الفرقان : ٥٨] إلى آخر ما جاء فى القرآن (١) .

وأحيانًا يأتى التوكل بصيغة أخرى كما قال تعالى : ﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾[المزمل : ٩] أى اجعله يقوم بشؤونك ، كل أمرك إليه يدبّره كيف يشاء ، فهذا هو التوكل (٢) .

---

(١) أما بقية المواضع التسعة فهى فى (١٥٩) آل عمـران ، وفى (٦١) أنفال ، وفى (١٢٣) هود ، وفى (٢١٧) شعراء ، وفى (٤٨) أحزاب .

(٢) ننصح القارىء بقراءة كتاب (التوكل) للشيخ القرضاوى ، وهو الكتاب الثالث من سلسلة (تيسير فقه السلوك) : فى الطريق إلى الله .

المتاب إلى الله وحده :

﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ وإليه متاب أى إليه رجوعى ومرجعى إليه،سواء كان هذا الرجوع حسيًّا أى مَعَادى إليه يوم القيامة ، ومصير الخلق كلهم إلى الله سبحانه وتعالى ، أو كان هذا الرجوع معنويًّا بمعنى التوبة ، فمتاب أي توبتى ورجوعى كما قال تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾[محمد : ١٩] .

ولكن مم يتوب عليه الصلاة والسلام ؟ هـذا مقام آخـر كما قال ﷺ : « يا أيها الناس توبوا إلى الله فإنى أتوب إليه فى اليوم مائة مرة » (١) أتوب إليه وأرجع لأشعر دائمًا بأنى مقصّر فى حقه دائمًا ، وما تتطلبه نعمه علىّ مما أعتقد أننى لم أف بحقّه (٢) ، ولذلك حينما قالت له عائشة رضى الله عنها : هوّن عليك يا رسول الله فقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخّر ، قال : يا عائشة أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ (٣) .

وكلمة متاب تقوم مقام الإنابة فى بعض الآيات كما جاء على لسان سيدنا شعيب ﴿ وَمَا تَوْفِيقِى إِلاَّ بِاللَّهِ ، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[هود : ٨٨] ، والإمام ابن القيم يقول : الدّين نصفان ، التوكل نصف ،والإنابة نصف ، التوكل من باب الاستعانة ، والإنابة من باب العبادة ، والدّين كله عبادة واستعانة ،

---

(١) رواه الإمام مسلم فى صحيحه فى كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه عن الأغرّ بن يسار المزنى وكان يحدث ابن عمر عن رسول الله ﷺ وروى البخارى والترمذى وأبو داود والإمام أحمد قريبًا من حديث مسلم .

(٢) للشيخ القرضاوى كتاب فريد عن (التوبة إلى الله) هو الجزء الرابع فى سلسلة فقه السلوك – فى الطريق إلى الله . ننصح بقراءته .

(٣) رواه البخارى فى التهجد ص ٦ وفى التفسير عند سورة الفتح ومسلم فى كتاب المنافقين ص ٧٩ – ٨١ ،والترمذى وابن ماجةوالنسائي والإمام أحمد ، وفى لفظ لمسلم عن عروة ابن الزبير عن عائشة رضى الله عنهم قالت : كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تفطّر رجلاه قالت عائشة : يا رسول الله أتصنع هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال : يا عائشة أفلا أكون عبداً شكوراً .

يجمعها قول الله تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[الفاتحة : ٥]، فهذه خلاصة الدين ، التوحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة والاستعانة ، فلا تعبد ولا تستعين إلا إيَّاه ، وهذان الأمـــران : التوكل والإنابة أو التَّوبة يكمّل بعضهما بعضًا ، وهما روح الدين ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾ توكلت عليه فى كل الأمور وخصوصًا فى نُصرتى عليكم ، وإقامة حجتى ، وإعزاز دينى ، وتمكينى فى الأرض .

القرآن هو الآية العظمى :

﴿ وَلَوْ انَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ به الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ به الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ به الْمَوْتَى ﴾ يعقب على موقف هؤلاء المتعنتين المصرّين على اقتراح آيات غير القرآن ، الذين لم يقدروا قدر هذا القرآن ، ولم يدركوا سرّ هذا الكتاب العظيم ، فطلبوا آيات حسيّة مادية مثل أن يسيِّر الجبال المحيطة بمكة فيتسع الوادى ، أو أن يقطع هذه الأرض حتى تتفجر عيونًا وأنهارًا ، فالوادى غير ذى زرع ، وهم يريدون واديًا مثل الوديان والسهول التى فى الشام والعراق ومصر وغيرها ، أو أن يحيى الموتى بواسطة القرآن ، فيحيى آباءهم وخصوصًا قصى بن كلاب ، فقد كان من زعماء القوم ومن عقلائهم فيسألونه عما بعث به محمد : أحق هو ؟ وهذا ليس من شأن القرآن ولا هو من شأن محمد ﷺ : أن يحدث هذه التغييرات فى الكون ، ولكنهما – محمداً والقرآن – يحدثان تغييرات أخرى لا فى عالم المادة ، بل فى عالم النفوس والقلوب والأفكار .

فلو أن قرآنًا – كتابًا من الكتب – أحدث هذه التغييرات لكان هذا القرآن وجواب الشرط هنا : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ به .. إلخ ﴾ تقديره : لكان هذا القرآن وقرآنًا هنا بمعنى الكتاب المقروء ، فلو كان كتاب من الكتب يحدث مثل هذه التأثيرات وتصحبه مثل هذه الآيات ، لكان هذا القرآن ؛ إذ هو أعظم كتب الله ؛ ولأن فيه من الخصائص ما ليس فى كتاب آخر ، قال تعالى : ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾[الحشر : ٢١] ولكن جرت سنة الله على أن الكتب ليس لها مثل هذا التأثير .

والقرآن له تأثير غير هذا ، إنه يؤثر فى العقول ، ويؤثر فى القلوب ، ويؤثر فى الأنفس ، وينشىء الإنسان الذى يسير الجبال ، ويفجر الأرض أنهاراً ويغير

وجه الحياة وهذا ما فعله القرآن الكريم ، فقد أحدث زلزالاً فى أمة العرب ، فغير ما بأنفسها وجعل الصحابة هم خير أمة أخرجت للناس ،وجعلهم الأمة الوسط وأحيا بهم موات العقول والقلوب ، فأخرجوا الناس من الظلمات إلى النور وأنشأوا حضارة العلم والإيمان ، وأقاموا دولة العدل والإحسان ، فهذه هى مهمة القرآن ، وليست مهمته تسيير الجبال أو تقطيع الأرض ، أو إحياء الموتى .

وهناك رأى جدير بالذكر ، فالرأى الذى ذكرناه من أن تلك الأشياء التى طلبوها لو فعلت بواسطة قرآن لكان هذا القرآن ، وهذا الرأى مبنى على تعظيم شأن القرآن الكريم ، أما الرأى الآخر فيقوم على التيئيس من أمر هؤلاء الناس ، وأن هذا لو حدث وسيّرت الجبال وقطّعت الأرض وكلّم الموتى لما آمنوا ، ولما دخل قلوبهم نور الإيمان ويكون هذا مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾[الأنعام: ١١١] .

والرأى الأول هو الأرجح والأقرب ؛ لأن السورة تدورحول محور القرآن من أول آية ﴿ الْمَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ، وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ﴾ ويدور الكلام حول القرآن ، وقالوا : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ لبيان من يعلم أن ما أنزل إلى محمد من ربه الحق ليس كمن هو أعمى ، وصفات الذين يعلمون أن ما أنزل إلى الرسول ﷺ هو الحق وصفات خصومهم وأضدادهم ، فالسورة تدور حول هذا المحور ، ولذلك فالرأى الأول هو الرأى الأوجب والأقرب .

﴿ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ إضراب عن اقتراحاتهم المتعنتة أن تحدث هذه الأشياء بواسطة القرآن ، فليس الأمر بيد محمد عليه الصلاة والسلام ، ولكن الأمر كله لله كما قالت الرسل : ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [إبراهيم : ١١] وليس من شأن محمد أن يجيبكم على ما تطلبونه وتقترحونه ، ولكن هذا شأن صاحب الخلق والأمر ، إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ، وقد قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ﴾ [الإسراء : ٥٩] .

معنى (أفلم ييأس الذين آمنوا) :

﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ هنا أراد

الله سبحانه وتعالى أن يقول للمؤمنين : إن هؤلاء المعاندين لا خير فيهم ولا أمل بهم ، فهم لا يقتنعون بشيء كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ ﴾[يونس: ٩٦ ، ٩٧] لذلك يجب أن تيأسوا منهــم ، وأن تنفضوا أيديكم من إيمانهــم ، فلن يؤمنوا ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ، وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾ [البقرة :٧] .

﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء المعاندين المصّرين على الجحود والعناد، أفلم ييأسوا من إيمانهم ؛ لعلمهم أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا ، وقوله : ﴿ أَنْ لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ ﴾ متعلق بمحذوف تقديره « علمًا أن لو يشاء الله» ، وبعض المفسرين يرى أن قوله ﴿ أَنْ لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ ﴾ متعلق بآمنوا ، والتقدير ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ وهم يعلمون أن الله قد سبق قضاؤه وقدره حينما خلق هذا النوع المختار من عباده الذى لا يشبه الملائكة ، بل هو يختار لنفسه ويخط طريقه بما شاء له الله ، فقد أعطاه الإرادة والاختيار والكسب ، وهداه النجدين ، وألهم نفسه فجورها وتقواها : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾[الشمس : ٩ ، ١٠] ، وإذن فالذين يؤمنون أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا ، يعلمون أنه لن يهدىَ الناس جميعًا : ﴿ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ، وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾[الحديد : ٢٦] فمشيئته مرتبطة بحكمته ، وحكمته ارتضت أن ينوع فى خلقه ، ومن أنواع خلقه هذا النوع المريد المختار ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾[القصص : ٦٨] .

وهناك رأى للإمام أبى حيّان يقول : « أفلم ييأس الذين آمنوا » جملة منتهية ، أى ييأسوا من إيمان هؤلاء ، ويريحوا أنفسهم من الطمع فى إيمانهم ،ولا يتعبوا أنفسهم فى التطلع إلى هذا الأمر ، وقد كان هذا الأمر يتعب المؤمنين ويتعب الرسول ﷺ حتى قال الله تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾[الشعراء : ٣] تقتل نفسك من أجلهم ؟ ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[الكهف : ٦] أسفًا عليهم وحزنًا عليهم ،وقوله : ﴿ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ وقع جوابًا لقسم — ولا

يزال الرأى لأبى حيَّان - أى أقسم أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا ، وأنّ هنا دالة على قسم ، واستدل على ذلك ببعض الشعر العربى .

وهناك من يقول بأن ييأس هنا بمعنى يعلم ويتبين فيكون المعنى أفلم يعلم الذين آمنوا ويتبينوا ، وبعضهم أكد هذا وقال : إنها الحقيقة ، فييأس لغة قوم من اليمن .

وبعضهم قال : هذا مجاز ، لأن اليأس مسبب عن العلم ، فأطلق اليأس على العلم من باب المجاز ، وأنا أرى ألاّ داعى لهذه التكلفات ، وسواء قدرنا محذوفًا أم لم نقدر ، فالحقيقة أن هداية الناس بمشيئة الله عزَّ وجلّ ، وأن الله لم يشأ هداية الناس جميعًا كما قال عزّ وجلّ : ﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [النحل : ٩] ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ [السجدة : ١٣] ﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾[هود: ١١٨، ١١٩] .

إصابة الكافرين بصنع أيديهم :

﴿ وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِىَ وَعْدُ اللهِ ﴾ وكأن المؤمنين قالوا : وإذا يئسنا من إيمان هؤلاء فسيظلون يناوشوننا ويؤذوننا ويتعبوننا ، فقال الله عزّ وجلّ : ولكن قوارعى لهم بالمرصاد ولن تتركهم بسبب كفرهم وسوء أعمالهم،والباء هنا ﴿ بِمَا صَنَعُوا ﴾ للسببية ، والصنع هو العمل والكسب ، ولكن لا يقال عن العمل إنه صنع إلا إذا تمرّس عليه الإنسان وتدرّب وداوم عليه ، حتى يقال : إنه صانع أو صاحب صنعة .

وقد تحدث بعض المعاصرين ذات مرة عما يصيب الغربيين الذين يصنعون الأسلحة الفتاكة فقال : ﴿ وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ فجعل ﴿ بِمَا صَنَعُوا ﴾ تعنى الصناعة الحديثة وهذا تكلّف فى الحقيقة ، كما جعل الباء للاستعانة وليست للسببية ، ولكن المتبادر من الكلام أن الباء للسببية ومثلها فى القرآن كثير ﴿ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة : ١٤ ، والنحل : ١١٢] .

﴿ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ داهـية دهياء تنـزل بهم ، فتأخذهـم وتهلكهم أو تعذبهـم ، والقرع ضرب شىء بشىء ، وسميت الداهية الشديدة قارعة ، كأنها شىء يدقهم دقًّا والقيامة تسمى القارعة ﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾ [القارعة : ١ : ٣] ويمكن أن تكون القارعة التى تصيب الذين كفروا بما صنعوا مصيبة من المصائب كالقحط أو المجاعة أو الأمراض أو أنواع من البلاء .

﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ إذا لم تنزل بهم مباشرة تحل قريبًا من دارهم فيتطاول إليهم شررها ، وهذه عملية تهويل كأنه يقول : انظروا فالقارعة قريب منكم ،وبهذا تكون إنذاراً لهم حتى يأتى وعد الله .

﴿ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾ إما بالموت وانتهاء أجلهم ، وإما بقيام القيامة ، فيأخذوا جزاءهم ، وإما أن يكون وعد الله هو نصر الإسلام والتمكين له فى الأرض كفتح مكة ونحو ذلك فدوام الحال من المحال : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥ ، ٦] .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ لا يخلف الله وعده ، ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ [الكهف : ٩٨]، لأن الذى يعد فيخلـف إمَّا أن يكون عاجزًا عن تحقيق ما وعد ، وإمَّا أنه يجهل ما سيحدث غداً ، وإما أنه لا ينوى أن يفى من أول الأمر فهذا كله نقص ، والله سبحانه وتعالى منزه عن كل نقص فإنه لا يعجز ولا يجهل ولا يكذب ، ولا يتصور عليه أن يخلف وعده ، والميعاد أى الوعد ، وهو مفعال من الوعد والميثاق .

الله تعالى يمهل ولا يهمل :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ، فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ لست أول رسـول إذن تقترح عليه الآيات من باب الاستهزاء ، كما قيـل لبعض الرسل من قبلك : ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الأعراف : ٧٠ ، هود : ٣٢ ، الأحقاف : ٢٢] ، والتنكير فى قوله : ﴿ بِرُسُلٍ ﴾ كما يقول النحويون : للتكثير أى برسل كثير ، بل كل رسول تعرض

للاستهزاء حتى قال الله تعالى : ﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الزخرف : ٧] وقال : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ، مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [يس : ٣٠] فهم يستهزئون بالرسول وبالنبى على حد سواء ، منذ عهد نوح عليه السلام حينما كان يصنع الفلك ﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ، قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ [هود : ٣٨] ويستهزئون أيضًا بما جاء به الرسل ويقولون : هاتوا العذاب ونحو هذا ، ولذا فالله تعالى يقول : ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الانعام : ١٠] وهذا يتكرر فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع .

﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أمهلتهم ، وأعطيتهم ملاوة من الزمان ، ومنه الملوان الليل والنهار ، وهم يظنون الإمهال - أحيانًا - لونًا من الإهمال ، والله يمهل ولا يهمل،إنه يملى لهم يعطيهم مهلة ، فرصة ؛ ليراجعوا أنفسهم لعلهم يهتدون،أو يثوبون إلى رشدهم،ويعودون إلى الحق الذى نفروا منه، فتكون فرصة لاهتداء من قدّر الله هدايته،ولتقوم عليهم الحجة أكمل قيام، وينقطع عنهم كل عذر أو تعلة ،وبعد ذلك يكون الاستدراج الإلهى الذى يكون بعده الأخذ : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [القلم:٤٤، ٤٥] .

والإملاء يكون أحيانًا بأن يفسح لهم ويوسع عليهم ، كما قال الله تعالى فى شأن قوم من الأقوام : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُّبْلِسُونَ ﴾ [الانعام : ٤٤] ، وهنا يقول : ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى أمليت للذين كفروا الذين استهزأوا بالرسل ، وعلى ذلك يكون الاستهزاء بالأنبياء وبما جاءوا به كفرًا .

﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ فكيف كان أخذى ، وكيف كان عقابى ؟ والله تعالى قد حدثنا عن أخـذه لهـؤلاء حينما قال : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾[القمر: ٤١ ، ٤٢] وحينما قال : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ

أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٢] ، ومن هنا كان تعجيب الله لرسوله ﷺ « فكيف كَانَ عقاب » أى نوع هو من العقاب ، إنه عقاب أصبح حديث الأجيال يتحدث به التاريخ جيلاً بعد جيل ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [سورة ق : ٣٧] ٠

هذا هو موقف ومصير أولئك الذين لم يكفهم ما أنزل الله تبارك وتعالى من القرآن ، وأرادوا قرآنًا تسيّر به الجبال ، أو تقطّع به الأرض ، أو يكلّم به الموتى ، ولو فعل هذا بقرآن لكان هذا القرآن ٠

* * *

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ ، قُلْ سَمُّوهُمْ ، أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ ، أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ ، بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ، وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ ، وَمَا لَهُم مِّنَ الله مِنْ وَاقٍ * مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ، تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ [الرعد : ٣٣ : ٣٥] .

معركة القرآن الأولى مع الشرك :

من يقرأ القرآن الكريم يتبين له بجلاء أن معركته الأولى وقضيته الأولى هى المعركة مع الشرك ،وهى قضية التوحيد ، وهى قضية النبوات جميعها : أن يعبد الله وحده لا شريك له ، وأن تبطل عبادة أولئك المزيفين من الأرباب والآلهة المدّعَين مع الله ، أو من دون الله عزّ وجلّ ، ولم يعن القرآن بإقامة الأدلة على وجود الله عزَّ وجلَّ فوجوده فطرة مركوزة فى النفس البشرية ، والملاحدة المنكرون لوجود الله الجاحدون له قلّة لا ورن لها فى التاريخ كلّه ، وهم بمثابة الشذوذ الذى يثبت القاعدة ولا ينفيها ، والقاعدة هى الإيمان بوجود أعلى ، بروح علوية مسيطرة ، الإيمان بوجود هذه القوة فوق الأكوان وفوق قدرة الإنسان ، التي يتجه إليها الإنسان طالبًا النفع ، أو طالبًا دفع الضرّ أورفعه عنه ، وخصوصًا عند الشدائد والكربات ، فهذه هى الفطرة ، ولهذا كانت قضية القرآن وقضية الأنبياء جميعًا : الدعوة إلي توحيد الله عزّ وجلّ وإبطال الشرك ، فالقرآن عامة ، والقرآن المكّى خاصة معنى بهذه القضية .

وقد سبق فى هذه السورة مناقشة أولئك الذين يدعون من دون الله مالا يستجيب لهم بشىء : ﴿ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ، وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾ ، وسبق أيضًا مناقشتهم : من رب السموات والأرض ؟ قل الله ، إلى آخر ما سبق فى القسم الأول من هذه السورة المكية الكريمة .

ثم عاد القرآن إلى هذه القضية وعادت السورة أيضًا إلى تلك القضية الكبيرة الخطيرة ، فقد جنى الشرك وجنت الوثنية على البشرية جناية عظيمة

حيث انعكست الحقائق ، وقلبت الأمور ، فأصبح الإنسان المكرم الذى سخر الله له ما فى السموات وما فى الأرض جميعًا منه يعبد ما هو مسخر له من أشياء يفترض أنها فى خدمة الإنسان ، وهذا هو منتهى التزوير للحقيقة من ناحية ، ومنتهى الانحطاط بالإنسان من ناحية أخرى ، والقرآن يقول فى هذا : ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ * حُنَفَاءَ لله غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ، وَمَن يُشْرِكْ بِالله فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج : ٣٠ ، ٣١] فهو انحطاط من ناحية ، وقول الزّور من ناحية أخرى ، ومن هنا جاءت هذه المناقشات مع هؤلاء الناس الذين فقدوا عقولهم ، فتنزل القرآن معهم يرخى لهم العنان ، ويناقشهم فى البدهيات ، ولكن لأن الشرك يغطى على العقول ، والكفر ستر وتغطية للعقول عن الحقيقة أصلاً ، فقد بدأ يناقشهم :

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ يعجبّهم بهذا الاستفهام الإنكارى ، كيف تتصورون أن يكون الربّ العظيم ، الربّ الأعلى ﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِى أَخْرَجَ المَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴾ [الأعلى : ٢ :٥] ، القائم على كل نفس بما كسبت قيام علم ورقابة وهيمنة ، فهو قائم على كل النفوس يراقبها ، يعلم سرّها ونجواها : ﴿ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾[النحل:١٩ ، التغابن :٤]، ﴿ وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾[هود: ٦] ، هذا الإلّه الرقيب المسيطر العليم بكل شىء ، يهيمن على كل نفس بما كسبت ، ويقوم عليها بما كسبت ، ويعلم ماذا كسبت من خير أو شرّ ، من هدى أو ضلال، من طاعة أو معصية ، يعلم ذلك ويجازى عليه فى الدنيا وفى الآخرة .

فهل يقارن هذا الإلّه بآلهتكم التى أشركتموها معه ؟ ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ والخبر هنا كما يقول المفسرون : محذوف ، والمعنى أهذا كمن لا يقوم على أى نفس ولا يعلم شيئًا عنها ؟! ولا يملك ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ، ولا حياة ولا نشورًا ؟! كيف تسوّون الله بهذه الآلهة وهذه الأصنام؟!! .

وحذف الخبر له نظائر في القرآن مثل قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [الزمر : ٢٢] أى كمن ليس كذلك ؟ وقوله : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ﴾ [هود : ١٧] كمن ليس كذلك ، والخبر يحذف أحيانًا لدلالة السياق عليه كما يقول ابن مالك فى ألفيته : « وحذف ما يعلم جائز » فحذف المعلوم جائز خصوصًا فى كتاب يعتمد الإعجاز والإيجاز .

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ وكلمة كسبت هنا بمعنى عملت ، سواء كان هذا العمل مما يحبه الله ويرضاه أم كان مما يسخطه ويكرهه ، وكلمة (كسبت) فى القرآن تدل على كسب الخير أحيانًا مثل ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] أى لها ما كسبت من خير وعليها ما اكتسبت من شر، لها ما كسبت من طاعة وعليها ما اكتسبت من معصية ، والفرق بين كسبت واكتسبت : أن اكتسبت فيها نوع من المبالغة ، فمن قواعد اللغة العربية أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ،ومن ذلك جهد واجتهد فالاجتهاد أشدّ من الجهد ، وخطف واختطف وحطب واحتطب وهكذا ، ولذلك نرى أن فى الخير يجازى الإنسان عما يعمله بأدنى جهد ، وفى الشرّ لا يكتب عليه إلا ما يجتهد فيه ويعانى ، وهذا من فضل الله سبحانه وتعالى أن يكتب الأدنى فى الخير حتى بمجرد النيّة ، ولا يكتب فى الشرّ إلا ما كان فيه معاناة وتعب ، كما تدل كلمة كسبت على كسب الشرّ أحيانًا أخرى مثل ﴿ بَلَى ، مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾[البقرة : ٨١] ومثل ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ [النساء : ١١١] ، والسياق هو الذى يدل على المعنى المراد، وقد يكون الكسب للخير وللشر فيشمل الأمرين مثل ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ﴾ [البقرة : ١٣٤ ، ١٤١] ومثل ﴿ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١] ومثل : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر : ٣٨] .

الذين جعلوهم لله شركاء :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ ﴾ هذا دليل على الخبر المحذوف ، أن هذا القائم الإلَه

العظيم ، الخالق العظيم ، تشبهونه وتسوونه بهؤلاء الشركاء ؟ ﴿ تَاللهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : ٩٧ ، ٩٨] هكذا يعترفون يوم القيامة .

والشراكة تقتضى قدراً من الخلطة والمساواة ، والشريك لابد أن يساوى أو يقارب شريكه . وقد ذكروا أنواعًا من الشركات مثل : شركة العنان وهى شركة فى المال ، وإن كان المال ليس متساويًا ، ومثل : شركة الوجوه وهى الشركة بالجاه وإن لم يكن الجاهان متساويين ، ومثل : شركة الأبدان فى السعى والعمل .. وغيرها ، فهؤلاء شركاء لله فى أى شيىء ؟! فى صفاته ؟ لا يكون فهناك فرق بين الخالق والمخلوق ، وكيف يشتركون معه وهو الأول فليس قبله شيء ، وهو الآخر فليس بعده شيء،وهو الظاهر فليس فوقه شيء،وهو الباطن فليس دونه شيء،وهو الخالق البارىء المصور صاحب الصفات والأسماء والكمالات ، وأين هؤلاء الشركاء من الله سبحانه وتعالى ؟ هل هم شركاؤه فى الخلق ؟ وقد سبق فى هذه السورة : ﴿ أَمْ جَعَلُوا لله شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقه فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴾هم لم يخلقوا شيئًا : ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنَ دُون الله لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ [النحل : ٢٠]﴿ وَاتَّخَذُوا من دُونه آلهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلا يَمْلكُونَ لأَنفُسهمْ ضراًّ وَلاَ نَفْعًا وَلَا يَمْلكُونَ مَوْتًا وَلا حَيَاةً وَلا نُشُوراً ﴾[الفرقان : ٣] فمن أين جاءت الشركة ؟ وهم لا يملكون شيئًا : ﴿ وَالَّذينِ تَدْعُونَ منْ دُونه مَا يَمْلكُونَ مَنْ قطْميرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ ، وَلَوْ سَمعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ، وَيَوْمَ الْقيَامَة يَكْفُرُونَ بشرْككُمْ ، وَلا يُنَبِّئُكَ مثْلُ خَبيرٍ ﴾ [فاطر : ١٣ ، ١٤] .

فهؤلاء هم الشركاء المزعومون : ﴿ وَجَعَلُوا لله شُرَكَاءَ ، قُلْ سَمُّوهُمْ ﴾ وهذا تحدٍ لهم أن يسمّوا هؤلاء الشركاء المزعومين ، من هم وما هى أسماؤهم ؟ إنهم أحقر من أن يسمّوا ، كما يقول الإمام الرازى : كأن يقول الإنسان لمن يستحقره : من هو الذى تقول هذا ؟ سمّه لى ؟ لأبيّن زيفه ، ولأبيّن عطله وحقارته ، فهو أحقر وأتفه من أن يسمى ، فهؤلاء الشركاء ليس لهم أسماء ، ولو ذكرتم لهم أسماء ، فهى أسماء بدون مسميات ، وليس وراءها مدلول ولا

مســمًّى : ﴿ إِنْ هِىَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَّا أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ [النجم : ٢٣] .

ولله تعالى أسماء سمّاها الأسماء الحسنى : ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٠] . مثل ما ذكر في قوله تعالى : ﴿ هُوَ اللهُ الَّذِى لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللهُ الَّذِى لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلاَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ، سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ، لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ، يُسَبِّحُ لَهُ مَّا فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحشر : ٢٢ ، ٢٤] فهذه من أسماء الله الحسنى ، وإذا كانت الأسماء تعنى الصفات ، فاذكروا لنا أسماء هؤلاء أى صفاتهم ، ماذا عندهم من صفات ؟ .

﴿ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِى الأَرْضِ ﴾ تخبرونه بما لا يعلم فى الأرض ، بما لا حقيقة له ولا وجود له ، فلو كان موجودًا لعُلم ،ولعلمه الله تبارك وتعالى الذى ﴿ لاَ يَخْفَى عَلَيهِ شَىْءٌ فِى الأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاءِ ﴾ [آل عمــران : ٥] ، وما دام الله لا يعلمه فلا وجــود له ، ومعنى هذا أنكم تخبرون بشىء لا حقيقة له ، ولا وجود ، فهو من الأوهام ، وإذن فأنتم تعبدون الأوهام وتتخذون شركاء من الأوهام .

﴿ أَم بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ مجرد قول مزوّق ظاهر لا حقيقة له ، كما قال الله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾ [الأحزاب : ٤] مجرد كلام باللسان لا ينبىء عن واقع ، وهذا كما قال بعض المفسرين : تسمّى الشىء بضدّه .

معنى التزيين للكفار وصدهم عن السبيل :

ثم أضرب القرآن عن هذا كله وقال : ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ ﴾ فالأمر لا يستحق مناقشة ، وهــو أبطــل من أن يتكلم فيه مع هؤلاء الناس ، وغاية الأمر أنهم زيّن لهــم مكــرهم أى كفرهــم الذى لبّس عليهم وخدعوا عن حقيقته ، أو مكرهــم : كيدهــم للإسلام وأهــله ولدعوته ولرسوله ولمن آمن معه .

﴿ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾ زيّن لهم مكرهم فرأوا الكفر حسنًا : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ [فاطر : ٨] وهذه مشكلة كثير من الكفّار

للأسف : أنهم زيّن لهم الباطل فلم يعرفوه باطلاً : ﴿ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف : ١٠٤] وهو شأن كثير من الكفّار الذين يتشدقون بكفرهم وباطلهم ، صُرِفُوا ومُنعوا عن سبيل الله وسبيل الحق ، والسبيل هو الطريق السهل الواضح المسلوك ، ولفظة السبيل تذكّر وتؤنث قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الحجر : ٧٦] وقال : ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي .. ﴾ [يوسف : ١٠٨] ، وقوله تعالى : ﴿ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾ أى صدّوا عن الطريق الموصّل إلى الحق وإلى رضوان الله تبارك وتعالى ، فالسبيل تستعمل للطريق الحسى ، وتستعمل أيضاً للطريق المعنوى ، وإذا أطلق السبيل – كما هو معنا الآن – خصوصاً بعد الإضلال أو الصدّ كان معناه سبيل الحق ، وسبيل الله ، وسبيل الهداية الذى جاء به النبيّون ، وأنزل الله به الكتب ، وهو المنهج الذى أنزل الله تعالى به كتبه ، وبعث به رسله ، ليبيّنوا للناس العقائد السليمة ، والعبادات الصحيحة ، والأخلاق الفاضلة ، والأعمال الصالحة ، حتى يميزوا بين الصواب والخطأ فى الأفكار ، وبين الحق والباطل فى المعتقدات ، وبين الصالح والفاسد فى الأعمال . وهكذا قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب : ٤] وقال تعالى عن الإنسان : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ، إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان : ٣] فهذا السبيل هناك من هُدى إليه ، وهناك من أضل عنه وصُدّ عنه ، كما قال الله تعالى فى شأن فرعون : ﴿ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ﴾ [غافر : ٣٧] .

من المزين والصاد للمشركين : الشيطان أم النفس أم الله ؟ :

ولكن من المزُيّن ومن الصّادّ؟ ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾ فمن الذى زيّن لهم هذا المكر ؟ ومن الذى صدهم عن السبيل ؟ ذكر القرآن الكريم فى آيات أخرى أن الذى زيّن لهم كفرهم وضلالهم وصدّهم عن السبيل أو الصراط المستقيم هو الشيطان كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴾ [الزخرف : ٣٦ ، ٣٧] ، أى هؤلاء الشياطين الذين أصبحوا قرناء للذين عشوا عن ذكر الله يصدّونهم عن السبيل : وكذلك قال

تعالى : ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ، وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ [فصلت : ٢٥] فهؤلاء الشياطين من الجنّ والإنس ، وكلاهما يزيّن السوء ويصدّ عن السبيل ، وقال تعالى : ﴿ وَعَادًا وَثَمُودَا وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴾ [العنكبوت : ٣٨] وعلى لسان الهدهد فى سورة النمل قال : ﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ ، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ [النمل : ٢٤] فالمزيّن إذن للباطل والصادّ عن سبيل الله هو الشيطان .

وقد أجمل القرآن مهمة الشيطان فى أمرين أساسيين : التزين ، والإغواء ﴿ لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [الحجر : ٣٩] فمهمته أن يزيّن ويغوى .

وقد يذكر القرآن فى بعض الأحيان التزيين منسوبًا إلى الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [النمل : ٤] وهذا بالنظر إلى أن الأسباب كلّها ترجع فى النهاية إلى مسببها ، وهو الله تبارك وتعالى ، وعلى ذلك يجوز نسبة الأمور كلّها إلى الله تعالى من هذه الزاوية .

والنفس أحيانًا تزيّن للإنسان أيضًا : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [المائدة : ٣٠] وتسوّل له : ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ، فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ [يوسف : ١٨] ، وهذا السامرى يقول : ﴿ وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ [طه : ٩٦] فالنفس تزيّن وتطّوع وتسوّل ،وكذا يفعل الشيطان من الجنّ والإنس ، ويمكن أن ينسب هذا فى النهاية إلى الله سبحانه وتعالى ، على معنى أنه هو الذى وضع هذه السنن ، وسبّب هذه الأسباب ، وخلق هذا الكون بمن فيه وما فيه ،وربط هذه الشبكة بعضها ببعض .

ما المقصود بـ (السبيل) ؟ :

وأيضًا إذا أطلق السبيل هكذا ﴿ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾ فكأنه لا سبيل غيره وما عداه ليس طريقًا ؛ لأنه لا يوصل ، وإذا وصّل فسوف يوصل إلى جهنم

﴿ إلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء : ١٦٩] والسبيل قد يعرف بالألف واللام ، فإذا اعتبرناها للعهد كان المعنى السبيل المعهود ، وإذا اعتبرناها للجنس فكأن هذا هو جنس السبيل ، وقد يعرف بالإضافة إلى لفظ الجلالة : الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ [الأنفال : ٤٧ ، التوبة : ٣٤ ، الحج : ٢٥] ﴿ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ [الأنعام: ١١٦] باعتبار أن غاية هذه السبيل أن توصل إلى الله وإلى رضوانه ، ولأن واضع هذه السبيل وشارعها هو الله أيضًا ، فهى تنسب إلى شارعها مثل الصراط : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ﴾ [الشورى : ٥٢ ، ٥٣] وقد يضاف السبيل إلى الداعى إليه وهو رسول الله ﷺ : ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِى أَدْعُو إِلَى اللهِ ، عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِى ﴾ [يوسف : ١٠٨] فهو سبيل محمد ﷺ وطريقه الذى يدعو إليه كما فى الصراط أيضًا : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] .

وقد ينسب السبيل إلى سالكيه من المؤمنين : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّه مَا تَوَلَّى ﴾ [النساء : ١١٥] ويقابلها سبيل للمجرمين ﴿ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام : ٥٥] وسبيل المفسدين كما قال موسى لأخيه هارون ﴿ اخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [الأعراف : ١٤٢] فسبيل المؤمنين يقابلها سبيل المجرمين ، وسبيل المفسدين ، وسبيل المؤمنين هى سبيل من أناب إلى الله ﴿ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ﴾ [لقمان : ١٥] وهى سبيل رسول الله ﷺ ،وهى سبيل الله ، وهى السبيل بإطلاق ، وكذلك فى الصراط أيضًا ينسب إلى سالكيه : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ [الفاتحة : ٦ ، ٧] .

﴿ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ من أضلّه الله وصدّه وأعماه وخلّى بينه وبين نفسه ، وولاه ما تولى ، وتركه سادرًا فى ضلاله بعد أن أقام عليه الحجة ، ووضح له المحجة ، وأنزل عليه الكتاب ، وبعث له الرسول ، وأقام من الأدلة ما يقطع معه كل تعلّة ، فلا هادى له ، ليس له هاد يهديه : ﴿ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ

بَعْد الله ﴾ ، ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ الله ﴾ [الجاثية : ٢٣] ، لا أحد يهديه ، وكما قال الله عز وجل : ﴿ مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف : ١٧] .

الفرق بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة :

﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ ﴾ هؤلاء الذين جعلوا لله شركاء لم يخلقوا كخلقه ،وليس لهم ذرة فى ملكه ، فليس لله تعالى شريك فى الملك ، هؤلاء الذين كفروا بالله وأشركوا به ما لم ينزل به سلطانًا ، وزُيّن لهم مكرهم وباطلهم، وساروا فى هذا الطريق الأعوج ، لهم عذاب فى الحياة الدنيا بما كسبت أيديهم ، فإن الله سبحانه وتعالى يعجل بعض العذاب فى الدنيا لأهل الكفر والضلال تذكيرًا لهم عسى أن يرجعوا إلى الله ، كما قال تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] ، فهو ينزل بهم بعض الآلام والمصائب فى أنفسهم وفى أهليهم وفيمن يحبون ، وقد يكون ذلك بالمجاعات ، كما قال الله فى شأن بعض الأقوام : ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢] ، وقد يكون بالقوارع تنزل بهم ، أو تحل قريبًا من دارهم كما مرّ بنا فى الآيات السابقة من السورة ﴿ وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ ﴾ فالله ينبههم ويذكرهم بهذه القوارع وهذه المصائب تتوالى عليهم، عسى أن يستيقظ النائم ، ويتنبه الغافل ، ويتذكّر النّاسى ، ويتوب العاصى ، ويهتدى الضال .

وقد بينت الآية الكريمة أن لهم عذابين : فى الحياة الدنيا وفى الآخرة : وعذاب الحياة الدنيا يكون على قدر ضلالهم وأعمالهم ، وليت الأمر ينتهى عند عذاب الدنيا ، ولكنّ هناك عذابًا فى الآخرة ينتظرهم ، ادخره الله لهم ، وهو أشدّ وأخزى ، وأشق وأصعب ، وأكثر إيلامًا وإيجاعًا من عذاب هذه الدنيا ؛ لأن

عذاب الدنيا لا يدوم ، فمهما طال أمده فسوف ينتهى ، وهو محدود من ناحية نوعه على قدر الدنيا ، ولكنّ عذاب الآخرة أشدّ من حيث الكم ، وأخزى من حيث الكيف ، قال رسول الله ﷺ : « ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار الآخرة » ، قالوا : يا رسول الله إن كانت هذه لكافية ، قال : فإن نار الآخرة أشدّ منها بسبعين درجة » (1) .

وعذاب الآخرة أخزى ، لأنه لا يشمل الجسم فقط ولكن يشمل النفس أيضًا ، فهو عذاب مادى ومعنوى ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ﴾ [آل عمران : ١٩٢] .

ومن ناحية أخرى فإن عذاب الآخرة عذاب دائم ملازم ولذلك كان من أدعية عباد الرحمن : ﴿ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ ، إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٥] ملازمًا دائمًا ، وهذه مصيبة كبرى ، فهو ليس يومًا ولا يومين وليس سنة ولا سنتين : ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [الحج : ٤٧] إنه أبد الآبدين ودهر الداهرين ، ولذا قال : ﴿ وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَقُّ ﴾ .

﴿ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ ليس لهم من يقيهم أو يحميهم من عذاب الله عزّ وجلّ ، وإذا كانوا يتصورون أن آلهتهم المزعومة تمنعهم من الله عز وجل ، فقد خدعوا أنفسهم ، فهذه الآلهة لا تملك شيئًا ولا تشفع لهم ﴿ مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] والشفاعة عنده لا تكون إلا لمن ارتضى أى لأهل التوحيد ، وإذن فاتكالهم على هذه الآلهة اتكال باطل : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ * لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴾ [يس : ٧٤ ، ٧٥]، ﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا *

---

(1) رواه البخارى فى صحيحه فى باب كتاب بدء الخلق صفة النار وأنها مخلوقة ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ناركم جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم قيل يا رسول الله : إن كانت لكافية قال : فضلت عليهن بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرّها ، ورواه الترمذى أيضًا فى كتاب جهنم ص ٧ ، وابن ماجة فى الزهد ص ٣٨ والدارمى فى الرقاق ص ١٢٠ ومالك فى الموطأ فى جهنم ص ١ .

كَلاَّ ، سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾[مريم : ٨١ ، ٨٢] ولن يشفع لهم الكبراء والسادة الذين مشوا فى ركابهم ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ، كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ، وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾[البقرة:١٦٦ ،١٦٧]ولن تنفعهم أموالهم ولا أولادهم كما حكى الله عنهم :﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾[سبأ:٣٥] وكذبوا فالله تعالى يقول : ﴿ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلاَ أَوْلادُكُمْ ، يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [الممتحنة:٣] ﴿ يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨ ، ٨٩] ، ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ ولاَ أَوْلادُكُم بِالَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾[سبأ : ٣٧] ٠

لا قيمة لأموال ولا لأولاد ، ولا تنفع أصحابها يوم القيامة ، وإذن فليس لهم من دون الله من واق ٠

ثم بعد أن ذكر القرآن هذه الصفحة المعتمة، ذكر الصفحة الأخرى لأهل الإيمان والتقوى قال : ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ، تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ،وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ ٠

﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ ﴾ المثل يراد به التشبيه كما يقول عزّ وجلّ : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ﴾[البقرة : ٢٦١] وكما يقول : ﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ ﴾[البقرة:٢٦٥] وفى الحديث : « مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كرجل بنى بيتاً ٠٠ إلخ »(١) ، وأحيانا يراد بكلمة المثل تلك الجملة الغريبة السائرة من الأمثال بين الناس ، وقد ألّفت فى ذلك كتب ، وأحيانًا أخرى تطلق كلمة المثل ويراد بها الصفة الغريبة، فهومعنى مجازى ، فالمثل لغرابته يضرب للناس ٠

---

(١) إشارة إلى الأحاديث الكثيرة التى تحمل نفس المقدمة ورواها البخارى فى المناقب ومسلم فى الفضائل والإمام أحمد فى المسند ج ٢ والترمذى فى الأدب وفى المناقب ، وفى لفظ للبخارى فى باب خاتم النبيين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه ٠٠ إلخ » ٠

وهنا : ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ أى الصفة العجيبة لهذه الجنة التى وعدها الله المتقـــين : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم : ٦٣] ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّنْ رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ ، أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] والمتّقون هم الذين اتّقوا الشرك وآمنوا بالله وتنزهوا عن اتخاذ شركاء مع الله سبحانه وتعالى ، ودخلوا فى التوحيد ، وهم أيضًا الذين اتّقوا المعاصى ، ﴿ الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ هذه من المصطلحات القرآنية أيضًا كما ذكرنا عن الذين آمنوا ، وعن الذين كفروا ، والذين اتّقوا هم أهل التقوى الذين اتّقوا الشرك ، واتّقُوا ما يجلبه الشرك وما يثمره من الفسوق والعصيان والظلم ، والبغى بغير الحق ، إلى آخر ما يثمره .

فهؤلاء هم المتّقون الذين اتقوا وجعلوا بينهم وبين الكفر والمعاصى وقاية ، فهم متّقون حذرون ؛ لأن التقوى نوع من الاجتناب مع الحذر ، فيقال : اتّقى الشىء أى اجتنبه مع حذر كما سأل سيدُنا عمر أبىّ بن كعب رضى الله عنهما عن التقوى فقال : أما سرت فى طريق ذى شوك ؟ قال : بلى ، قال أبىّ : فماذا صنعت ؟ قال عمر : تشمرت وحذرت ، قال أبىّ : فذلك هو التقوى ، تشمر وحذر .

والتقوى لا تعنى أن المتّقين لا يقعون فى معصية أو مخالفة قط ، فليسوا ملائكة ، ويمكن أن يغرهم الشيطان ويوسوس لهم ، ولكنهم سرعان ما يرجعون كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾[الأعراف : ٢٠١] ، ولو فرض أن قدم التقىّ زلّت ووقع فى المعصية ، فإنه لا يستمر ، إذ سرعان ما يستيقظ ضميره المؤمن ، فيرجع إلى الله يقرع بابه بالتوبة والاستغفار ، ولذلك حينما قال الله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[آل عمران : ١٣٣] أتبع ذلك بوصف دقيق للمتّقين فقال : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤ ، ١٣٥] وواضح

أنهم فى هذا الوصف يمكن أن يفعلوا الفاحشة أو يظلموا أنفسهم ، ولكنهم إذا فعلوا ذلك ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ولم يصرّوا على ما فعلوا ، فليس من شأنهم الإصرار ولذا استحقوا أن يعدّ الله لهم الجنة .

﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ بعض المفسرين يقول : إن الخبر هنا محذوف والتقدير ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ أى فيما يتلى عليكم وهم يفهم من السياق ، وبعضهم يقول : إن جملة ﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ هى الخبر وتقدّر « أن » قبلها فيكون السياق ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِى . . أَنَ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ﴾ وهذا كما فى المثل العربى « تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » أى « أن تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » ، فصفة الجنة أن تجرى من تحتها الأنهار .

والقرآن كتاب عربى ، والماء عند العرب له أهمية ، ولا معنى للحياة ولا لذة لها إذا لم يكن الماء موجوداً وبكثرة ،ولذلك جاءت صفة الجنة أن الأنهار تجرى من تحتها وفى سورة الرحمن جاء فى وصف الجنتين : ﴿ فيهِمَا عَيْنَان تَجْرِيَان ﴾ [الرحمن : ٥٠] وجاء أيضاً : ﴿ فِيهِمَا عَيْنَان نَضَّاخَتَانَ ﴾ [الرحمن : ٦٦] ، والظل كذلك من الأشياء المهمة ولهذا نقرأ فى القرآن : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فى ظِلاَلٍ وَعُيُونٍ ﴾ [المرسلات : ٤١] ، ومعنا : ﴿ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ فالرى فيها متوفر ،وكذلك الظل فيها ظليل ، وليست مهمة الأنهار الرى فقط ،ولكن مشهدها والماء يجرى فيها يثلج الصدور ويشرح النفوس ، والشاعر يقول :

ثلاثة فى الناس يذهبن الحَزَن الماء والخضرة والوجه الحسن

والناس يحاولون الآن إنشاء برك صناعية لما للماء ومشهده من روعة وتأثير ، فكيف إذا كانت أنهاراً تجرى وليست نهراً واحداً ؟ .

﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ﴾ الأُكُل : ما يؤكل فى الجنة من الطعام ، وخصوصاً الفاكهة : ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لا مَقْطُوعَةٍ وَلاَ مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة : ٣٢ ، ٣٣] والفواكه لها مواسم ، فهل تكون كذلك فى الجنة ؟ لا . . بل كل صنف وكل

نوع وكل شيء رهن الإشارة والطلب ، وثمار الجنة دانية لا تتطلب جهداً ، بل تصل حالما يشتهيها الإنسان ، وهذا أسبق من تكنولوجيا العصر التى تجعل الأبواب تفتح لمجرد الاقتراب منها أو الماء ينزل من صنابيره بمجرد مدّ اليد ، ففى الجنة بمجرد الخاطر يأتى الشيء قريبًا دانيًا مذللاً ، ويبقى عمل التكنولوجيا والتطور العصرى فى تقريب ما يمكن أن يحدث فى الجنة إلى الأذهان ، وليس لثمار الجنة مواسم فإنها دائمة ، وفى الجنة ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، وفى البخارى « أن رجلاً فى الجنة قال : يا رب أريد أن أزرع فقال الله : وما حاجتك إلى الزرع ؟ فقال يا رب : أريد أن أزرع ، فجاءته آلات الزراعة وما يحتاج إليه فيها فزرع وأثمر وحصد فى مدة قصيرة فقال الله عز وجل : دونك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شيء (١) وكان أحد الأعراب جالسًا عندما قصّ النبى ﷺ هذه القصّة عن أهل الجنة فقال الأعرابى : يا رسول الله إن هذا لا تجده إلا مهاجريًّا أو أنصاريًّا فإنهم أهل زرع أما نحن فلسنا أهل زرع .

﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ﴾ وظلّ الجنة ظلّ دائم لا يتقلص ، والظلّ يراد به ما ينتج عن أشعة الشمس ، ويراد به ما هو أعم من هذا ، وقد قالوا : إن الفيء مترتب على الشمس ، وليس من الضرورى أن يترتب الظلّ على الشمس ، بل يمكن أن يقال : ظلّ الليل ، وفى الجنة : ﴿ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلاَ زَمْهَرِيرًا ﴾ [الإنسان : ١٣] فالقرآن يريد أن يُطمئن أهل الجنة خصوصًا فى البلاد الحارة أنهم لن يتعرضوا للضّحّ أو للضحْو،وهو إصابة حر الشمس قال تعالى لآدم : ﴿ وَأَنَّكَ لاَ تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى ﴾ [طه : ١١٩] أى لا تتعرض للشمس المحرقة اللاذعة ، فهناك ظلّ ظليل : ﴿ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾ [النساء : ٥٧] أى ظِلاًّ ثقيلاً ممدودًا : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ [الواقعة : ٣٠] متسع منبسط ممتد ، وقد جاء فى الحديث

---

(١) الحديث فى البخارى فى التوحيد باب كلام الرب مع أهل الجنة ، وفى الحرث أيضًا عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة رضى الله عنه ، وأول الحديث : « أن النبى ﷺ كان يحدّث وعنده رجل من أهل البادية أن رجلاً من أهل الجنة استأذن ربه فى الزرع . . » وآخره « فأما نحن فلسنا بأصحاب زرع فضحك رسول الله » .

الصحيح : إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلّها مائة عام ، اقرأوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ (١) ، فظّل الجنة إذن ظلّ دائم وظلّ ممدود وظلّ ظليل .

فهذه هى الجنة التى وعد المتقون أكلها دائم وظلّها ليس كالظل الذى عند الآخرين فى جهنم ، إنما سمّى الظلّ فى جهنم ظلاً من باب التهكّم ﴿ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ * لاَّ بَارِدٍ وَلاَ كَرِيمٍ ﴾ [الواقعة : ٤٣ ، ٤٤] ، ﴿ انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِى ثَلاَثِ شُعَبٍ * لاَّ ظَلِيلٍ وَلاَ يُغْنِى مِنَ اللَّهَبِ ﴾ [المرسلات : ٣٠ ، ٣١] لا يمكن أن يكون هذا ظلاً ، وإنما هذا من التهكم ، وأين هذا من الظلّ البارد الكريم الدائم الظليل الممدود فى الجنة ؟! .

﴿ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ الجنة التى تقدم الكلام عنها هى مآل الذين اتقّوا الله ومصيرهم ومنتهى أمرهم ، أما الآخرون فمآلهم ومنتهاهم النار ، فهل يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ؟ ﴿ لاَ يَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [الحشر : ٢٠] هيهات أن يستويان ﴿ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا ، وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾ وبئس المصير للكافرين وبئس المهاد وبئس القرار جهنم أعاذنا الله منها .

* * *

---

(١) سبق تخريج الحديث والكلام عنه .

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ ، وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ، قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلاَ أُشْرِكَ بِهِ ، إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ * وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ، وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ، مَالَكَ مِنَ اللهِ من وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ، لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ * يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ، وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ * وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد : ٣٦ - ٤٠] .

من هم الذين آتاهم الله الكتاب ؟ :

تتحدث السورة هنا عن موقف الذين آتاهم الله الكتاب من القرآن الكريم ، وقد سبق الكلام فى مقدمة التفسير : أن المهم لمن أراد أن يفقه القرآن ويفهم عنه فهمًا جيدًا : أن يستقرىء مواضع الجمل والألفاظ فى القرآن الكريم، وأن يستقرئ مواضع السياق والسباق ؛ ليستعين بذلك على فهم النص فهمًا حسنًا .

المراد بـ (الكتاب) ؟ :

وقد ذكرنا أن كلمة الكتاب فى القرآن ترد بمعانى عديدة منها - إذا أطلقت كلمة الكتاب - التوراة والإنجيل ، وقد يراد بالكتاب القرآن ، وقد يراد به اللوح المحفوظ الذى تكتب فيه مقادير الخلق ، وفى هذه الآية ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ ينصرف الذهن ويتبادر إليه أن المراد بالذين آتيناهم الكتاب هنا هم أهل التوراة والإنجيل ، وإن كان من المفسرين من قال : إن المراد بهم أهل القرآن فمعنى ﴿ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ أى القرآن ، وإنما لم يقل : « آتيناهم القرآن » لأسباب بلاغية ، وهذا وارد،ولكن الذى يتبادر إلى الذهن من هذه العبارة ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ حيثما ذكرت فى القرآن الكريم أنهم هم الذين آتاهم الله التوراة أو الإنجيل من اليهود ومن النصارى .

ولعل من قال : إن المراد بالكتاب هو القرآن إنما قال ذلك لما رجحه كثير من أهل التفسير وعلوم القرآن من أن هذه السّورة مكية ، فكيف يراد بالكتاب - فى

مكة – التوراة والإنجيل ؟! ويؤكد هذا : آيات كثيرة من السور المكية ، ذكّرت أهل الكتاب وذكرت الذين آتاهم الله الكتاب، كما فى سورة الأنعام : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾[البقرة :١٤٦] ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ، فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ [الأنعام : ١١٤] ، وفى سورة القصص وفى سورة العنكبوت وغيرها ذكر الله الذين آتاهم الكتاب ، وذكر الرجوع إلى أهل الكتاب : ﴿ فَاسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ﴾[يونس : ٩٤] فالحديث عن أهل الكتاب شائع فى القرآن المكىّ ، وقد كان فى مكة أهل كتاب ، فلا عجب أن يتحدث عنهم القرآن .

وجاء عن بعض المفسرين أن المراد بالذين آتاهم الله الكتاب : هم الذين آمنوا منهم مثل : عبد الله بن سلام وأصحابه من بنى إسرائيل . ومثل : الذين أسلموا من النصارى وقيل : إنهم نحو ثمانين ، أربعون منهم من وفد نجران ، وثمانية من غيرهم ، واثنان وثلاثون من الحبشة ، وهذا على التسليم بأن السورة مدنية أو لعل هذه الآيات من السورة مدنية ، وهذا ليس بمستغرب : أن توجد آيات مدنية ضمن سورة مكية ، وتكون السورة مكية بحسب الغالب فيها ، وإن كنت أرجح أن السورة كلها مكية .

وعلى كل حال فعبارة ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ وردت بيقين فى السور المكية .. ومن استقرأ هذه العبارة فى القرآن يجد أنها عبارة مدح وثناء لهؤلاء كما فى قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ، فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [العنكبوت : ٤٧] ، وقوله : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [البقرة : ١٢١] ، وقوله ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [الأنعام : ١١٤] ، وقوله : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنَ رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنَ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُوْلَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ [القصص : ٥٢ : ٥٤] ، وأيضاً كما قال ابن القيم : فقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُم

لِيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٤٦] هو من المدح أيضًا ، لأن الذين يكتمون الحق فريق منهم ، وإذن فقوله : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ يدل على المدح والثناء والتنويه بأهله .

وهذا على خلاف تعبير آخر يدل على الذّم وهو قوله : ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ ﴾ [آل عمران : ٢٣ ، النساء : ٤٤ ، ٥١] قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ [النساء : ٥١] ، وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴾ [النساء : ٤٤] ، وقال : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٣] فهذا يدل على الذمّ ؛ لأنهم أوتوا نصيبًا من الكتاب وضيعوا نصيبًا آخر ﴿ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ [المائدة : ١٣] .

وهناك عبارتان تحتمل كلّ منهما المدح والذم ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ ، و ﴿ أَهْلِ الْكِتَابِ ﴾ كما في قوله تعالى في مقام المدح : ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ [آل عمران : ١١٣] وقوله : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٩٩] وقوله في مقام الذم : ﴿ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ٧١] وقوله : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ [آل عمران : ٧٠] فهذه التعبيرات منها ما يحتمل المدح ومنها ما يحتمل الذم ، وكذلك ما ورد من تعبير : ﴿ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ كما في قوله تعالى : ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ﴾ [البقرة : ١٠١] وقوله : ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ [البقرة : ١٤٤] وقوله : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ ﴾ [النساء : ١٣١] فهذه التعبيرات مما يحتمل المدح والذمّ ، والسياق هو الذى يحدد المعنى المراد .

وإذن فقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ تعنى المدح حيثما وردت فى القرآن الكريم ؛وذلك لأن عندهم شيئًا من العلم ، فحينما نظروا فى القرآن

المنزل على محمد ﷺ ، وجدوا فيه من الآيات الدالة على صدقه ، وأنه منزل من عند الله عزّ وجلّ ، فلذلك فرحوا بهذا الكتاب ، وخصوصًا أنه يصدّق ما بين يديه من الكتب الأخرى ، ولأنه جاء بالأصول التى جاءت بها النبوّات : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [الشورى : ١٣] .

المراد بالأحزاب هنا :

﴿ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ وهناك بعض الأحزاب ممن ينكر بعض ما أنزل إلى محمد ﷺ من القرآن ، وهم إما من أهل الشرك من الوثنيين ، وهذا شائع أيضًا فى القرآن الكريم ، وكلمة الأحزاب بهذا الجمع والتعريف تذكر في القرآن فى موضع الذّم ﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الأَحْزَابِ ﴾[سورة ص:١١] ، ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ [غافر : ٥] ، ﴿ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْئَيْكَةِ أُوْلَئِكَ الأَحْزَابُ ﴾ [سورة ص : ١٣] ، ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ ﴾[هود : ١٧] ،وإما أن يراد بالأحزاب أهل الكتاب : ﴿ فَاخْتَلَفَ الأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ، فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [مريم : ٣٧] والحديث هنا عن عيسى عليه السلام ، والغالب أن يكون تحزبهم على الكفر والضلال سواء كانوا من المشركين أم من أهل الكتاب وفرقهم الضالة، وهناك فرق ضالة كثيرة من اليهود والنصارى ، كما أن هناك طوائف ضالة من المشركين .

أخذ بعض القرآن دون بعض :

وأى بعض من القرآن أنكره الأحزاب ؟ ، لم يحدد القرآن هذا ،والمهم أنهم ذُمُّوا ؛ لأنهم لم يأخذوا هذا القرآن جملة ، وهو كلٌّ لا يتجزأ ، ولا يجوز أن يؤخذ بعضه ويترك بعضه ، وقد حذّر الله رسوله ﷺ منهم فقال : ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة : ٤٩] فلا يجوز إذن تجزئة هذا الكتاب ، ولا يجوز أن يقطّع لحمًا على وضم ، فتؤخذ العقائد وتترك الأخلاق ، أو تؤخذ العبادات وتترك المعاملات ، وتؤخذ ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾[البقرة:١٨٣] ولا تؤخذ ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ ﴾ [البقرة : ٢١٦] أو لا تؤخذ : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِى

الْقَتْلَى ﴾ [البقرة : ١٧٨] ، بل لابد أن يؤخذ كله ، وإلا كنا كبنى إسرائيل الذين وبخهم الله تعالى وقرعهم أشد التقريع حينما قال لهم : ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ، فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [البقرة : ٨٥] وهم أيضًا – اليهود – الذين أرادوا أن يدخلوا فى الإسلام وأن يستبقوا تعظيم يوم السبت من شرائعهم القديمة ، فأبى الرسول ﷺ عليهم وأبى القرآن عليهم ، ونزل قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِى السِّلْمِ كَافَّةً ﴾ [البقرة : ٢٠٨] أى ادخلوا فى شرائع الإسلام كافة فالمراد بالسلم هنا الإسلام ٠

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلاَ أُشْرِكَ بِهِ ، إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآب ﴾ لماذا تترددون فى قبول الإسلام كله ؟ ولماذا تريدون أن تقبلوا بعضًا وترفضوا بعضًا ؟ وإنما أمرت بما أمر به النبيُّون والرسل جميعًا أن أعبد الله ولا أشرك به ، فقد جئنا وأمرنا بالتوحيد الذى أنزل الله تعالى به جميع كتبه وبعث به جميع رسله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُون ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ، ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] ،وقوله : ﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ ﴾ يدل على أنه عليه الصلاة والسلام عبد مأمور ، وأن هذا القرآن أتاه من جهة أعلى منه، وأنه ليس من كلامه بل هو من كلام ربه يُلقنه ويلقّاه ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴾[النمل: ٦] ٠

﴿ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآب ﴾ لا أدعو إلى نفسى ولا أدعو إلى عبادة بشر ولا إلى عبادة حجر ، وتقديم (إليه) كما سبق أن قلنا : إن علماء البلاغة قالوا : إنه يفيد الاختصاص والقصر أى إليه لا إلى أحد غيره ، إنما أدعو إلى الله ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت : ٣٣] ، وأدعو إلى سبيله وإلى دينه وإلى شرعه ٠

﴿ وَإِلَيْهِ مَآب ﴾ إليه مرجعى ومصيرى لا إلى غيره ،ولا يتحكم فى مصيرى ومآبى أحد إلا الله ، فالرجوع سوف يكون إلى الله ، فهو الملك وحده ، والحاكم وحده ﴿ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ، وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلهِ ﴾ [الانفطار:١٩] ، ﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، لِلهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [غافر : ١٦] ،

وتتضح هنا ﴿ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَئَابِ ﴾ القضيتان الأساسيتان ، قضية المبدأ وقضية المصير ، فالمبدأ من الله والمصير إلى الله عزّ وجلّ ، وأهم عقيدتين فى عقائد الديانات السماوية هما عقيدة التوحيد وعقيدة الجزاء .

﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ الضمير في أنزلناه يرجع إلى القرآن الكريم،والخطاب لرسول الله ﷺ ،وكلمة الحكم﴿ حُكْمًا ﴾تعنى القضاء والفصل أى قضاء وفصلاً ، أو تعنى الحكمة ، وهى ترد فى القرآن بالمعنيين : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ، وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة : ٥٠] بمعنى القضاء والفصل ، وترد بمعنى الحكمة : ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ ﴾[آل عمران : ٧٩] ، ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾ [القصص : ١٤] فالحكم هنا بمعنى الحكمة،والقرآن يشتمل على الأمرين على الحكم بمعنى القضاء الفاصل بين الناس والتشريع الحاكم والأوامر الحاكمة ، ويشتمل على الحكمة أيضًا،فإذا قلنا فى قوله :﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ : إن (الحكم) بمعنى الأمر والتشريع ، أو بمعنى الحكمة الهادية للناس التى تضع كل شىء فى موضعه ، فالمعنى صحيح على الوجهين ؛ لأنه كتاب يحكم : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾[النساء:١٠٥]؛ ولأنه كتاب حكيم أيضًا ومنزل من حكيم : ﴿ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴾[آل عمران:٥٨]،﴿ الر ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾[يونس : ١] .

عربية القرآن وحكم ترجمته إلى اللغات الأخرى :

وقوله : ﴿ عَرَبِيًّا ﴾ أى مترجما بلسان العرب ، وكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يشرف هذا اللسان بأن ينزل به خير كتبه ، وآخر كلماته الهادية للبشر ، فأنزل القرآن الكريم بهذه اللغة الشريفة التى شرفها القرآن تكريمًا للرسول ﷺ وتكريمًا لهذه الأمة كما قال عزّ وجلّ : ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٤] ، وكما قال أيضًا : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ [الأنبياء : ١٠] أى فيه شرفكم وفخركم وتذكرون به بين الأمم ، وأيضًا فقد أنزله الله بلسان عربى مبين ؛ لكى يفهمه الرسول ﷺ ولكى يفهمه قومه ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾ [إبراهيم : ٤] ، ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ

بلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [الدخان : ٥٨] ، ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء : ١٩٣ : ١٩٥] .

ومن هنا كانت عربية القرآن أمرًا مؤكدًا ،وقد جاء فى عدد من السور تأكيد هذا الأمر : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف : ٢] ، ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الزخرف : ٣] ، ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر : ٢٨] ، ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [فصلت : ٣ ، ٤] إلى آخر ما ورد فى كتاب الله عز وجل مؤكداً عروبة هذا الكتاب « القرآن الكريم » .

ومن هنا أيضًا تكون الترجمات التى تترجم لمعانى القرآن أو لتفسير القرآن ليست هى القرآن ولا تسمّى قرآنًا ، فالقرآن هو اللفظ العربى المنزل على محمد ﷺ ، والمحفوظ فى الصدور ، والمتلو بالألسنة ، والمكتوب فى المصاحف بين دفّتيها ، وقد اختلف العلماء فى قضية ترجمته اختلافًا كثيراً ، وكانت معركة كبيرة منذ نحو سبعين عامًا فى مصر بين العلماء الذين يجيزون الترجمة وبين الذين لا يجيزون ، وانتهت إلى إجازة ترجمة معانى القرآن الكريم ، وحتى ترجمة المعانى هذه لا يجيزها بعض الناس ويطالب بترجمة التفسير فقط ، والحقيقة أن ترجمة روائع اللغات عملية فى منتهى الصعوبة ،فالذى يترجم الروائع يحتاج إلى أن يكون فى مستوى ما يترجمه ، فمثلا من يترجم لشكسبير ينبغى أن يكون عنده من المستوى الأدبى ما يستطيع أن يترجم به لشكسبير ، إضافة إلى علمه باللغة الإنجليزية التى يترجم منها وعلمه ومعرفته باللغة التى سوف يترجم إليها وأن يكــون عنــده من القـــدرة على الإبداع الأدبى والفنى ما يستطيع أن ينقل به رائعة من روائع شكسبير دون أن يفقدها روحها ومعناها ، هذا مع النصوص البشرية فكيف بالنصوص الإلّهية ؟! كيف يستطيع أحد أن ينقل نَصًّا من القرآن الكريم بما فيه من إعجاز ؟ لا يستطيع أحد أن يفعل هذا مع القرآن ، ولا حتى مع النصوص الأدبية كما قال بعضهـــم ومثّل لذلك بما قاله امرؤ القيس :

« مكرٍ مفرٍ مقبلٍ مدبرٍ معًا »

فكيف تترجم هذه بما هى عليه من نظم ووجازة ؟ يمكن أن تترجم معانيها فى عدة أسطر ولن تكون بتلك الروعة .

ثم إن القرآن ألفاظ ومعانى ، واللفظ الواحد يحتمل – أحيانًا – عدة معانى ، وهذه المعانى التى يؤدّيها اللفظ لها دلالات ،مثل قوله : ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴾ [المائدة : ٦] فالباء فيه تفيد الإلصاق ، وتفيد التبعيض ، وغير ذلك ، فكيف يترجم هذا ويؤدى الأداء القرآنى ؟! .

وأمر آخر فى القرآن وهو اللّحن والموسيقى كما يسمونها ، كيف يترجم لها ؟ ، وكيف يفرق بين سورة الذاريات وسورة الطور وسورة النجم وسورة القمر وسورة الرحمن مثلاً فى الترجمة ؟ وكل سورة من هذه السور لها نسق ولها جوّ ولها موسيقى ، وكيف يحافظ على جو كل سورة ونسقها ؟ ففى سورة النجم الألف المقصورة : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ [النجم : ١ : ٣] ، وفى سورة الطور فاصلة تميزها : ﴿ وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ * فِى رَقٍّ مَّنْشُورٍ * وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴾ [الطور : ١ : ٤] ، وكذا فى سورة الرحمن : ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ [الرحمن : ١ : ٤] ، كيف يحافظ إذن لكل سورة على موسيقاها ووقعها على الأنفس ؟ .

لاشك أن اختيار نظم معين له حكمة معينة ، وإلا فلماذا كانت : ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ على طريقتها هذه وليست على طريقة غيرها ؟ لابد أن هناك حكمة وراء هذا ، فالخاطب هنا مثنى ﴿ فَبِأَىِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن] ، وإذن فادّعاء ترجمة القرآن هذه عملية غير مسلّمة ، أما محاولات ترجمة المعانى أو التفسير لتقريب القرآن إلى الأذهان بقدر الطاقة البشرية فلا بأس بها .

والمفسرون حين يتكلمون عن التفسير يقولون : هو بيان المراد من كلام الله بقدر الطاقة البشرية ، وهذا فى التفسير الذى يحمل نفس لغة القرآن ، ومع ذلك تختلف فيه الطاقة البشرية ، وتبقى فيه مساحة للظنّ ، أيصل إلى المراد أو يقاربه أم لا ؟ فهل إذن لا تعدو كونها محاولات .

وقد اقتضت حكمة الله عزّ وجلّ أن يكون القــرآن عربيًّا بلسان الرسول ﷺ ، وبلسان أمته التى تتلقى عنه ، والمكلفة بأن تحمل الإسلام إلى العالم ، تفهمه هى وتتذوقه وتتمثله ، ويصبح جزءًا من كيانها العقلى والنفسى والروحى ، وبعد ذلك تترجم هذه الأمة العالم إليه . وقد كان هذا عملهم رضوان الله عليهم أن يترجموا العالم إلى القرآن لا أن يترجموا القرآن إلى العالم ، أن يعربّوا العالم ، لا أن يعجّموا القرآن ،وهذا ما دأب عليه الصحابة الفاتحون ومن تبعهم بإحسان : أن ينشروا العربية مع الدين ، فينتشر الإسلام وتنتشر العربية معه ، ويدخل الناس فى دين الله ، ويدخلون في لغة العــرب ، ولولا هذا ما كنا نحن عربًا، فقد عرّبَنا الإسلام فى مصر وفى شمال أفريقيا وفى مناطق أخرى ، فاستعربنا ، والاستعراب أصيل عند العرب ، حتى إن أفضل العرب وهم العرب العدنانيون من عرب الشمال الذين منهم رسول الله ﷺ يسمونهم المستعربين أو العرب المستعربة ، وهم يختلفون عن عرب الجنوب القحطانيين فى اليمن ، ومن أجل ذلك كانت الحكمة فى أن يجعل الله القرآن عربيًّا ، وإلا لكان الأمر كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ، أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ [فصلت : ٤٤] فيكون الكتاب أعجميًا والرسول عربى ، ولكن الأمر كما أراد الله أن يكون الرسول عربيًّا وأن يكون الكتاب عربيًّا ، بلسان القوم الذين نزل فيهم .

اتباع الهدى لا اتباع الهوى :

﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ، مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ ﴾ لئن اتبعت أهواء هؤلاء وسرت وراء ما يطلبون فهنا يكون الهلاك والخسار ؛ لأن أهواء البشر ليس وراءها إلا الضلال إذا لم يسندها هدى من الله عز وجــل : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَــدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنـون:٧١] ، ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَـوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ [القصص:٥٠]،﴿ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [سورة ص: ٢٦] فأهواء البشر لا تتبع ، وهى متناقضة ، فكل واحد له هوى معين يتبع مصلحته الخاصة ، فأى هوى تتبع ؟ هوى أهل اليمين أم هوى أهل اليسار ، هوى الأغنياء

أم هوى الفقراء ؟ الهوى لا يتبع ، لذا كان التحذير من اتّباع الهوى لداود : ﴿ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ [سورة ص : ٢٦] ، وللرسول عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف : ٢٨] فحذره من اتباع أهواء الآخرين : ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا ، وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ * إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا ﴾ [الجاثية : ١٨ ، ١٩] ، ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ وَلاَ تَتَّبِعَ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللهُ إِلَيْكَ ﴾ [المائدة : ٤٩] ، ﴿ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ [المائدة : ٤٨] وهذا يدل على أن هؤلاء من أصحاب الهوى يكيدون ، ولا يريدون اتباع الحق ، بل يريدون أن يجرفوا الناس ويضلوهم عن السير فى ركاب الحق ، فلابد من الحذر منهم .

وإذا كان هذا تحذيرًا لرسول الله ﷺ وهو من هو ، فأولى بنا أن نحذر ونحذر ونحذر ، والكلام يحمل نوعًا من التهديد : ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴾ علم الوحى الذى أنار لك الطريق ، ووضح لك المعالم ، وأقام الحجة وقطع العذر : ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ، مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ ﴾ .

﴿ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ ﴾ هذا جواب الشرط ، والعلماء يقولون : إذا جاء الشرط والقسم ، إذ اللام فى « لئن » موطئة للقسم والقسم مقدّر نقديره « والله لئن اتبعت أهواءهم » فتحذف الفاء من جوابه ﴿ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ ﴾ ولو كانت إن الشرطية فقط لقال : « فما لك من الله » ولكن الفاء حذفت من جواب الشرط ، ولأن الجملة ﴿ مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ وَاقٍ ﴾ وقعت جوابًا للشرط وللقسم فلا يوقف عليها قراءة ؛ لأن المعنى لم يتم والجملة لم تنته ، أو أنها وقعت جوابًا للقسم وأغنى جواب القسم عن جواب الشرط .

وقد جاءت هذه العبارة ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ فى آيات كثيرة فى القرآن ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ، مَالَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ [البقرة : ١٢٠] ، ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٤٥] ، وغير ذلك مما يحمل

التحذير من اتباع أهواء هؤلاء ، ولئن فعلت ذلك ﴿ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ ﴾ يلى أمرك وينصرك : ﴿ وَلا وَاقٍ ﴾ يقيك ويحميك ويدفع عنك بأس الله عزّ وجلّ ، وهذا ومثله كما قال الإمام الزمخشرى : من باب « إيّاك أعنى واسمعى يا جارة » فالخطاب للرسول عليه الصلاة والسلام ولكن المقصود به نحن ، فالرسول لا يخشى عليه أن يتبع أهواء هؤلاء ، ولكنه يخاطب بمثل هذا الخطاب ؛ ليكون تحريضًا للمؤمنين وتهييجًا لهم على الحذر من اتباع أهواء الضالين والمضلين ، وقطعًا لأطماع هؤلاء المؤمنين ؛ لأنه إذا كان الرسول يقال له هذا ، فما بالكم أنتم ؟ فحينئذ لا يوجد من المؤمنين من لا يخاف على نفسه ، وهذا يرد فى آيات كثيرة كما فى قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[الزمر : ٦٥] ، ﴿ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾[البقرة : ١٤٧ ، الأنعام: ١١٤ ، يونس : ٩٤] ، ﴿ وَلاَ يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ، وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ ، وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[القصص : ٨٧] ، ﴿ فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴾[القصص : ٨٦] ، وهو يحمل التحريض للمؤمنين والتنبيه ليكونوا أبدًا على حذر .

بشرية الرسل ومالهم من أزواج وذرية :

ثم قال الله عزّ وجلّ : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٍ ﴾ مشكلة قديمة ذكرها القرآن فى مواضع كثيرة من قصص الرسل ، وهى أن من الناس من يستبعد أن يكون الرسول بشرًا ، مع أن هذا هو الموافق للحكمة ؛ إذ كيف يبعث الله تعالى للبشر رسولاً من غير البشر ؟ ولو حدث فكيف يأخذون عنه ؟ وكيف يتعلمون منه ؟ وكيف يقتدون به ؟وكيف يكون لهم أسوة ؟ وكيف يقيم الله عليهم الحجة إذا أرسل إليهم ملكًا لا يأكل الطعام ولا يتزوج ولا يحتاج إلى مثل ما يحتاجون إليه ؟! ..

الحكمة اقتضت أن يبعث الله للبشر رسولاً من جنسهم من أنفسهم ولذلك يقول الله عزّ وجلّ : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ فِى الأَرْضِ مَلاَئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴾[الإسراء : ٩٥] إذا كان الذين يسكنونَ

الأرض ويقيمون فيها ملائكة لنزلنا إليهم ملائكة من جنسهم ، لكن والحال أن البشر هم الذين يسكنون الأرض ويقيمون فيها ويمشون مطمئنين ، فالمعقول أن يكون الرسول من جنسهم ، ومع هذا وجد من يقول من الناس للرسل : ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ [إبراهيم:١٠] ، ﴿ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا ﴾ [هود : ٢٧] ، وقالوا أيضاً :﴿ مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ﴾[الفرقان:٧] ، وهذا إلى جانب ما أخذوه على الرسول ﷺ أن له أزواجاً وذرية – هذا إذا اعتبرنا هذا القرآن مدنيًّا . أما إن كان مكيًّا فهى زوجة واحدة وهى السيدة خديجة رضى الله عنها – ولعلهم كانوا يريدونه كالحصور يحيى عليه السلام ، أو كالمسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام لا زوجة له ، ولكن كم من رسل الله عليهم السلام كانت لهم أزواج ، وكانت لهم ذرية ، بل كل الرسل كانوا كذلك عدا يحيى وعيسى ، ومنهم من كانت له مئات الزوجات كما ذكر فى التوراة أن سليمان كان له ثلاثمائة زوجة وسبعمائة أمة ، وداود كانت له مائة زوجة حرة ومائتان من الإماء ، وهذا لأنهم بشر،وقد ركّب الله فى البشر تلك الغريزة ؛ لأن من ورائها بقاء نوع البشر واستمراره ، ومنهم من لم يكن له ولد ، فطلب الأولاد من الله عزّ وجلّ ، كما فعل إبراهيم عليه السلام قال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾[الصافات : ١٠٠ ، ١٠١] وكما طلب زكريا عليه السلام : ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ [آل عمران : ٣٨] ، وأيضاً : ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ، وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾[مريم : ٥ ، ٦] إلى آخر هذا ، وقد أعطاهم الله الولد ، فلست بدعاً من الرسل أن يكون لك زوج أو أكثر من زوج ، وكلمة زوج – كما قلنا من قبل – كما تكون للرجال تكون للنساء ، فالرجل زوج والمرأة زوج ،وأن يكون لك ذرية فأنت على سنة الرسل تسير ، وهذا ليس مما يعيبك ، بل لتكون قدوة للناس فى حالة الزوجية وفى حالة الأبوة يتأسى بك الزوج فى معاملة زوجته ،ويتأسى بك الأب فى معاملة أولاده ، ويتأسى بك الجدّ فى معاملة أحفاده ، فهذا مما يوافق الحكمة الإلهية بأن جعلك من أصحاب الأزواج والذرية .

﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ يردّ الله تعالى فى هذه الفقرة

على اقتراحات الذين كفروا بإنزال آيات وغير ذلك فيقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ أتظنون أن الرسول أى رسول يستطيع أن يجيب إلى ما طلب منه من قوم كلما شاءوا شيئًا صنعه ؟ ، الرسول هذا بشر من البشر مبعوث من الله لا يستطيع أن يفعل شيئًا فى هذا الكون إلا بإذن الله سبحانه وتعالى ، فالكون كون الله وليس كون الرسول ، والله هو الفعال الذى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ ﴾ أى ما صح له ولا استقام وليس فى وسعه : ﴿ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ ﴾ مما تقترحونه ﴿ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ أى بمشيئة الله سبحانه وتعالى ومشيئته مرتبطة بحكمته ..

وسواء كانت هذه الآية التى تطلبونها آية حسيّة مثل الآيات التى جاء بها موسى من العصا واليد ،ومثل الآيات التى جاء بها عيسى من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله وغيرها ،ومثل آية صالح الناقة ، وغير ذلك ، أو كانت الآية التى تطلبونها آية تنزيلية من آيات القرآن تريدونها مكان آية ، أو تريدون حكمًا مكان حكم ، سواء كانت الآية كونية أم تنزيلية ، فلا يستطيع الرسول أن يأتى بها إلا بإذن الله ، وهذا ما قاله الرسل عامة لأقوامهم حينما طالبوهم أن يأتوا بسلطان مبين ، ومع أن الرسل قد جاء كل أحد منهم بآية ، إلا أن أقوامهم لا يكتفون بآية واحدة بل يريدون أخرى وأخرى وأخرى ، لأن المتعنت لا يقف عند حد ، قالت الرسل : ﴿ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [إبراهيم : ١١] فهذا موقف الرسل عامة : ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ .

معنى (لكل أجل كتاب) :

﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ الأجل هو المدة المضروبة المحددة من الزمن المعروفة بدايتها ونهايتها مثل أجل الإنسان ، مدّته التى قدّر الله أن يعيشها فى عمره ، وكما جاء فى قصة سيدنا موسى مع الشيخ الكبير الذى يقال : إن اسمه شعيب ، قال الشيخ : ﴿ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ ، فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ، وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ، سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ، أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ

قَضَيْتُ فَلاَ عُدْوَانَ عَلَيَّ ، وَاللهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴾ [القصص : ٢٧ ، ٢٨] وقد جاء فى الحديث أنه قضى أوفى المدّتين وأبرهما (١) ، كرمًا منه فقضى عشر سنوات .

﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ كل مدّة من المدد وكل وقت من الأوقات له كتاب ، أى أمر كتبه الله تعالى وقدّره مناسب لهذا الوقت ، واقتضته الحكمة الإلهية التى تضع كل شىء فى موضعه وتظهره فى زمانه ، علم ذلك من علمه ، وجهله من جهله، فالله سبحانه وتعالى لا يخلق شيئًا باطلاً ،ولا يفعل شيئًا عبثًا ، ولا يصنع شيئًا اعتباطًا،كما قال أولو الألباب الذين يتفكرون فى خلق السماوات والأرض : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ ﴾ [آل عمران : ١٩١] وكـما قال الله تـعالـى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ [المؤمنـون : ١١٥] وقـال : ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة : ٣٦] فكل شىء يمضى وفق الحكمة الإلٰهية . ومن ذلك أن كلّ مدّة من الزمن لها حكمها الإلٰهى الذى يختص بها ويناسبها ، سواء عرف الناس ذلك أم لم يعرفوه .

ومن ذلك : الآيات التى تقترح،فقد يجيب الله فينزلها وقد لا يجيب ، والذى يفعل ما تقتضيه الحكمة هو الله عزّ وجلّ ، وهم طلبوا الآيات الحسّية والخوارق الكونية التى كانت لبعض الأنبياء من قبل ، ولكن الوقت تغيّر والزمن تغيّر، والله سبحانه وتعالى أعطى كل رسول من الآيات ما يناسب زمنه ، فى هذا الأجل المعين. فمثلاً كان المناسب لأجل موسى وزمن موسـى ومدة موسى آية من نوع ما برع فيه قدماء المصريين،وقد برعوا فى السّحر وكان السّحرة عندهم بالآلاف،مهروا فى هذا الأمر،وبلغوا فيه مبلغًا عظيمًا فكانت آية موسى من هذا النوع :﴿ فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾[الأعراف:١٠٧،الشعراء:٣٢] ، وحينما رآها فرعون قال:عندنا من هذا كثير،وجمع له السّحرة وأقام مباراة بينهم وبين

(١) روى البخارى فى الشهادات باب من أمر بإنجاز الوعد عن سعيد بن جبير قال : سألنى يهودى من أهل الحيرة : أى الأجلين قضى موسى ؟ قلت : لا أدرى حتى أقدم على حبر العرب فأسأله فقدمت فسألت ابن عـباس فقال : قضـى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل ، وفى الباب أحاديث مرفوعة ومرسلة كثيرة انظر ابن كثير التفسير ج ٣ ص ٣٨٦ .

موسى ظنًّا أن هذا لون من السحر ، وكانت المفاجاة أن العصا انقلبت حيّة حقيقية ، تلقف ما صنعوا ، فكانت آية مناسبة ٠

وأيضًا حينما بعث عيسى كانت عند الرومان نهضة وتطور فى فن الطب ، فجاء عيسى بما يعجز الطب ، وهو إحياء الموتى وإبراء الأكمه بإذن الله ، فمن من الأطباء يستطيع أن يحيى الموتى ؟ ويبرئ الأكمه والأبرص ، لا أحد يستطيع ذلك ولا أحد يستطيع أن يجعل من الطين طيرًا ، فهذا أمر فوق الطب وفوق العلم ٠

ثم جاء محمد ﷺ ليختم الله به الرسالات ، ويختم بشريعته الشرائع ، وتكون أمته آخر الأمم ، وقد بلغت البشرية أشدّها ورشدها ، جاء فى أمة صناعتها البيان : الشعر والنثر والحكمة ، فاقتضت مشيئة الله تعالى القائمة على الحكمة أن تكون معجزته الكبرى وآيته العظمى آية عقلية أدبية بيانية ، هى القرآن العظيم ٠

﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ مكتوب مما يناسب ماكتبه الله تعالى وقدّره لكل أجل ، وهذا أيضًا داخل فى الرّد على ما طلبه القوم ،وبعض المفسّرين — كالضحّاك والفرّاء — يقولون : إن فى الكلام قلبًا ، فلكل أجل كتاب : أى لكل كتاب أجل ، وقال أحدهما : لكل كتاب أجل ، أى لكل أمر كتبه الله أجل ينتهى عنده ، فإذا قدّر أن يهلك هؤلاء القوم فى وقت معين فلن يتأخروا ولن يستقدموا : ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٤ ، النحل : ٦١] ولا يمكن أن يهلكوا قبل الأوان٠ وقال الآخر — الضحّاك : الكتاب هنا كتاب من الكتب المنزلة يناسب الأجل الذى نزل فيه ، فالتوراة تناسب الأجل الذى نزلت فيه ،والإنجيل يناسب الأجل الذى نزل فيه ، والقرآن يناسب المدة والأجل الذى نزل فيه ، ولأن مدة التوراة محدودة وكذا الإنجيل ، فلم يتكفّل الله بحفظهما ، ولأن مدة القرآن هى الزمن إلى أن تقوم الساعة ، فقد تكفّل الله تعالى بحفظه ٠

ويمكن أن نقول — دون حاجة إلى القول بأن في الكلام قلبًا وتقديمًا وتأخيرًا — لكل أجل كتاب أى لكل مدة الكتاب الذى يناسبها ، وأنسب

الكتب لهذه المدّة الأخيرة من عمر البشرية هوالكتاب المعجز الخالد المحفوظ ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه : القرآن .

معنى المحو والإثبات :

﴿ يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ، وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ ربما سأل سائل : ولماذا تتغير الكتب من أجل إلى أجل ؟ ولماذا تتغير الآيات من وقت إلى وقت ؟ فتكون حسيّة فى بعض الأوقات ، ومعنوية فى بعض الأوقات ؟ ولماذا تتغير الآيات التنزيلية وما تتضمنه من أحكام بالنسخ ؟ ولماذا تتغير الشرائع بأن تنسخ الشريعة شريعة أخرى؟ولماذا تتغير بعض الأحكام فى شريعة سابقة بأحكام أخرى فى شريعة لاحقة؟ كما قال المسيح ﴿ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ [آل عمران: ٥٠]،ولماذا تتغير الأحكام فى الشريعة الواحدة كما فى شريعة الإسلام حيث دلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ، أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[البقرة: ١٠٦] ، وحيث دلّ عليه أيضًا قوله : ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ، قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ، بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ * قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[النحل : ١٠١ ، ١٠٢] ؟ فيكون الردّ على هذه التساؤلات : أن التغيير والتبديل بالمحو والإثبات هو صنع الله تبارك وتعالى ، وهو صنع يتعلق بمشيئته عزّ وجلّ اقتضته الحكمة الإلّهية ، إنه يمحو ويثبت ، والمحو إزالة أثر الشىء والإثبات ضد المحو .

وقد اختلف المفسرون فى المحو والإثبات . ماذا يمحو ؟ وماذا يثبت ؟ .

فهناك من قال : يمحو الأرزاق والآجال .

وهناك من قال : يمحو الآباء ويثبت البنين .

وهناك من قال : يمحو قرونًا ويثبت قرونًا ، يهلك قرنًا وينشىء من بعدهم قرنًا آخرين .

وهناك من قال : يمحو الله تعالى ما يشير إليه قوله : ﴿ اللهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾[الزمر : ٤٢] ، فهناك أنفس يقبضها حين المنام وهناك أنفس يبقيها .

وهناك من قال : يمحو الذنوب بالتوبة ، ويبقى ذنوبًا ليس فيها توبة .

وهناك من قال : المحو يكون فى ديوان الحفظة وصحف الملائكة فى ليلة القدر من كل سنة . وذكر عن بعض السلف من الصحابة من كان يدعو ويقول : « اللهم إن كنت كتبتنى عندك شقيًّا فامح هذا وأثبتنى سعيداً » ، وقد روى هذا عن ابن مسعود وعن عمر ، وعن بعض التابعين ، وروى فى هذا حديث ضعيف (١) .

وهناك من قال : إن المحو والإثبات يتعلق بالأحكام ، والمعنى : أنه ينسخ ما يشاء من الأحكام الكلية أو الجزئية فى شريعته ،ويبقى ما يشاء بلا نسخ .

المراد من (أم الكتاب) :

﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ أى الأحكام الأصلية التى لا يعتريها المحو ولا التغيير ، وهى تشبه ما جاء فى سورة آل عمران : ﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ [آل عمران : ٧] فأم الكتاب هى معظم الكتاب ، هى آيات الأصول التى تقرر العقائد والحقائق الكونية ،وأصول الدين وأصول الشريعة ، وهى الآيات الواضحات القاطعات الدلالة التى يردّ إليها غيرها من المتشابهات ، فهذه لا تقبل النسخ .

وهناك من قال : إن المحو والإثبات ليس فى الأحكام الشرعية ،ولكن فى الأحكام القدرية ، وهى تشمل الأرزاق والآجال وغيرها ، فيمحو فيها ما يشاء ويثبت ، يعنى : ما فى صحف الملائكة .

﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ أى اللوح المحفوظ الذى كتب الله فيه مقادير الخلائق ، وإليه الإشارة فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام:٥٩] ، وفى قوله : ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاءِ ،وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس : ٦١] فهذا الكتاب المبين هو اللوح المحفوظ ، هو أم الكتاب الذى لا تغيير فيه .

---

(١) انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير الجزء الثانى ص ٥١٩ فقد أورد من الأدعية المروية عن الصحابة والأحاديث الكثير .

وذهب بعضهم إلى أن اللوح المحفوظ يمكن أن يتغير ،وأن الذى لا يتغير هو علم الله تبارك وتعالى ، والعلم الأزلىّ لا يتغير بحال ؛ لأن علم الله لو تغير لاستحال العلم جهلا ،والعلم صفة تنكشف بها الأشياء على ما هى عليه تمامًا ، والله سبحانه يعلم الشىء على ما هو عليه ، وعلى ذلك يمكن أن تتغير صحف الملائكة ويمكن أن يتغير ما فى اللوح المحفوظ نفسه ، ولكن علم الله لا يتغير ، فأم الكتاب إذن هى العلم الأزلىّ .

ولكن الذى يستشفه الإنسان من القرآن فى حديثه عن هذا الكتاب : أن الله يسجل فيه ما علم ﴿ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ فِى السَّمَاءِ ، وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [يونس : ٦١] فكأن ما يعلمه الله يسجله فى هذا الكتاب : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] فهذا هو الكتاب ، وهو أصل كل كتاب من كتب أو صحف الملائكة ومن كتب الناس . ولذلك سمّاها (الأمّ) فالأمّ هى الأصل ، التى ترد إليها الأشياء، كما تقول العرب عن كل شىء أصل لغيره : هو أمّ .

﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ والشاهد هنا أن هناك مستويين ، سواء نظرنا إلى عالم الأقدار الكونية ، أم إلى عالم الأحكام الشرعية ، مستوى منهما يقبل المحو والإثبات ، ويقبل التغيير والتبديل ، ومستوى لا يقبله،وهذا موجود فى عالم الأقدار ، ففيه أشياء يمكن أن تتغير وتتبدل ، وأشياء لا تتغير ولا تتحول ، وإذا سأل سائل : كيف يتغير قدر الله ؟ يكون الجواب : يتغير قدر الله بقدر الله ، كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية عن الشيخ عبد القادر الجيلانى كلمة كانت تعجبه ويرددها يقول : « ليس الرجل من يستسلم للقدر ، إنما الرجل من ينازع القدر بالقدر » ولذا يمكن أن تدفع الأقدار بالأقدار ، فيدفع الإنسان قدر المرض بقدر الدواء ، فكلاهما قدر ، وهذا ما جاء فى الحديث الذى رواه أحمد وغيره : « يا رسول الله أرأيت أدوية نتداوى بها ، وتقاة نتقّيها . هل تردّ من قدر الله شيئًا ؟ قال : هى من قدر الله » (١) وكأنهم اعتبروا

(١) رواه ابن ماجة في كتاب الطب ص ١ ،وروى الترمذى مثله فى الطب ٢١ ،والقدر ١٢ ، وروى الإمام أحمد قريبا من هذا عن الزهرى عن أبى خزامة عن أبيه قلت : يا رسول الله .. « أرأيت دواء نتداوى به ورقى نسترقى بها وتقى نتقيها ترد من قدر الله شيئًا قال : إنها من قدر الله تبارك وتعالى » المسند ج ٣ ص ٤٢١ ، قال الترمذى : حسن صحيح .

المسببات مقدّرة ، والأسباب غير مقدّرة ! والصحيح أنها من قدر الله ، فيردّ بها قدر الله .

وقد روى عن سيدنا عمر حينما أراد أن يرجع بالصحابة خوفًا عليهم من الطاعون الذى كان منتشرًا بالشام فقال له سيدنا أبو عبيدة بن الجراح : أنفر من قدر الله يا أمير المؤمنين ؟! فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ، نعم نفرّ من قدر الله إلى قدر الله .

فالأقدار إذن يمكن أن تغير ، وقد تكون هناك أسباب للتغيير ، وقد تكون منها الأعمال الصالحة ، ولذلك ورد أن صلة الرحم تزيد فى العمر ، ويتسبب عنها بسط الرزق (١) .

وورد أنه : لا يزيد فى العمر إلا البرّ ، ولا يردّ القدر إلا الدعاء (٢) ، لأن الدعاء من القدر أيضًا ، وهـو سبـب من الأسـباب ، فحينما تأخذ حذرك ، أو تتحصن من الوباء ، أو تبتعد عن أسباب الهلاك ، فأنت بهذا تفّر من قدر الله إلى قدر الله ، وتتحصن من قدر الله بقدر الله ، وحينما تدعو الله فأنت بذلك تردّ بالدّعاء – الذى هو من قدر الله – قدر الله ، ولعل هذه كانت فكرة من دعا من الصحابة – عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وغيرهما – فقال : اللهم إن كنت كتبت على شقوة أو ذنبًا فامحه فإنك تمحو ما تشاء وتثبت ، وعندك أمّ الكتاب ، فاجعله سعادة ومغفرة .. » .

ففى مستوى الأقدار يمكن التغيير والتبديل فى هذا الكون ، فالله سبحانه وتعالى يحول الأحوال ، ودوام الحال من المحـال ، ويغيّر ما بالأقـوام إذا غيّروا

---

(١) إشارة إلى أحاديث كثيرة منها ما رواه البخاري فى الأدب باب من بسط له فى الرزق بصلة الرحم ، وفى البيوع أيضًا ، ومسلم فى البر ص ٢٠ ، ٢١ ، والإمام أحمد فى المسند ، ولفظ البخارى عن أبى هريرة : « من سرّه أن يبسط له فى رزقه وأن ينسأ له فى أثره فليصل رحمه » وقريب من هذا لفظه عن أنس بن مالك رضى الله عنهم أجمعين .

(٢) إشارة إلى الحديث الذى رواه الإمـام أحمد فى مسـنده ج ٥ ص ٢٧٧ ، والذى رواه الترمذى فى كتاب القدر ص ٦ ورواه ابن ماجة في المقدمة ص ١٠ ، ولفظ الإمام أحمد عن ثوبان رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ولا يردّ القدر إلا الدعاء ولا يزيد فى العمر إلا البرّ » ..

ما بأنفسهم ويديل الناس بعضهم من بعض: ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٤٠] و ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ ﴾ [النور : ٤٤] ويخفض ويرفع ، ويعطى ويمنع ، ويعزّ ويذل ، ويؤتى الملك من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ، وفى هذا الجو يكون التغيير ويكون فى الأعراض ، أما الجوهر فهو ثابت .

ومن القضايا الكبرى التى نتحدث فيها فى عصرنا قضية الثبات والتطور ، ما الذى يثبت ؟ وما الذى يتطور ؟ سواء فى الكون أم فى الإنسان والحياة ، أم فى الشرائع والأحكام ، هناك قدر ثابت وقدر متغير ، هناك محو وإثبات ، ولكن هناك أمّ الكتاب ، فالمحو والإثبات واضح فى العالم من حولنا ، تتغير الأشياء ، بلاد تعمر وبلاد تخرب ، بحيرات تنشأ وأخرى تزول ، والبحر يأكل من اليابسة ، واليابسة تردم البحر ، والأرض تزرع وتخضّر ، أو تبور وتتصحّر ، ولكن النظام الكونى ثابت بسننه التى لا تجد فيها تبديلاً ، ولا تجد فيها تحويلاً ، وبنواميسه الثابتة .

والإنسان نفسه يتغير فيه الكثير ، يتغير – فرداً – من الصبا إلى الشباب ، ومن الكهولة إلى الشيخوخة ، ويتحول من الصحة إلى المرض ، ويتغير – جماعة – من العصر الحجرى إلى العصر الحديدى إلى عصر الصناعة إلى عصر الذرة ، ومن الإنسان الذى كان يركب الحمار إلى الإنسان الذى يركب سفينة الفضاء ، ورغم هذا التغير فى عالم الأفكار عند الإنسان ،وفى عالم الأشياء من حوله ، إلا أن جوهر الإنسان ثابت كما هو ، باعتباره كائناً مفكراً مريداً مختاراً مكلفاً مسؤولاً ، وباعتباره يحمل الخير والشر منذ قابيل وهابيل والأسرة الأولي التى قتل فيها الإنسان أخاه الإنسان إلى اليوم .

والأحكام أيضاً يشملها التغير والثبات،ففى الشريعة الإسلامية هناك أشياء قابلة للتغير وأخرى ثابتة ، فأما المتغير فهو ما نقول فيه : إنه يتغيّر بتغيّر الزمان والمكان والإنسان كالفتوى التى تتغيّر بتغيّر الزمان والمكان والعرف والحال ، وأما الثابت الذى لا يتغيّر فهو الأحكام القطعيات التى أشارت إليها الآية : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [آل عمران : ٧] فهذه لا تغيير فيها ولا

محو ولا إثبات ، وما قلناه هذا هو الحكمة أو القاعدة العامة التى يمكن أن نستنبطها من هذه الآية الكـريمة : ﴿ يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ، وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ ٠

ثم يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ وكأنما أراد الله سبحانه وتعالى هنا أن يثبت رسوله ﷺ ويطمئن قلبه فقد كان عليه الصلاة والسلام حريصاً كل الحرص على هـداية قومـه ، وعـلى أن يستجيبوا له ، كما جـاء فى القرآن : ﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٣] ، ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف : ٦] ، وهذا الحرص جعله يشقى ويتعب كما جاء فى سورة طه : ﴿ مَا أنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ [طه : ٢] ، فأراد الله سبحانه وتعالى هنا أن يقول له : اطمئن فلا عليك أن يستجيبوا لك ، إنما عليـك شىء واحد هو البلاغ وإيصال الرسالة إليهم ، وإنهاء كلمة الله تعالى إلى هؤلاء ٠

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ يعنى لا تحتفل باستجابتهم أو عدم استجابتهم فإن ما نرينك – والإراءة هنا إراءة بصرية ، ونُرِى فعل مضارع من أرى وهو متعدى من الفعل رأى ، ورأى – كما نعلم – من رأى البصرية ورأي العلمية ورأى الحُلمية – بعض الذى نعدهم من الإهلاك ونصرك عليهم والانتقام منهم ، وهذا بعض ما وعُدوا وليس كلّه ، ومن رحمة الله عزّ وجلّ أنه لا ينفذ كل ما يعد – من الوعيد – وكلمة وعد فى القرآن تأتى للخير وتأتى للشرّ ، والوعد الخبر عن خير مضمون ، والوعيد الخبر عن شرٍّ مضمون ، وكلمة وعد ويعد تشمل الأمرين فى القرآن ولا نجد فيه أوعد ، وبعضهم قال : إن وعد للخير وأوعد للشرّ كما قال الشاعر :

وإنى إذا أوعدته أو وعدته　　لمخلف إيعادى ومنجز موعدى

ولكن فى القرآن الكريم وعد ، والوعد يأتى للأمرين ٠ ومن ذلك ﴿ النَّارُ وَعَدَهَا اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [الحج : ٧٢] وتقـــدم فى هذه

السورة : ﴿ وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ ﴾ ووعد الله هنا بالهلاك ، وفى مواضـــع أخرى : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾[يونس : ٤٨ ، الأنبياء : ٣٨ ، النمل : ٧١ ، سبأ : ٢٩ ، يس : ٤٨ ، الملك : ٢٥] . وفى القرآن وعـد للخير : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[الفتح: ٢٩]، ﴿ وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾[التوبة : ٧٢] ، ولعل قوله ﴿ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ ﴾إشارة إلى أن بعض هذا سيتحقق ويراه النبى ﷺ ، وفي قصة مؤمن آل فرعـون : ﴿ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِى يَعِدُكُمْ ﴾ [غافر : ٢٨] فبعض ما يعد الله من العقاب . وعقابه شديد - ﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[هود : ١٠٢] كاف للعاقل أن يرتدع ، و ﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ ﴾ قبل وفاتك ، أو نتوفينك قبل أن يصيبهم بعض الذى وعدناهم ، وفى الآية قال : ﴿ نَعِدُهُمْ ﴾ ولم يقل : وعدناهم ؛ لأن الوعد يتكرر ويتجدد فهو إنذار وراء إنذار ، فإن ما نرينك أو نتوفينك فلا تحتفل بهذا الأمر ، فليس عليك هداهم وليست عليك استجابتهم ، وما هذا مما كُلّفت به ، إنما الذى كلفك الله إياه هو البلاغ ، والبلاغ المبين ﴿ مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاَغُ ﴾[المائدة : ٩٩] الذى يصل إلى العقول ويقنعها ، ويصل إلى القلوب ، أما هداية القلوب إلى الإسلام ، وتطهيرها من موانع الإيمان ، كالكبر والحسد وحبّ الدنيا والتقليد الأعمى وغير ذلك ، فهذا ما عليك« وعلينا » - وليس عليك كما يفيد تقديم الجار والمجرور هذا - الحساب،ومؤاخذتهم على موقفهم منك ونكولهم عن اتباعك وإعراضهم عن دعوتك بتعنتهم واقتراحهم الآيات بلا سبب وبلا مسوّغ .

فالحساب على الله تعالى كما قال : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ * إِلاَّ مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ * فَيُعَذِّبُهُ اللهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ * إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾[الغاشية : ٢١ : ٢٦] ، فأدّ ما عليك بالبلاغ وقد أديّت الأمانة ، وبلّغت الرسالة ، ولم تقصر فلا عليك بعد ذلك واترك الأمر إلينا ندبره كيف شئنا فليس أفضل من تدبيرنا .

* * *

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، وَاللَّهُ يَحْكُمُ لاَ مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ، يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ، وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ * وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً ، قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد : ٤١ : ٤٣] .

نقص الأرض من أطرافها وكيف يكون ؟ :

هؤلاء المتعنتون الذين لم يكفهم كتاب الله يتلى عليهم ، ويقترحون عليك آية بعد آية ، ومرة بعد مرّة : ﴿ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ ، هؤلاء ألم يروا بأس الله تعالى فيما حولهم ؟ ألم يروا صنع الله فى هذا الكون حيث ينقص الأرض من أطرافها ؟ ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ .

جاء عن بعض المفسرين :أن المراد بنقص الأرض من أطرافها أن الله سبحانه وتعالى يفتح على المسلمين من أرض الكفار،فتنتقص لحساب الإسلام،وهذا يصح لو كانت هذه السورة مدنية، أما وقد رجحنا من أول الأمر أن السورة مكية تدل على ذلك عدة دلائل،فهذا التفسير لا يستقيم،ويؤكد هذا أيضًا أنه جاء فى سورة الأنبياء المكية هذا المعنى:﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلاَءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ، أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ، أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الأنبياء:٤٤] ولكن بعض المفسرين يخرج من هذا المأزق فيقول : السّورة مكية إلا هذه الآية : وهذا ليس معقولاً أن تكون السّورة مكية وتنتزع منها آية ، ويقال : هى مدنية ، ولم يدل على ذلك نقل صحيح .

والصحيح فى معنى الآية : أن الله سبحانه وتعالى يديل الدول بين الناس فيأخذ من هذه الدولة لتلك الدولة ، فتصغر الدول الكبيرة ، وتضيق الدول الواسعة ، وتضعف الدول القوية : ﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٤٠) فالدهر قُلّب يوم لك ويوم عليك .

فمعنى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ أو لم ينظروا

إلى ما حولهم ؟ أو لم يعلموا ما حدث للقرون من قبلهم ، وللأمم من قبلهم ؟ لم يدم حال دولة من الدول مهما عظمت ومهما اتسعت ، فكم من دولة عظيمة دالت ، وكم من أمة عظيمة سقطت ، لحساب أمة أخرى ، وهكذا . فهذا هو معنى الآية الصحيح .

وليس معناها أن الله يضيق الكوكب الأرضى بصورة عامة كما جاء عن بعض السلف : لو كانت الأرض تضيق لضاق عليك بيتك،ولضاق عليك حُشّك !

وليس معناها أيضًا ما ذكره بعض المعاصرين المحدثين ممن يبالغون فيما يسمونه « التفسير العلمى للقرآن » أو « الإعجاز العلمى للقرآن » قال : إن الآية تشير إلى حقيقة جغرافية معروفة ، وهى أن الأرض غير كاملة التكوير ، وهذا تكلف ، فقد وردت الآية بصيغة المضارع فى فعل النقص ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِى الأَرْضَ نَنقُصُهَا ﴾ وهو يفيد التجدد والتكرار ، فالعملية مستمرة ، ولو كان المراد أن الأرض ناقصة الأطراف والتكوير لقال : نقصناها . وانتهت ، ولكن هذا من الاعتساف فى التأويل بحيث يراد أن يتفق القرآن مع النظريات العلمية .

ونحن نقرّ أنه يمكن استخدام العلم فى فهم القرآن الكريم ، وتفسير بعض الآيات بشروط معينة : منها : ألا نعتسف فى التفسير ، فتكون أولاً النظرية العلمية حقيقة مقررة ، وليست مجرد فرض أو نظرية مختلف فيها ، وأن تحتمل ألفاظ الآية وعباراتها هذا التأويل دون تكلّف ولا تعسف[1] .

حاكمية الله سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﴾ هو صاحب هذا الكون ينقص من طرف هذه الدولة لحساب دولة أخرى ، ويعز ويذل ، ويؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، وهذا حكمه عزّ وجلّ يحكم لا معقب لحكمه أى لا رادّ لحكمه ، وليس هناك من يعقب عليه أو ينقص حكمه ، قد يأتى من يحكم من البشر ويأتى أيضًا من يعقّب على حكمه ، وفى المحاكم محاكم ابتدائية تحكم ، ومحاكم استئنافية قد تؤيد الحكم وقد لا تؤيده ، ومحاكم للنقض تنقض الحكم أو تردّه إلى ما كان ، إلى آخر ما يكون مع البشر فى أحوالهم ، أما والحكم لله فلا معقب لحكمه ، ومن يعقّب على حكم الله ؟ أيعقب المخلوق على الخالق ؟ لا يمكن أن يكون هذا .

---

(١) انظر : موقفنا من التفسير العلمى فى كتابنا : كيف نتعامل مع القرآن العظيم ؟

والحكم هنا – كما يبدو من سياق الآية – هو الحكم الكونىّ ، فالله سبحانه وتعالى له الحاكمية ، والحاكمـــية نوعان : حاكمـــية كونية ، وحاكمية شرعية ﴿ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ [الأعراف : ٥٤] فالحاكمية الكونية تتصل بالخلق ، والحاكمية الشرعية تتصل بالأمر ، وكثيراً ما يراد هذا وذاك ﴿ له الْحُكْمُ ، وَإِلَيْه تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص : ٧٠ ، ٨٨] أى الحكم الكونى ، إنه هو الذى يتصرف فى الكون كما يشاء :﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾[يس : ٨٢] ﴿ هُوَ الَّذى يُحْيِى وَيُميتُ ، فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [غافر : ٦٨] وهو الذى يقضى فى الكون ما يشاء ، كما قال سيدنا يعقوب لأبنائه وهو يوجههم الأّ يدخلوا من باب واحد قال : ﴿ وَمَا أُغْنى عَنكُمْ مِّنَ الله من شَىْءٍ ، إِن الْحُكْمُ إِلاَّ لله عَلَيْه تَوَكَّلْتُ ، وَعَلَيْه فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [يوسف : ٦٧] والمقصود هنا الحكم الكونى فإذا أراد الله أن يصيبهم بأذى فعل ، وإذا أراد أن يحميهم حماهم .

وأحيانًا يراد بالحكم : الحكم الشرعى الأمرى التكليفى ، كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعندَهُمُ التَّوْرَاةُ فيهَا حُكْمُ الله ﴾ [المائدة : ٤٣] فالحكم هنا شرعى أمرى تكليفى ، وكما قال الله تعالى في ســورة الممتــحنة : ﴿ ذَلكُمْ حُكْمُ الله ، يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ، وَاللهُ عَليمٌ حَكيمٌ ﴾ [الممتحنة : ١٠] وكمـا قــال عز وجــل : ﴿ أَفَغَيْرَ الله أَبْتَغى حَكَمًا وَهُوَ الَّذى أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكتَابَ مُفَصَّلاً ﴾ [الأنعام : ١١٤] فهو الذى يشرّع ويأمر وينهــى ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهليَّة يَبْغُونَ ، وَمَنْ أَحْسَنُ منَ الله حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقنُونَ ﴾ [المائدة : ٥٠] .

الله سبحانه وتعالى هـو صاحب(الحاكمـية الكونية القدرية)،و (الحاكمية الشرعية الأمرية) ، وهذا أمر متفق عليه بين جميع المسلمين .

ومما يؤسف له أن بعض الناس فى عصرنا يقولون : إن مسألة (الحاكمية) هذه اخترعها وابتكرها الأستاذ أبو الأعلى المودودى رحمه الله ، وأخذها عنه الشهيد سيد قطب رحمه الله ، وأن الفكر الإسلامى لم يكن يعرف هذه الحاكمية التى قال بها هذان الرجلان العظيمان ، إلا عند الخوارج .

وهذا للأسف يدل على جهل القائلين،فلو أنهم رجعوا إلى كتب أصول

الفقه ، وعلم أصول الفقه هو العلم الذى يحدد مناهج الاستنباط ، استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها،ويحدد القواعد والأسس لهذا الاستنباط، مما فيه نصّ ومما لا نصّ فيه . لو أنهم رجعوا إلى أصول الفقه ، لوجدوا أن الأصوليين يبحثون فى مقدمات هذا العلم،ومن ضمنها مقدمات عن الحكم الشرعى،ما هو الحكم ؟ وما هو المحكوم به ؟ ومن هو الحاكم ؟ وقد اتفقوا على أن الحاكم هو الله ، حتى إن الرسول نفسه ﷺ ليس هو الحاكم وإنما هو مبلغ عن الله ، فالله هو الحاكم ، وهو الآمر الناهى الذى يأمر وينهى ، ويحلل ويحرم ، ويشرع لعباده ما يشاء .

والحاكمية الأمرية متفرعة على الحاكمية الكونية ، فما دام الله هو المالك لهذا الكون ، وهو المدبر لأمره ، وهو صاحب هذا الوجود والمتصرف فيه وحده ، فمن حقه أن يأمر وينهى بما يشاء وإن كان لا يأمر ولا ينهى إلا بما تقتضيه حكمته ، وبما فيه مصلحة الخلق ، عرفوا ذلك أم لم يعرفوا ، فإنه سبحانه وتعالى لا تنفعه طاعة مطيع ولا تضرّه معصية عاص .

﴿ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ سريع المجازاة على ما تفعلونه مع الرسول الذى أرسلته إليكم ، وإذا أمهلكم أو ترككم فترة من الزمن ، فلا تظنوا ذلك غفلة منه وعجزاً منه ، إنه يجازى فى أى وقت وفى أسرعه ، فهو سريع الحساب كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنعام: ١٦٥] فيكن أن يأتى حسابه وجزاؤه بأسرع مما تتصورون ﴿ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ [النحل : ٧٧] وهذا فى الدنيا والآخرة ، ويمكن أن يؤخر الحساب إلى الآخرة ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُون، إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] كما يمكن أن يعجل بالجزاء فى الدنيا ، ويأتيكم هذا الجزاء بغتة من حيث لا تشعرون ، فتكونون فى أمر وهو يدبّر لكم أمراً آخر ، وتمكرون والله يمكر ، وهو خير الماكرين .

مكر الله ومكر الناس :

﴿ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾ فإذا مكرتم بمحمد فلستم أول الماكرين ، فقد مكر الذين من قبلكم بأنبيائهم ورسلهم ، ودبّروا لهم المكايد ، ونصبوا لهم المصايد ، وكانت العاقبة أن المرسلين والأنبياء نجوا هم

والذين آمنوا معهم ، وأن الماكرين الكافرين هم الذين وقعوا في الشرك ونزلت بهم المهالك ﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ ﴾[النحل : ٢٦] والمكر هو إبطال قصد الغير خفية دون أن يشعر ، أو قصد إيصال المكروه بالغير من حيث لا يشعر وهو نوعان : المكر الحسن ، والمكر السيء ، فإذا تحرّيت بمكرك فعل الجميل تريد أن توصّل خيراً إلى من يستحقه ، أو توصّل أذى إلى من يستحقه ، كظالم بغية ردّه عن ظلمه ، فهذا مكر محمود ، وهذا من مكر الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٤ ، الأنفال : ٣٠] .

وهناك مكر مذموم وهو الذى أشار إليه القرآن بقوله : ﴿ وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر : ٤٣] وهو مكر الكفرة ، كما مكرت ثمود بصالح ، ولكن الله تعالى خيب مكرهم قال تعالى : ﴿ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [النمل : ٥٠ ، ٥١] ، وكما مكر خصوم عيسى المسيح به : ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٥٤] ، وكما مكر المشركون برسول الله : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٠] ومكر الكفرة مكر قديم ، والله سبحانه وتعالى يريد أن يثبت رسوله ﷺ ، ويهون عليه مكر هؤلاء وما يكيدون وما يمكرون ، فقد مكر الذين من قبلهم ومن هم أشد قوة منهم وآثاراً فى الأرض ، ولكن الله تعالى خيّب مكرهم ، وساءت عاقبتهم ، فهو سبحانه أسرع مكراً وأقوى مكراً ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا * فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴾ [الطارق : ١٥ : ١٧] .

﴿ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾ هذه الصيغة تعنى أن المكر كلّه لله ، وكأن مكرهم غير معتبر ، أو هو معدوم ، إذ مكر المخلوق لا يكون شيئاً إلى جانب مكر الخالق ، الذى يعلم كل شيء ، ويعلم ما تكنه الصدور ، وأنت لكى تحبط مكر من يمكر بك لابد أن تعرف ماذا يصنع ؟ وماذا يدبر ؟ والدول الآن تحاول أن تعرف ما يصنع غيرها ، لكى تبطل مكر أعدائها ، وتقيم لذلك الأجهزة ،

وتنفق عليها الملايين ، لتعرف فيم يفكرون ، وماذا يصنعون ، حتى تقطع الطريق عليهم ، فما بالك بالخالق سبحانه وتعالي الذى يعلم ماذا يصنع عباده – الذين خلقهم – وفيم يفكّرون ، والذى يعلم السرّ ، ويعلم ما هو أخفى من السرّ ؟ إنه هو القادر على أن يبطل كيد الكائدين،ومكر الماكرين، فمكرهم لا يعتبر شيئًا ، بجوار مكره عز وجل .

﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ وهذا نوع من التعليل والتفسير لقوله : ﴿ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ﴾ أى لأنه يعلم ما تكسب كل نفس ، وهذا يشمل الكسب الحسّى والكسب المعنوى ، أى ما يظهر على الجوارح ، وما يستكن في الضمائر ، فالله يعلمه كلّه ، وهذا يعنى أن الله سبحانه وتعالى بقدرته يبطل مكر هؤلاء ولا يجعل له أثرًا ، وقد قلنا فيما سبق إن كلمة (كسب) تعنى العمل لاجتلاب منفعة أو دفع مضرة وتستعمل فى القرآن للخير وللشرّ ، وفى الحسنات وفى السيئات : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾ [المدثر : ٣٨] ، ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ﴾ [الأنعام : ٧٠] ، ﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة : ٨٢] ، ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام : ١٥٨] ، ﴿ أُوْلَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ﴾ [البقرة : ٢٠٢] وهؤلاء الذين دعوا فى مواقف الحج ، وغير هذا من مواضع « كسب » .

فالكسب إذن يشمل كل ما يعمله الناس من طاعات ومعاص ، ومن خير ومن شرّ ، وإن كان الأقرب هنا ﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ﴾ أن يكون كسب السيئات ؛ لأنه جاء فى معرض التهديد والوعيد .

﴿ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ وفى بعض القراءات السبعية : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ (١) والكافر هنا اسم جنس ، والمعنى :

---

(١) قرأ عبد الله بن عامر ، وعاصم ، وحمزة ، والكسائى « وسيعلم الكفار » جمعًا ، وقرأها نافع ، وابن كثير وأبو عمرو « وسيعلم الكافر » .

وسيعلم جنس الكافر لمن عقبى الدار ، وهذا تهديد من ناحية ، ووعد لرسول الله ﷺ وللمؤمنين من ناحية أخرى ، فهى تحمل الوعد والوعيد .

وقوله : ﴿ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [أى لمن سوف تكون العاقبة ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨ ، القصص : ٨٣] وللمؤمنين ، وسواء فسرنا عقبى الدار بما يكون فى الدنيا من نصر وتمكين ،أم فسرناها بما يكون فى الآخرة كما سبق فى السورة ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ وعقبى الدار الجنة والنعيم ، فسيعلم الكفار لمن عقبى الدار كما جاء في سورة الأنعام : ﴿ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ ، إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣٥] ، وقد جرت سنة الله عزّ وجلّ أن العاقبة للمتقين ، وأن العاقبة للمؤمنين فى الدنيا وفى الآخرة .

ففى الدنيا ينصر الله الرسل والمؤمنين كما قال عزّ وجلّ : ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾[غافر : ٥١] وكما قال : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم : ٤٧] ، وفى الآخرة عاقبة الدار ليست لهؤلاء الكافرين المكذبين المعاندين المتعنتين ، وإنما هى لمن يستحقها ، للرسول ﷺ ولمن آمن به .

ثم ختمت السورة بمقولة من مقولات الذين كفروا الذين تكرر ذكرهم فى السورة : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾ وقد تكرر مرتين ، ثم جاء هذا القول أيضًا ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً ﴾ أى يقولون : لست رسولاً من عند الله ، إنما أنت مُدَّعٍ ، وقد وصفهم الله سبحانه وتعالى ﴿ بِالَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ؛ ليسجل عليهم الكفر الذى غطى على عقولهم فلم يعودوا يميزون بين الحق والباطل ولا بين الصواب والخطأ .

تبجح المشركين بتكذيب محمد :

﴿ وَيَقُول الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً ﴾ هنا تعود السورة لما بدأت فى أولها ﴿ المر ، تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ، وَالَّذِى أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾ وهى تدور حول حقّية القرآن الكريم ، وحول إثبات رسالة محمد

ﷺ ، وأنه لا يحتاج إلى الآيات التى يطلبها هؤلاء المتعنتون ، ويقترحها أولئك المعاندون ، والتعبير بقوله : ﴿ وَيَقُولُ ﴾ ولم يقل : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ دليل على أن هذا القول يتجدد منهم ويتكرر .

شهادة الله لمحمد كافية :

﴿ قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ، وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ قـل يـا محمد وردّ عليهم ، وأقم عليهم الحجة ، وكما قلنا ونقول : إن « قل » فى القرآن تدل على أن محمداً ﷺ مكلف مأمور، يلقّى الكتاب من سلطة أعلى منه ، تأمره وتنهاه ، و لذلك فقد وردت كلمة « قل » فى القرآن الكريم كلّه ثلاثمائة واثنتين وثلاثين مرّة ﴿ قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ .

إذا كان من يدعى دعوة معينة ويريد أن يثبت هذه الدعوة ، يحتاج إلى شهادة شاهد يشهد له بصحة الدعوة وبالصدق منها ، فهل تكتفون بالله شهيداً بينى وبينكم ؟ ﴿ قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ فشهادة الله تكفي عن كل شهادة .

وقد تكرر هذا فى القرآن ، ففى سورة الأحقاف : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلاَ تَمْلِكُونَ لِى مِنَ اللهِ شَيْئًا ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ، كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأحقاف : ٨] .

وفى سورة العنكبوت بعد أن رد الله تعالى على المتعنتين من الكافرين الذين كانوا يطلبون من محمد آيات حسية ، ومعجزات كونية قال : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيداً ، يَعْلَمُ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [العنكبوت:٥٢] .

وفى سورة الإسراء : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ، إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً ﴾ [الإسراء : ٩٦] .

وفى سورة النساء : ﴿ لَكِنِ اللهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ، أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ، وَالْمَلاَئِكَةُ يَشْهَدُونَ ، وَكَفَى بِاللهِ شَهِيداً ﴾ [النساء : ١٦٦] .

فليس هناك شهادة أعلى ولا أنصع ولا أقوى ولا أدلّ من شهادة الله عزّ وجلّ على ما يشهد عليه .

كيف تكون شهادة الله لرسوله ؟ :

وربما يسأل سائل : كيف تكون شهادة الله ؟ وما معنى شهادة الله لمحمد ﷺ ؟

معنى شهادة الله لمحمد : أنه أظهر الآيات والحجج الدّالة على صدقه فيما يبلغ عن ربه ، وهي شهادة له ﷺ أنه رسولَ من ربه ، وأبلغ هذه الآيات ، وأعلى هذه المعجزات : آية القرآن الكريم ، فهو الآية الكبرى والمعجزة العظمى الباقية المستمرة التى لا تشبه آيات النبيين ، إذ قد انتهت آياتهم بمجرد وقوعها ، ولولا أن القرآن حدثنا عنها ما عرفناها .

وهناك آيات أخرى ومعجزات لرسول الله ﷺ مثل آية انشقاق القمر ،ومثل الإسراء والمعراج ، وهذه فى مكة المكرمة ، أما معظم الآيات فقد حدثت فى العهد المدنى ، وهذه الآيات خوطب بها الكفار والمشركون . وهذا من ناحية .

ومن ناحية أخرى أن الله سبحانه وتعالى خلّى بين الرسول ﷺ وبين الدعوة ، فإذا كان كاذبًا فكيف تركه الله عزّ وجلّ يضلّ النّاس ويفسد فى الأرض ؟! ، وكيف فتح له القلوب لتهتدى به وتتحمس له ، وتنضم إلى قافلته ؟! الله سبحانه وتعالى لا يترك الضال حتى يقصمه . يقول عز وجل : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُم مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة : ٤٤ :٤٧] وهذا لو تقول بعض الأقاويل ، فكيف لو افتعل الرسالة كلها من أصلها ؟! وقال: إنه رسول الله وليس برسول ؟! يقول الله تعـالى : ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الانعام : ١٤٤] وهو سبحانه لا يهدى ظالما ، فكيف بأظلم الناس ، وهو الذى يفترى على الله الكذب ؟! وهل يترك الله هذا الأظلم ويخلّى بينه وبـين الناس يضلّهم ؟! لا يتصور هذا ولا يكون ؛ لأن ترك الضال المضّل ليس من سنن الله أبدًا وهو يقول:﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ﴾ [طه : ٦١] فالمفترى لابـد أن يخـيب ولا يـفلح :﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الانعام:٢١، ١٣٥ ، يوسف : ٢٣ ، القصص : ٣٧] ، ﴿ وَيُحِقُّ اللهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس : ٨٢] كما قال موسى عليه السلام : ﴿ مَا جِئْتُم بِهِ

السِّــحْرُ ، إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٨١] ، وإذن فمجرد التخلية بين محمد وبين الناس تعتبر شهادة من الله عزّ وجلّ له ، فأما أن يؤيّده بالمعجزات ، والآيات البيّنات ، وأعظمها القرآن ، فهذه شهادة بعد شهادة ، وهى شهادة عملية : من ناحية المعجزات وفتح القلوب والعقول له ، وهى شهادة قولية : من ناحية أن القرآن كلام الله عزّ وجلّ .

ومثل ذلك تأييده ونصره على أعدائه رغم كثرتهم وقوتهم ، وقلة أنصاره وضعفهم المادى ، ففتح الله له فتحًا مبينا ، ونصره نصرًا عزيزًا .

ولذلك قال بعض الغربيين : ماذا تريد ممن يدّعى لك أنه بنّاء أكثر من أن يبنى لك بناء من السعة بحيث يسع الملايين ، ومن المتانة بحيث يعيش مئات السنين – ويقصد بهذا الإسلام – ويقول : إن الباطل لا يمكن أن يستمر ، فمثل الباطل كمثل ورق البنكنوت الزائف ، قد يمرّ من يد إلى يدين أو أكثر ، ولكنه لا يلبث أن يضبط ويعرف أنه زائف ، وأما الحق فهو الذى يستمر ، ويقول : إن دين محمد يتبعه مئات الملايين من الناس ، وأهله أشد الخلق تحمسًا له من أى أصحاب دين فى الأرض . فإذن هذا الدين لا يقوم على أكاذيب ، ولكنه يقوم على حقائق .

وهذا المعنى قاله (توماس كارليل) صاحب كتاب (الأبطال) الذى قال فى محمد : إنه (بطل فى صورة رسول) .

والنبوة هداية ، فكيف لكاذب أن يهدى الناس ، وأن يبصّر الحائرين ، ويعلّم الجاهلين ، ويأخذ بأيدى الناس إلى الله ، ويحشرهم فى ساحته ؟! .

فهذا كله يعتبر من شهادة الله عزّ وجلّ : ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ .

لو كان محمد كاذبا لقطع الله وتينه :

وفى سورة الحاقة يقول تعالى : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ * وَمَا لاَ تُبْصِرُونَ * إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ، قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ * وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ ، قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأَقَاوِيلِ * لأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ [الحاقة : ٣٨ : ٤٧] .

فى هذه الآيات أقسم الله على صدق نبيه وأن القرآن كلام رب العالمين بلغه رسوله الكريم محمد ﷺ - أقسم على ذلك بالأشياء كلها وبالكون كله : ما يبصر منه وهو القليل ،وما لا يبصر وهو الكثير .

قال ابن القيم [1] : « وهذا القَسَم أعم قسم وقع فى القرآن ؛ فإنه يعم العلويات والسفليات ، والدنيا والآخرة ، وما يرى وما لا يرى ، ويدخل فى ذلك الملائكة كلهم والجن والإنس .. وكل مخلوق ، وكل ذلك من آيات قدرته وربوبيته .. ففى ضمن هذا القسم أن كل ما يرى وما لا يرى آية ودليل على صدق رسوله ، وأن ما جاء به هو من عند الله ، وهو كلامه لا كلام شاعر ولا مجنون ولا كاهن » .

« ومن تأمل المخلوقات ما يراه وما لا يراه ، واعتبر ما جاء الرسول بها ، ونقل فكرته فى مجارى الخلق والأمر ، ظهر له أن هذا القرآن من عند الله وأنه كلامه ، وهو أصدق الكلام وأنه حق ثابت ، كما أن سائر الموجودات ما يرى منها وما لا يرى حق .. فكأنه سبحانه يقول : إن القرآن حق كما أن ما تشاهدونه من الخلق وما لا تشاهدونه حق موجود ، بل لو فكرتم فيما تبصرون وما لا تبصرون لدلكم ذلك على أن القرآن حق .. » .

« ثم ذكر سبحانه المقسم عليه فقال : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ وهذا رسوله البشرى محمد ﷺ وفى إضافته إليه باسم الرسالة أبين دليل أنه كلام المرسل .. ولو كانت إضافته إليه إضافة إنشاء وابتداء لم يكن رسولاً » .

« ثم بين سبحانه كذب أعدائه وبهتهم فى نسبة كلامه تعالى إلى غيره وأنه لم يتكلم به ، بل قاله من تلقاء نفسه - وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ .. وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ .. ﴾ .

ثم أخبر سبحانه أنه ﴿ تَنزِيلٌ مَنْ رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وذلك يتضمن أموراً منها :

أن ربوبيته الكاملة لخلقه تأبى أن يتركهم سدى : لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يرشدهم إلى ما ينفعهم ، ويحذرهم ما يضرهم ، بل يتركهم هملاً بمنزلة الأنعام السائمة .

---

(١) التبيان فى أقسام القرآن ص ١٧٥ وما بعدها .

فمن زعم ذلك لم يقدر رب العالمين قدره ، ونسبه إلى ما لا يليق به تعالى ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ، لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون : ١١٦] .

« ثم أقام سبحانه البرهان القاطع على صدق رسوله وأنه لم يتقول عليه فيما قاله وأنه لو تقول عليه لما أقره ،ولعاجله بالإهلاك ؛ فإن كمال علمه وقدرته وحكمته يأبى عليه أن يقر من تقوَّل عليه ، وافترى عليه ، وأضل عباده ، واستباح دماء من كذبه وحريمهم وأموالهم ، وأظهر فى الأرض الفساد والجور والكذب ، وخالف الخلق ، فكيف يليق بأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين ، وأقدر القادرين ، أن يقره على ذلك ؟ .

بل كيف يليق به أن يؤيده وينصره ويعليه ويظهره ، ويظفره بأهل الحق : يسفك دماءهم ويستبيح أموالهم وأولادهم ونساءهم ، قائلاً : إن الله أمرنى بذلك وأباحه لى ؟ .

بل كيف يليق به أن يصدقه بأنواع التصديق كلها ؛ فيصدقه بإقراره ، وبالآيات المستلزمة لصدقه ، التى دلالتها على التصديق كدلالة التصديق بالقول وأظهر ، ثم يصدقه بأنواعها كلها على اختلافها . فكل آية على انفرادها مصدقة له ، ثم يحصل باجتماع تلك الآيات تصديق فوق تصديق كل آية بمفردها ، ثم يُعجز الخلق عن معارضته ، ثم يصدقه بكلامه وقوله ، ثم يقيم الدلالة القاطعة على أن هذا قوله وكلامه ، فيشهد له بإقراره وفعله وقوله .

فمن أعظم المحال ، وأبطل الباطل ، وأبين البهتان ، أن يجوز على أحكم الحاكمين ورب العالمين أن يفعل ذلك بالكاذب المفترى عليه ، الذى هو شر الخلق على الإطلاق .

فمن جوز على الله أن يفعل هذا بِشرّ خلقه وأكذبهم فما آمن بالله قطعًا ، ولا عرف الله ، ولا هذا هو رب العالمين ، ولا يحسن نسبة ذلك إلى من له مسكة من عقل وحكمة . ومن فعل ذلك فقد أزرى بنفسه ، ونادى على جهله » .

وقد ذكر ابن القيم هنا وفى عدد من كتبه مناظرة جرت له فى مصر مع أكبر من يشير إليه اليهود بالعلم والرياسة قال : فقلت له فى أثناء الكلام :

أنتم بتكذيبكم محمداً ﷺ قد شتمتم الله أعظم شتيمة . فعجب من ذلك وقال : مثلك يقول هذا الكلام ؟ .

فقلت له : اسمع الآن تقريره :

إذا قلتم إن محمداً ملك ظالم قهر الناس بسيفه ، وليس برسول من عند الله وقد أقام ثلاثاً وعشرين سنة يدعى أنه رسول الله أرسله إلى الخلق كافة ويقول : أمرنى الله بكذا ، ونهانى عن كذا وأوحى إلى كذا ، ولم يكن من ذلك شيء . ويقول : إنه أباح لى سبى ذرارى من كذبنى وخالفنى .. ولم يكن من ذلك شيء . وهو يدأب فى تغيير دين الأنبياء . ومعاداة أممهم ونسخ شرائعهم فلا يخلو : إما أن تقولوا : إن الله سبحانه كان يطلع على ذلك ويشاهده ويعلمه ، أو تقولوا : أنه خفى عنه ولم يعلم به . فإن قلتم : لم يعلم به نسبتموه إلى أقبح الجهل ، وكان من علم ذلك أعلم منه .

وإن قلتم : بل كان ذلك كله بعلمه ومشاهدته واطلاعه عليه فلا يخلو : إما أن يكون قادراً على تغييره والأخذ على يديه ومنعه من ذلك أولا؟ فإن لم يكن قادراً فقد نسبتموه إلى أقبح العجز المنافى للربوبية .

وإن كان قادراً وهو مع ذلك يعزه وينصره ويؤيده ويعليه ويعلى كلمته ، ويجيب دعاءه ، ويمكنه من أعدائه ، ويظهر على يديه من أنواع المعجزات والكرامات ما يزيد على الألف ، ولا يقصده أحد بسوء إلا أظفره به ، ولا يدعوه بدعوة إلا استجابها له ، فهذا من أعظم الظلم والسفه الذى لا يليق نسبته إلى آحاد العقلاء ، فضلاً عن رب الأرض والسماء ، فكيف وهو شهد له بإقراره على دعوته وبتأييده وبكلامه . وهذه عندكم شهادة زور وكذب ؟!! .

فلما سمع ذلك اليهودى قال : معاذ الله أن يفعل الله هذا بكاذب مفترٍ ! بل هو نبى صادق ، من اتبعه أفلح وسعد .

قلت : فمالك لا تدخل فى دينه ؟

قال : إنما بعث للأميين الذين لا كتاب لهم ، وأما نحن فعندنا كتاب نتبعه .

قلت له : غُلبت كل الغلب ، فإنه قد علم الخاص والعام : أنه أخبر أنه

رسول الله إلى جميع الخلق،وأن من لم يتبعه فهو كافر من أهل الجحيم،وقاتل اليهود والنصارى – وهم أهل الكتاب – وإذا صحت رسالته لزم تصديقه فى كل ما أخبر به . فأمسك اليهودى ولم يحر جوابًا » أ . هـ .

هذا هو نصر الله الذى وعد به رسوله محمداً ﷺ وفاضت به سور القرآن ، ونطقت به آياته البينات ، وقد امتلأ قلب محمد إيمانًا به،وأملاً فيه ، ولم يتسرب إلى قلبه فى لحظة من اللحظات ذرة من شك فى أن الله ناصره على عدوه ، ومؤيده على مكذبيه ، فهو وعد الله الذى لا يتخلف ، وسنة الله التى لا تتبدل : أن تكون العاقبة لرسله والهلاك لأعدائهم : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ ، فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً ﴾ [فاطر : ٤٣] .

وقد مرت بمحمد محن وأزمات تشيب من هولها ناصية الوليد ، وأحاطت به أحداث رهيبة ابتلى فيها المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً وبلغت القلوب الحناجر ، وظن الناس بالله الظنون . ولو لم يكن موقنًا كل اليقين بدعوته ، واثقًا كل الثقة بنصرته ، لخارت قواه ، أو ارتاب فؤاده أو – على الأقل – سكت حتى تمر الأزمة ، وتهدأ العاصفة وتنقشع سحابة المحنة . كلا ، إنه كان فى أشد الأوقات حلوكة وظلامًا ، يردد آيات النصر ويعلن أن الله مؤيد كتابه ، ومظهر دينه ، ومهلك عدوه ، وإن أرجى ما يكون النصر إذا استحكمت حلقات الخطوب ، وتراكمت ظلمات الكروب ، وهجم اليأس بعسكره على القلوب . ألم يقرأ فى آيات كتابه العزيز : ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ ، مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ ، أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة : ٢١٤] ، ﴿ حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ، وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [يوسف : ١١٠] .

وفى السيرة المحمدية مصداق ما نقول : ففى مكة ظل محمد رسول الله ﷺ ثلاثة عشر عامًا يدعو إلى الله ، ويربى الجيل الأول ، وقاسى هو وصحبه من الإيذاء والتعذيب والصد والمقاطعة ما قاسوا ، حتى أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله ، وعاشوا بعد الهجرة فى صراع دائم وجهاد متصل ، فقد رمتهم العرب عن قوس واحدة ، وبعد سبع وعشرين غزوة ، وبضع وخمسين سرية ، جاء نصر الله والفتح ،ودخل الناس فى دين الله أفواجًا ،

وعلت كلمة الله على كلمة الطاغوت ، علام يدل هذا النصر والتأييد والفتح الذى ظفر به محمد ؟ ذلك النصر الذى لم يخل عن اليقين بحصوله فى أحلك الأزمات وأحرج الساعات ؛ ذلك النصر الذى جاءه بعد أن أخرجه قومه من داره واضطهدوه وأتباعه ، وتمالأت عليه الوثنية الفاجرة ، واليهودية الماكرة . علام يدل هذا ؟ وماذا نسميه ؟ .

يدل هذا على أن محمدا الذى أيده الله بنصره وأمده بروح من لدنه رسول من عند الله صدقه الله بهذا النصر كما صدق المرسلين قبله . ونسمى هذا - كما سماه القرآن - شهادة من الله لمحمد بأنه صادق فيما يقول وما يبلغ عنه ، ليس بكاذب ولا ضال ولا غاوٍ : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم : ١ : ٤] .

ولو كان محمدا كاذباً فى نبوته مفترياً على ربه ، منتحلا ما ليس له ، ما خلّى الله بينه وبين عباده يضلهم ويغويهم ، ويكذب عليهم ، ويكلفهم ما لم يكلفهم الله به ، فضلا عن أن يؤيده بالآيات البينات ، ويفتح له القلوب ، ويخضع له الرقاب ، ويُمَكّن له فى الأرض ، ويصدقه فى تحديه ، ويحقق له نبوءاته ، ويذلل له العقبات ، ويهيىء لدعوته أسباب الفلاح .

فليس من حكمة الله تعالى أن يترك الكذّابين المفترين عليه ، دون أن يهلكهم أو يفضحهم ،ويبين حقيقة أمرهم على ملأ الناس ، فإن سنة الله أن يحق الحق ويبطل الباطل ، وليس من سنته أبداً أن يبطل الحق ويظهر الباطل . ولهذا ذكر القرآن على لسان موسى حين جاء سحرة فرعون يتحدونه وألقوا حبالهم وعصيهم وسحروا أعين الناس واسترهبوهم ... قال موسى : ﴿ مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ ، إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ ﴾ [يونس : ٨١] وجاء فى القرآن : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلاَ تَمْلِكُونَ لِى مِنَ اللهِ شَيْئًا ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ، كَفَى بِهِ شَهِيداً بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ﴾ [الأحقاف : ٨] .

ويقول القرآن : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلاَمِ ، وَاللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الصف : ٧] ، ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ

افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٤٤] ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ ﴾ [النحل : ١١٦] ، ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى ﴾ [طه : ٦١] .

وجاء فى سورة الشورى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا ، فَإِن يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ، وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الشورى : ٢٤] .

فمعنى ﴿ فَإِن يَشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ : إن يشأ الله يُنْسكَ القرآن ويقطع عنك الوحى - كما جاء عن المفسر المعروف قتادة - فكان هذا جوابًا لهم ، وتكذيبا لقولهم : إن محمدا كذب على الله ، افترى عليه هذا القرآن . فأجابهم بأحسن جواب ، وهو أن الله تعالى قادر لا يعجزه شىء ، فلو كان كما تقولون لختم على قلبه فلا يمكنه أن يأتى بشىء منه ، بل يصير القلب كالشىء المختوم عليه ، فلا يوصل إلى ما فيه . فيعود المعنى إلى أنه : لو افتراه علىّ لم أمكنه ولم أقره . ومعلوم أن مثل هذا الكلام - الذى هو القرآن - لا يصدر من قلب مختوم عليه ؛ فإن فيه من علوم الأولين والآخرين وعلم المبدأ والمعاد والدنيا والآخرة ، والعلم الذى لا يعلمه إلا الله ، والبيان التَّام ، والجزالة والفصاحة والجلالة ، والإخبار بالغيوب ما لم يمكن مَنْ ختم على قلبه أن يأتى به ولا ببعضه . فلولا أنى أنزلته على قلبه ، ويسرته بلسانه ، لما أمكنه أن يأتيكم بشىء منه (١) .

ولنقرب ذلك إلى الأذهان بمثل نضربه : هب أن رجلا ذهب إلى إقليم من أقاليم مملكة ، وادعى لأهلها أنه مندوب الملك إليهم ، وأنه مفوض من قبله ، ونصب أبدا عليهم . وقد أخذ فعلا يباشر سلطانه يأمر وينهى ويجبى الأموال ، ويقيم العقوبات ، ويخضع الرقاب . والملك قد عرف دعواه ،وعلم بقصته ومع هذا سكت عليه ، وخلى بينه وبين الرعية وكان قادراً بما عنده من عدة وعدد أن يبعث إليه من يزيله عن سلطانه ويبين للناس كذبه وتضليله - إن كان كاذبا مضلاً - ولكنه لم يفعل بل هيأ له كل أسباب النجاح والانتصار ، وأزال من

(١) انظر : التبيان فى أقسام القرآن لابن القيم ص ١٨٥ .

طريقه كل الموانع ، ومكّنه من أعناق معارضيه ، وبعث له بالمدد بعد المدد ..
أفليس هذا دليلا أوضح دليل ، وبرهانا أنصع برهان على صدق هذا الرجل فيما ادعى به على الملك ؟ .

هذا الدليل كاف كل الكفاية فى إثبات النبوة المحمدية لكل من كان يؤمن بالله العلى الكبير ، ويؤمن بهيمنته على الكون ، وحسن تدبيره له ، وسمو حكمته ، وكمال عدله وبره بخلقه .

ومن لم يكن مؤمناً بإله للكون ، فيكفى أن يكون مؤمناً بما فى الكون من سنن عادلة وما للحياة والطبيعة من صدق .

وهذا ما وضّحه الفيلسوف البريطانى كارلايل فى كتابه « الأبطال » حين عقد المحاضرة الثانية من كتابه للبطل فى صورة رسول فاختار بطله « محمداً » صلى الله عليه وسلم .

قال الفيلسوف البريطانى (توماس كارلايل) : « لقد أصبح من أكبر العار على كل فرد متمدين فى هذا العصر أن يصغى إلى ما يظن من أن دين الإسلام كذب ، وأن محمدا خدّاع مزور ، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من هذه الأقوال السخيفة المخجلة ؛ فإن الرسالة التى أبداها ذلك الرسول ما زالت السراج المنير مدة اثنى عشر قرنا لنحو مائتى مليون (هم الآن أكثر من ألف مليون من الناس) أمثالنا ، خلقهم الله الذى خلقنا !! أكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التى عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر أكذوبة وخدعة ؟! أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأى أبداً . فلو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ويصادفان منهم ذلك التصديق والقبول ، فما الناس إلا بله ومجانين ، وما الحياة إلا سخف وعبث وأضلولة ، كان الأولى بها ألا تخلق » [1] .

وقال الكاتب الفيلسوف الروسى (تولستوى) :

« ومما لا ريب فيه أن النبى محمداً كان من عظام الرجال المصلحين الذين خدموا المجتمع الإنسانى خدمة جليلة ، ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق ، وجعلها تجنح للسكينة والسلام ، وتؤثر عيشة الزهد ومنعها من سفك الدماء وتقديم الضحايا البشرية ، وفتح لها طريق الرقى والمدنية ، وهو عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوتى قوة ، ورجل مثل هذا جدير بالاحترام والإكرام » .

---

(١) الأبطال جـ ١ ص ٤٩ ترجمة محمد السباعى .

وعلل (مونتيه) طعن بعض الغربيين على الرسول بقوله : « كثيراً ما حكمت عليه الأحكام القاسية ، وما ذلك إلا لأنه ندر بين المصلحين من عرفت حياتهم بالتفصيل مثله ، وأن ما قام به من إصلاح الأخلاق وتطهير المجتمع ، يمكن أن يعد به من أعظم المحسنين للإنسانية ، وقال : لا مجال للشك فى إخلاص الرسول وحماسته » .

وقال جان جاك روسو : « من الناس من يتعلم قليلاً من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه ، ولو أنه سمع محمدا يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرفيعة وذاك الصوت المقنع المطرب المؤثر فى شغاف القلوب ، ورآه يؤكد أحكامه بقوة البيان لخرَّ ساجداً على الأرض ،وناداه : أيها النبى رسول الله ، خذ بأيدينا إلى مواقف الشرف والفخار أو جوامع التهلكة والأخطار ، فنحن من أجلك نود الموت أو الانتصار » .

من ثمارهم تعرفونهم :

وفى إنجيل (متى) الفصل السابع ١٥ : « احذروا من الأنبياء الكذبة ، الذين يأتوكم بلباس الحملان ، وهم فى الباطن ذئاب خاطفة . من ثمارهم تعرفونهم . هل يجتنى من الشوك عنب ؟ ومن العوسج تين ؟! هكذا كل شجرة صالحة تثمر ثمراً جيدا ، والشجرة الفاسدة تثمر ثمراً رديئا ، لا تستطيع شجرة صالحة أن تثمر ثمراً رديئًا،ولا شجرة فاسدة أن تثمر ثمراً جيداً . كل شجرة لا تثمر ثمراً جيداً تقطع وتلقى فى النار.فمن ثمارهم تعرفونهم (١٥ : ٢٠) .

هذا كلام تلوح عليه أنوار النبوة ، ويجدر بكل مسيحى ، بل بكل عاقل أن يتأمل فيه :

فهو – أولاً – لم يغلق باب النبوة من بعده ، ولم يقل إنه خاتم النبيين فكل من ادعى النبوة بعده فهو كاذب دجَّال . كلا ، وإنما حذر فقط من المتنبين الكذابين .

ثم هو – ثانيا – قد وضع فى أيدي أتباعه بل فى يدى كل عاقل ميزانًا سليمًا يمكن أن يعرف به الأدعياء الدجالين من الأنبياء الصادقين : ومن ثمارهم تعرفونهم » .

فما أشبه نفس الإنسان بالشجرة ، وما أشبه أقواله وأعماله وأخلاقه بالثمرة !! فإذا أردنا أن نعرف حقيقة صاحب دعوة، ونكشف عن دخيلة نفسه ، فلننظر بعين البصيرة فيما جاء به من أقوال ، وما قام به من أعمال ، وما تركه للناس من آثار ؟! .

وهذا المعنى الكبير قد أثبته القرآن وأكده فى غير موضع منه معلنًا أن الكاذب على الله لا يفلح ، وأن الله لا يهديه؛لأنه تعالى لا يهدى القوم الظالمين ولا يصلح عمل المفسدين،ولا يهدى من هو مسرف كذَّاب،وليس من سنته تعالى أن يؤيد الكذب على الصدق ، وينصر الباطل على الحق ، بل من سنته أن يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، وأن يخيب المفترى ، ويفضح المنافق الدجال : ﴿ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴾[الأنفال:٨] .

وقد يروج الكذب فترة من الزمن ويملى الله للكاذب حينا من الدهر . ثم سرعان ما يأخذه الله أخذه الأليم الشديد ، فيكشف ستره ، ويبيد من الأرض ذكره ، ويجعله سلفًا ومثلا للآخرين .

نقول : هذا المعنى الكبير قد أثبتته نصوص كثيرة من أسفار العهد الجديد المقدسة عند النصارى ، وأسفار العهد القديم المقدسة عند الطائفتين : النصارى واليهود .

ففى الزبور الأول من العهد القديم آية ٧ : « لأن الرب يعرف طريق الصديقين ، وطريق المنافقين تهلك » .

وفى الزبور الخامس ٦ : « وتهلك كل الذين يتكلمون بالكذب ، الرجل السافك الدماء والفاسق يرذله الرب » .

وفى الزبور الرابع والثلاثين ١٦ : « وجه الرب على الذين يعجلون المساوىء ليبيد من الأرض ذكرهم » .

وفى الزبور السابع والثلاثين ١٧ : « لأن سواعدالخطاة تكسر ، والرب يعضد الصديقين » .

٣٠ : « الخطاة فيهلكون ، وأعداء الرب جميعًا – إذ يمجدون ويرتفعون – يبيدون وكالدخان يفنون » .

فلو لم يكن محمد من الصديقين ، وكان من الخطاة وأعداء الرب المفترين

عليه ، لأنجزالله فيه هذا الوعيد ، وأعمل فيه هذه السنن الإلٓهية الصارمة ، فأهلك طريقه وطمسها وجعله مرذولا مدحوراً ، وأباد من الأرض ذكره ، وكسر سواعده ، وأفناه كالدخان !! .

ولما كان أمر محمد بعكس هذا كله ، وإنما هو الفتح المبين والنصر العزيز .
فَتْحُ القلوب بالإيمان ، وكثرة الأتباع ، وفتح البلدان والقرى وخضوع المستكبرين ، وإنما هو النصر العزيز : النصر على الوثنية ، وعلى المجوسية ، وعلى اليهودية ، وعلى النصرانية ، وإنما هو الذكر المرفوع تصلى آلاف الألسنة بل ملايينها على محمد حبيبها وشفيعها وهاديها ، فى الصلوات والأذان والإقامة وسائر الأذكار والدعوات :

ألم تر أن الله خـــلد ذكره إذا قال فى الخمـــس المؤذن أشهد ؟
وشق له من اســـمه ليجله فذو العرش محمود وهذا محمد !!

قال الشيخ العلامة رحمة الله الهندى فى كتابه القيم (إظهار الحق) : إنه عليه السلام ادّعى بين قوم لا كتاب لهم ولا حكمة فيهم : أنى بعثت من عند الله بالكتاب المنير والحكمة الباهرة ، لأنوّر العالم بالإيمان والعمل الصـالح ، وانتصب – مع ضعفه وفقره ، وقلة أعوانه وأنصاره – مخُالفًا لجميع أهل الأرض : آحادهم وأوساطهم ، وسلاطينهم وجبابرتهم ، فضلل آراءهم ، وسفَّه أحلامهم ، وأبطل مللهم ، وهدم دولهم ، وظهر دينه على الأديان فى مدة قليلة ، شرقًا وغربًا ، وزاد على مر الأعصار والأزمان ، ولم يقـدر الأعداء ، مع كثرة عَدَدهم وعُددهم ، وشدة شوكتهم وشكيمتهم وفرط تعصبهم وحميتهم ، وبدلهم غاية جهدهم ، فى إطفاء نور دينه ، وطمس آثار مذهبه ، فهل يكون ذلك إلا بعون إلهى ، وتأييد سماوى ؟! .

ولنعم ما قال عمالائيل معلّم اليهود لهم فى حق الحواريين من أصحاب عيسى (الباب الخامس من كتاب الأعمال) : « يأيها الرجال الإسرائيليون : احترزوا لأنفسكم من جهة هؤلاء الناس (الحواريين) فيما أنتم مزمعون أن تفعلوا ؛ لأنه قبل هذه الأيام قام ثوداس قائلاً عن نفسه : إنه شيء . الذى التصق به عدد من الرجال نحو أربعمائة . الذى قتل وجميع الذين انقادوا إليه تبددوا وصاروا لا شيء .

بعد هذا قام يهوذا الجليلى في أيام الاكتتاب وأزاغ وراءه شعبا غفيراً .

فذاك أيضًا هلك ، وجميع الذين انقادوا إليه تشتتوا . والآن أقول لكم : تنحوا عن هؤلاء الناس واتركوهم ؛ لأنه إن كان هذا الرأى ، وهذا العمل من الناس فسوف ينتقض . وإن كان من الله فلا تقدرون أن تنقضوه ؛ لئلا توجدوا محاربين لله أيضًا ٣٦ - ٣٩ » . أ . هـ .

وهذا الذى قاله المعلم اليهودى حق ناصع أيدته وقائع التاريخ . فكم من مدّعين دجالين هلكوا وباد ذكرهم ، وتشتتت أتباعهم ، وذهبت دعوتهم ، كأن لم تكن شيئًا مذكورا .

وقد أدرك بعض مشركى قريش هذه الحقيقة بما بقى فى فطرتهم من نور الله ، ففى إحدى معارك المشركين مع الرسول جاء مندوب قبيلة عربية (غفار) إلى قريش يعرض عليهم المساعدة العسكرية بالسلاح والرجال لحرب محمد وأصحابه فقال أحد المشركين العقلاء كلمة عاقلة ما أشبهها بكلمة (عمالائيل) لليهود : قال : أما إن كنا نحارب محمداً وأصحابه فإنهم قلة وإنا عليهم لقادرون ، وإن كنا نحارب الله - كما يزعم محمد - فما لأحد بحرب الله من طاقة » .

وقد بان للقوم أنهم لم يكونوا يحاربون محمداً وأتباعه القليلين ، وإنما كانوا يحاربون الله جل جلاله ، فحقت عليهم الغلبة والهزيمة . وهذا ما جعل فرسان قريش ودهاتها يهاجرون باختيارهم إلى محمد ، معلنين إسلامهم ، وانضمامهم بقلوبهم وسيوفهم للدين الجديد . فهذا خالد بن الوليد وهذا عمرو ابن العاص .

النبى معجزة كاملة وبرهان على نبوته :

ولقد كان جلال الدين الرومى الصوفى الكبير يرى أن النبى - أى نبى - غير محتاج إلى دلائل خارجية ، أو براهين كلامية ، أو معجزات حسية ، لتدل على صدق نبوته ، وصحة رسالته من عند الله . ويقول :

« إن كل شىء فى النبى يدل على أنه نبى مرسل من عند الله . إنه يكون فى سيرته وخلقه وشمائله ومخايله معجزة كاملة ، وبرهانًا صادقًا على نبوته ، ولذلك لما وقع بصر عبد الله بن سلام - عالم اليهود - على وجه الرسول هتف قائلا : والله ليس هذا بوجه كذاب .

« إن كل من رزق العقل السليم ، والطبع المستقيم ، شعر بالإعجاز فى صوت النبى ووجهه ، ولم يحتج بعد ذلك إلى دليل وبرهان » .

ثم يقرر أن بين النبى وضمير أمته مناسبة خفية ، وصلة روحية ؛ فلا يتكلم

النبى بشىء إلا وأسرع ضمير المستقيمين الأصحاء من أمته إلى تصديقه وإجابته ، ويهتز لسماعه ويطرب ؛ لأنه صوت برىء ، لا يتطرق إليه الشك ، وصوت غريب لم يطرق الآذان من قبل ، وليس بينه وبين أصوات الخلق ، وما ألفه العالم من أدب وفلسفة وعلم مشابهة ، يقول :

« إذا رفع النبى صوته بالأذان ودعا إلى الله سجدت له أرواح أمته وطربت ، لأن هذا النداء لم تسمعه الآذان من قبل ، فلا يعلو هذا الصوت الغريب إلا وأسرع السعداء إلى إجابته قائلين : ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ﴾ [آل عمران : ١٩٣] .

ويقول : « إن المؤمن ليس بحاجة إلى دليل خارجى على صدق النبى إذا كان صحيح المزاج ، مستقيم الطبع ، إن دليله فى نفس المستمع . وعلى ذلك يقوم نظام الحياة . فهل إذا دعوت عطشان إلى الماء وقلت له : إن فى هذا القدح ماء ، هل يقول لك : أين الدليل ؟ وكيف أومن بدعوتك وأصدق كلامك ؟ وهل إذا دعت الأم الحنون طفلها الرضيع ليرتضع من ثديها قال الطفل : هات الدليل يا أمى حتى أروى نفسى وأشبعها ؟ .

إن وجود العطش فى نفس العطشان ، ووجود الجوع فى الرضيع ، ووجود الإخلاص فى الداعى ، لكفيل بالتصديق ، مغن عن كل دليل ! » .

« إن المعجزات لا توجب الإيمان ؛ لأنها لقهر العدو ، وإسكات الخصم ، وإعجاز العنيد ! إن الذى يولد الإيمان فى القلب ويخضع الإنسان للمحبة والطاعة هو المجانسة والمناسبة الروحية . إن المعجزة تقهر ، والمقهور لا ينشرح صدره ولا ينفتح قلبه » (١) .

شهادة من عنده علم الكتاب برسالة محمد :

﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ تكفى شهادة الله فوق كل شهادة ولكنه أضاف إليها شهادة : ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ والمفسرون يقولون : إن الكتاب هنا هو التوراة والإنجيل ، وقد ذكرنا معانى الكتاب الكثيرة فى أول السورة ، ويقولون أيضا : بل هو التوراة فقط ، ومعنى ذلك الاستشهاد بمن

---

(١) عن كتاب (رجال الفكر والدعوة فى الإسلام) للشيخ أبى الحسن الندوى ، الجزء الأول .

يشهد لرسالتك يا محمد من أهل الكتاب الذين قرأوا الكتب السابقة وقرأوا فيها البشارة بك ﴿ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ ، يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧]،﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : ٦] فهؤلاء المنصفون يشهدون بذلك .

وبعض المفسرين حدّد هؤلاء مثل من آمن من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي ،وتميم الدّاري ، والجارود ، والنجاشي وغيرهم .

وبعضهم قال : نزلت هذه الآية في عبد الله بن سلام فقط ، روى الترمذي حديثًا عن عبد الله بن سلام قال : نزلت في آيتان من كتاب الله ، آية الرعد - هذه - وآية الأحقاف : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ ، إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأحقاف : ١٠] [١] .

ولكن الشعبي قال : لم يرد في عبد الله بن سلام شيء ، وقال سعيد بن جبير : كيف يقال هذا وهذه السورة مكية وليست مدنية ؟! .

وبعضهم استثنى هذه الآية وحدها وقال : إنها مدنية .

ولذلك رجّح بعضهم أن يكون الكتاب هو القرآن ، ويكون المراد : يشهد لك من يعلم القرآن ومن يتفقّه فيه ، ومن كانت له بصيرة بمعرفة القرآن ، من أمثال السابقين الأولين من الصحابة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسعد وطلحة والزبير وابن عوف وسعيد بن زيد وابن مسعود، وغيرهم ، وكل من له بصر وفهم وعلم بالقرآن يعلم أن هذا الكلام ليس من كلامك،ولكنه من كلام اللهعزّ وجلّ .

وهذا ما نشهده إلى اليوم ، أن كلّ نصّ يدلّ على من قاله ، فشعر المتنبي يدلّ عليه ، وشعر حسّان بن ثابت يدلّ عليه ، وهكذا ، والقرآن الكريم يدلّ على أن محمداً ليس هو قائله ، وكلام محمد ﷺ الذي روى عنه من غير

---

(١) انظر ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) الجزء الثاني ص ٥٢١ والجزء الرابع ص ١٥٦ فقد ذكر هذه الروايات بشيء من التفصيل وذكر أحاديث عن مالك والبخاري ومسلم وغيرهم في موضوع عبد الله بن سلام رضي الله عنه .

القرآن – رغم بلاغته وروعة بيـــانه – مختــلف تماما عن كلام القرآن ، وواضح تمامًا أنه غير القرآن الكريم ، حتى إنه حين يَستَشهد بآية من القرآن يتضح الفارق بجلاء بين الآية وبين كلامه ﷺ ، وإذن ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ أى علم القرآن .

وهناك أقوال أخرى . فبعضهم قال : ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ هو جبريل ، والكتاب هو اللوح المحفوظ .

وبعضهم يقول : هو الله الذى يعلم كل شيء ، وهنا لا معنى لعطف الصفة ﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ على الذات : ﴿ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا ﴾ فهذا غير مستحسن لغة .

ولا مانع عندى أن يراد بمن عنده علم الكتاب : من آمن من أهل التوراة والإنجيل وشهدوا بصدق محمد ﷺ ، لما عندهم من علم الكتاب .. وأهل العلم بالقرآن كذلك ، فهم أعرف الناس بصدق محمد ﷺ .

والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

* * *

الفهـــــرس

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة